الكلمات التي أضعها بين يدي القارئ الكريم قد يشكل بعضها وخزات لمن يرى نفسه على غير الحقيقة، وبحسب تعبير مار بولس «يرتئي فوق ما ينبغي أن يرتئي» (رو12:3). بعض هذه الكلمات ذات أهداف متشابهة متقاربة، وغيرها ليس كذلك، فلكل كلمة هدفها الخاص ومذاقها المتميز، وكما يقال (لكل مقام مقال).

قد تروق هذه الكلمات المئة لفئة من الناس، وقد لا يستسيغها آخرون، أو قد يروق بعضها لهذا، والبعض لذاك. فهذا ليس غريباً لطالما أن لكل امرئ وجهة نظره في الحياة وفي أي مفردة من مفردات هذه الحياة. فلكل كلمة مذاق يستمرؤه ويستحليه قوم، وقوم آخر يراه أكثر مرارة من العلقم (ولله في خلقه شؤون).

دار ماردين

مطابع الف باء ـ الأديب
دمشق

ܒܝܬ ܡܪܕܘܬܐ

ܕܡܠܦܢܐ ܓܘܪܓܝܣ ܒܪ ܐܢܛܘܢ ܕܒܝܬ ܟܝܪܐܙ

Ex Libris

Beth Mardutho Library

The Malphono George Anton Kiraz Collection

ܟܠ ܐܢܫ ܕܫܩܠ ܠܗ ܠܟܬܒܐ ܗܢܐ ܡܢ ܒܝܬ ܐܘܨܪܐ
ܐܘ ܦܣܩ ܡܢܗ ܡܕܡ ܢܗܘܐ ܡܫܡܬܐ ܒܝܬ ܡܗܝܡ̈ܢܐ
ܘܢܘܟܪܝܐ ܡܢ ܒܢ̈ܝ ܡܠܟܘܬܐ ܘܫܡܝܐ ܕܢܦܩܘ ܢܦܠ ܐܘ
ܟܡܐ ܠܗ ܫܒܪܐ ܟܠ ܢܦܩܘ ܗܘܐ ܠܗ ܫܒܪܐ ܟܡܐ
ܒܟܬܒ̈ܘܗܝ ܕܡܐ ܕܢܦܩ ܠܗ ܠܕܘܟܬܗ܀

Anyone who asks for this volume, to read, collate, or copy from it, and who appropriates it to himself or herself, or cuts anything out of it, should realize that (s)he will have to give answer before God's awesome tribunal as if (s)he had robbed a sanctuary. Let such a person be held anathema and receive no forgiveness until the book is returned. So be it, Amen! And anyone who removes these anathemas, digitally or otherwise, shall himself receive them in double.

مئة كلمة وكلمة

ܡܐܐ ܡ̈ܠܝܢ ܘܡܠܬܐ

مئة كلمة وكلمة

ܡܐܐ ܡ̈ܠܝܢ ܘܡܠܬܐ

المطران صليبا شمعون

الموصل 2006

حقوق الطبع والنشر
محفوظة لدار ماردين - حلب
ܙܕܩܐ ܕܛܒܥܐ ܘܦܪܣܐ
ܢܛܝܪܝܢ ܠܒܝܬ ܦܪܣܐ ܕܡܪܕܝܢ

دار ماردين
ܒܝܬ ܦܪܣܐ ܕܡܪܕܝܢ

دار الرها
ܒܝܬ ܦܪܣܐ ܕܐܘܪܗܝ

اسم الكتاب : مئة كلمة وكلمة
المؤلف : المطران صليبا شمعون
تنضيد وإخراج : دار ماردين - حلب
الناشر : دار ماردين - حلب
المطبعة : ألف باء - الأديب - دمشق
الطبعة : الأولى 2006/6/1000

للمراسلات :
دار ماردين للنشر
ص.ب 4194 حلب - سورية
فاكس : 021 / 4642260
هاتف : 021 / 4642210
021 / 4640304

ADDRESS :
MARDIN PUBLISHING HOUSE
P.O. BOX 4194 - ALEPPO - SYRIA
FAX : 021 / 4642260
TEL : 021 / 4642210
021 / 4640304
Email: margregorios@net. sy
www.aleppsuryoye.com

المادة المنشورة تعبّر عن رأي كاتبها ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الدار

ܡܘܟܠܢܘܬܐ

ܡܘܟܠܢܘܬܐ ܟܦܘܬܐ ܠܕܦܘܪܫܢ ܚܘܒܥܐ ܐܝܬ ܠܢ
ܕܐܡܪܢ ܠܡܫܡܫܢܐ ܘܫܡܪܐ ܪܒ ܫܪܒܘ ܐܓܐܓܐܝ
ܘܥܪܐ ܕܡܠܘܐܐ ܕܡܠܝܟܐ ܕܟܘܪܫܘܬܐܝ ܕܒܪܐܘ.
ܡܠܠ ܣܦܟܘܬ ܐܟܕܘ ܘܡܟܕܪܢܘܬܗ ܒܫܬܐ ܐܪܬܐ ܕܟܬܒܐ
ܗܢܐ. ܢܬܠ ܠܗ ܡܪܝܐ ܐܠܗܐ ܚܝܐ ܚܝܐ ܘܗܘܝܐܐ
ܘܦܘܪܥܢܘܬܗ ܒܐܟܦܐ ܫܓܝܐܐ.

ܫܘܪܝܐ

يهدى الكتاب إلى كلّ من :

- يؤمن بالحقيقة ويتعشقها ويتمسك بها
- يمتلك قلباً يجمّله النقاء وتزينه محامد الأعمال
- يحيا للمسيح ويحمل فكر المسيح
- لا يهوى كلمة « الأنا »
- يقاوم تيارات العنف بصبر وإيمان

الكلمة الأولى

صُوَر من الحياة، بل اضمومة ورد ورياحين من كلمات متباينة الأهداف والألوان وبمقاييس ونماذج متنوعة أن رصفت ورُصَّت بعضها إلى بعض كانت قطعة جميلة من فسيفساء : جمعتها من رياض المجتمعات، وبخاصة مجتمعنا الشرقي المطبوع على التقليد الحي الأخاذ والاحتفاظ بالقديم، مدثراً إياه ببعض التجديد من مقتضيات العصر التي لا مناص منها، علماً بأن بعض الخصال غير المستحبة مازالت مستشربة فيه متجذرة متأصلة، وهي بحاجة إلى تنقية، لكونها غالباً ما تشكل مصدراً لما يعانيه المجتمع من مشاكل في مختلف مناحي الحياة، والتي من شأنها تنغيص حياة البشر. وقد غدت تعرية هذه المزايا ضرورة قصوى ملحة وطرحها في سلة مهملات الماضي، إذ لم تعد مقبولة في العصر الحديث، عصر

النضوج الفكري والحضاري، ومواكبته غدت أمراً محتوماً.

الكلمات التي أضعها بين يدي القارئ الكريم قد يشكل بعضها وخزات لمن يرى نفسه على غير الحقيقة، وبحسب تعبير مار بولس " **يرتئي فوق ما ينبغي أن يرتئي** " (رو 12: 3). بعض هذه الكلمات ذات أهداف متشابهة متقاربة، وغيرها ليس كذلك، فلكل كلمة هدفها الخاص ومذاقها المتميز، وكما يقال (لكل مقام مقال). معظمها نشرت تحت عنوان عام (صوت الراعي) في نشرة الكنيسة التي يحررها نخبة من شباب التربية الدينية بإشراف وإرشاد الأب الدكتور يوسف اسطيفان البناء كاهن الكاتدرائية، الذي بهمته تطورت هذه النشرة حتى غدت بحجم مجلة تتراوح صفحاتها بين الثلاثين والأربعين.

قد تروق هذه الكلمات المئة لفئة من الناس، وقد لا يستسيغها آخرون، أو قد يروق بعضها لهذا، والبعض لذاك. فهذا ليس غريباً لطالما أن لكل امرئ وجهة نظره في الحياة وفي أي مفردة من مفردات هذه الحياة. فلكل كلمة مذاق يستمرؤه ويستحليه قوم، وقوم آخر يراه أكثر مرارة من العلقم، (ولله في خلقه شؤون).

قد يكون نهج هذا الكتاب غريباً غير مألوف لدى الأكثرية الساحقة، إذ لم يسبق لرجل دين في كنيستنا السريانية الأرثوذكسية، أن تطرق إلى مثل هذا النهج، لأن معظم كتّابنا الأجلّاء من الإكليروس والمدنيين، الأقدمين منهم والمحدّثين أولوا اهتماماً بالغاً في الروحانيات واللاهوتيات والأدب السرياني والتاريخ الكنسي وما سوى ذلك. وقد

نالوا قصب السبق في هذا المضمار كما تشهد مؤلفاتهم وإرثهم الفكري.. وكما تلاحظ أيها القارئ اللبيب، فان هذه الكلمات في معظمها لم تخرج عن نطاق انتقاد بعض العادات غير المرغوب فيها والتي يمارسها أبناء مجتمعنا الشرقي، وبعض النزعات اللاإنسانية التي تمارس في الخفاء، فتأتي هذه الكلمات لكشف ما ستر منها وطرحها على بساط النقاش. فالغاية الأساسية إذن ليست مجرد انتقاد بقدر ما هي معالجة، فالانتقاد يأتي بالدرجة الثانية من أهدافها، لأن الهدف الأول هو معالجة الأخطاء التي يرتكبها أبناء المجتمع دون أن تدور في ذهنهم بأنها قد تترك أثراً سيئاً في مجتمعهم، والدواء الناجح لمثل هذه الأخطاء والتصرفات الشاذة نجده في كتابنا المقدس، وما انزل فيه من شرائع، غايتها صيانة الإنسان وكرامته، وهو خير من يقدم العلاج الشافي للممارسات المدانة والتي كثيرا ما تدخل ضمن تأثيرات نفسية، وليس بمقدور أحد أن يقدم مثل هذا العلاج لداء متأصّل سوى كتاب الله الذي يتغلغل إلى مكامن القلوب للكشف عن الداء وتشخيصه بدقة وإعطاء الدواء الملائم، شريطة أن يتقيد به المبتلى بأي من هذه الأدواء، أسوة بشفاء أي مريض يتقيد بإرشادات طبيبه، وفي حالة عدم التقيد ينتهي ولا ريب إلى مصير محتوم.

هنا أمثلة لبعض الوصفات التي يقدمها الكتاب المقدس. فإزاء ما يخفي البعض من أمور قد تكشف حقيقتهم، يعطي الكتاب وصفة " **لا شيء خفي إلا وسيظهر** " ويصف للمبتلى بداء الكبرياء مثلاً " **من رفع نفسه أتضع ومن وضع نفسه ارتفع** "، ولمحب جمع الأموال

وتكديسها يقول " **ماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه** " وللمبتلى بحب الذات " **ليكن لكم فكر المسيح** " وهكذا دواليك. وتهدف هذه الكلمات أيضاً إلى توجيه القارئ لقراءة الكتاب المقدس واتخاذ منه عبراً من أجل استقامة حياته، فينتهج نهج السيد المسيح الذي قال : " **تعلموا مني** ".. والله ولي التوفيق.

في رحاب الروحانيات

ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان
الكتاب وضلال النفس
إن لم تكن لي المحبة
ينبوع الفرح
ماذا أفعل لأخلص
الهروب من وجه الله
هلّموا نبني
موقف
هل أنت موجود ؟
المسار الصحيح
الاقتسام
بين ظلمة الليل ونور النهار
لنكتب بقلم الرصاص
الله... و... قيصر
البعد الآخر

ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان

" **ليس بالخبز وحده...**" هذه الكلمة ليست مجرد امتناع عن أكل الخبز، كما أنها ليست جواب على طلب الشيطان، بل أن قصدها الأبعد هو انتهار الشيطان وفضحه أمام الملأ، وفضح ما يكنه قلب الشرير من حقد وخبث ليس ليسوع فحسب، بل لجميع ابنا البشرية.

لقد حاول إبليس أن يقود يسوع إلى المصير الذي قاد إليه الإنسان الأول، فباء بفشل ذريع بعد أن كشف له السيد المسيح سر الحياة الحقيقية. هذا من جهة، ومن جهة أخرى أراد يسوع أن يقدم لنا مثالاً حياً في محاربة إبليس وتجنب التجارب التي لا بد وأن تعترض حياة الإنسان لطالما أنه سقط في التجربة الأولى، لكي يكون على حذر من التجربة ويعلم كيف يعالجها في حالة وقوعها.

لا شك أن انتصار يسوع على تجربة إبليس وفشلنا باجتياز تجاربه، يكمن في أن يسوع خالٍ من الخطيئة، أما نحن فقد استعبدنا الخطيئة التي أخذت تعمل في أرواحنا عمل الآكلة.

إن الله سبحانه وتعالى يحاول أن يختبر إيماننا، لأن قوة أو ضعف هذا الإيمان هو الذي يقرر نجاح أو فشل المؤمن في عدم الاستسلام للتجربة أو الخطيئة، وفي الإنجيل المقدس نماذج عدة لمثل هذا الاختبار، كاختبار يسوع لإيمان بطرس الذي ظهر ضعفه عندما لم يستطع أن يكمل سيره على الماء فكاد يغرق، لو لم ينشله الرب في اللحظة الأخيرة (متى 14: 31) وعندما فشل الرسل في شفاء طفل صرعته الأرواح الشريرة (لو 9: 40)، وبالعكس فأنه قدم لهم نماذج حية على الإيمان الحي، كإيمان النازفة الدم (متى 9: 20) والكنعانية (متى 15: 26) التي اتخذ من إيمانها نموذجاً للإيمان الثابت. وفي سفر التثنية (8: 2) يجرب الله شعب العهد القديم إيمانهم، وهل أن الحياة البرية زعزعت ذلك الإيمان وانحرفوا عن عبادة الله وحفظ وصاياه ؟ يقول كاتب السفر أن الله أذل ذلك الشعب وأجاعه ثم أطعمه من... لكي يعلمه أنه ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل ما يخرج من فم الرب (8: 3).

فالخبرة والحالة هذه تكشف عن صحة وثبات إيمان الفرد أو كون ذلك الإيمان سطحياً ضحلاً، تزعزعه مجرد هبة ريح مهما كانت قوتها. فنجاح المؤمن في التغلب على التجربة دليل طاعته الكاملة لله، والعكس بالعكس، ومن أجل هذا النجاح، علينا أن نولي اهتماماً أوسع

للروح لكونه الحياة والسلام كقول الرسول بولس (رو 8: 6). ولكون الروح هي دائماً العنصر الأقوى في الإنسان من حيث كونها منبثقة من روح الله، لذلك تهاب الشياطين من الذي يسلكون بحسب الروح وينمون في الحياة الروحية.

الإنسان لدى المسيح اثنان واحد متمثل باللحم والدم، يعيش بالخبز الذي من الأرض والأخر متمثل بروحه، وغذاؤه الوحيد هو الخبز النازل من السماء، خبز الحياة الأبدية، يسوع المسيح المأكل الحق، والمشرب الحق.

الأول يعيش لنفسه دون أية مظاهر شركة حقيقية تجمعه مع الآخرين، حيث لا مكان للإخوة البشرية في مشاعره، والثاني تربطه بغيره من الناس روابط روحية قوية يغمره شعور بكونه أخاً لكل إنسان فيرفعه هذا الشعور عن مستوى الصغائر ويفعم قلبه بالحب الطاهر فلا يدع الحقد والضغينة والحسد يعشش فيه أو ينظر إلى الغير نظرة فوقية بل ينظر إلى قريبه بمنظار أبيض ناصع خال من كل تشويش أو تشويه ومن كل غش وخديعة.

إنه لفي وهم وغباء من يعتقد أن حياة الإنسان هي أكل وشرب ومتعة وأن سعادته توفرها المادة، غير عالم أن الله لم يخلق الإنسان لهذا بل ليمتعه بمجد ملكوته وملكوته ليس أكلاً وشرباً بل " **برّ وسلام وفرح روحي** "، خلقه ليشاركه الحب وحب أخيه الإنسان الحب النابع من حب الله وكقول الرسول يوحنا " **إن الله لم يأتِ بالإنسان إلى العالم**

لكي يصب كل قلبه ومشاعره في حب العالم لأن من يحب العالم لا يقوى على محبة الله بالشكل المطلوب ذلك أن العالم ليس سوى شهوة الجسد وشهوة العين وتعظم المعيشة " (1 يو 2: 16) وهو وكل شهواته في زوال ولا يثبت الذي يعمل مشيئة الله والذي يهيئ ذاته لتعمل فيها كلمة الله ويلهج بها صبح ومساء ويجعلها قوته اليومي مؤمناً أن ليس بالإمكان أن يعيش الإنسان حياة حقه دون الله، أجل لقد رتب الله أن يكون الخبز قواماً للحياة الدنيا ولكن يجب أن لا يغيب عن البال بأن بركة الله هي قوام هذا الخبز.

الحياة بكلمة الله هي الحياة مع الله وهي تختلف اختلافاً كلياً عن حياة من هم في هذا العالم، أنها حياة المؤمن الذي يعيش وكأنه ليس من هذا العالم " **أنتم لستم من هذا العالم... أنا اخترتكم** " لأنقلكم من حياة العالم إلى حياة الله أو الحياة مع الله وهذا لا يعني بالطبع التفرغ الكلي لحياة الروح بل حياة متأثرة بوحي روح الله وبكل قوى الخبز وبعيدة عن سلطان قوى الشر.

حياة مشاركة فاعلة في أفراح القريب وأتراحه حياة فيها يعطى ما لله لله وما لقيصر لقيصر فلا يبخس فيها حق الحياة الدنيا الذي ينشد المتعة البريئة يرتاح إليها الضمير الحي، حياة توفر الراحة النفسية وتبعد كابوس المتاعب والضيقات التي تتعرض لها حياة الإنسان بفضل الصوت آلاتي من عند الرب " **عصاك وعكازك هما يعزيانني** " (مز: 23)، حياة تنشد القيم الأخلاقية التي ترفع من شأن الإنسان وتصون كرامته.

الكتاب وضلال النفس

منذ عهد بعيد، كنت ترى نفوساً رابضة في حظيرة الإيمان، تتمتع بالطمأنينة والسلام، تبتسم للحياة فتبتسم لها الحياة، وإذا بها وعلى حين غرة، تشرد من الحظيرة الآمنة، لتدخل متاهات الضلال والضياع لا قرار لها معرضة ذاتها لشتى أنواع المخاطر والمهالك من حيث تدري أو لا تدري لا تجد لها هادياً وسنداً لأن السند الأقوى للنفس المؤمنة هو الله، وها هوذا قد ابتعدت عنه وزجت ذاتها في أمر لا يحمد عقباه.

ففي العهد القديم كانت نفوس (مختارة) تتسلل عن حظيرة الله إلى ظلام الجهل والوثنية الفاسدة لتعبد البعل وسواه من الآلهة المزيفة. ولكن غضب الله كان لها دوماً بالمرصاد فينزل عليها نزول الصاعقة لتركها عبادة الله الحق وانسياقها وراء الباطل الضلال. كانت هذه الحالة

تتكرر بين حين وآخر كما أورد كتاب العهد القديم، فكانت نقمة الله تحل على المارقين عن حظيرته وعبادته، بأساليب وأشكال شتى، وبصورة مباشرة، وهذا هو شأن الله في الانتقام وفي كل حين، ممن يزجون أنفسهم في ضلال مبين أو الحاد مشين. فلا يعود لهم نصيب معه في ميراثه الأبدي " **إني لا أعرفكم قط. اذهبوا عني يا فاعلي الإثم** " (متى 7: 23).

وهنا نتساءل لماذا تضل النفس ؟؟ والجواب أن سبب ضلال النفس عدم انصياعها إلى صوت الله، تماما كضلال النعجة التي لا تسمع لصوت راعيها الذي يقودها إلى الأمان والسلام، فصوت الله هو دوماً في مسامع البشر. فبعد أن وضع في الإنسان الضمير أو ما يعرف بالناموس الطبيعي. ليكون له مرشداً وهادياً إلى طريق الصواب، وضع من ثم بين يديه ناموساً ملموساً ليكون دوماً نصب عينيه ليقوده إلى حيث الله، ويقيه شر الزلل والسقوط وأعني به الكتاب المقدس، وأودع فيه كل ما يحتاجه المرء في حياته الدنيا والآخرة. قال أبونا إبراهيم للغني المعذب الذي طلب السماح له بالعودة إلى الحياة ليرشد أخوته إلى الصواب ويطلعهم على الحقيقة المرة التي يتلمسها " **أن لديهم موسى والأنبياء (الكتاب المقدس) فليستمعوا إليهم** " (لو 16: 29).

فالكتاب المقدس، ليس مجرد كتاب لاهوتي لا يفيد منه سوى اللاهوتيين، بل هو كتاب الحياة لجميع شرائح البشر ولكل الأجيال والفئات، وهو كتاب محافظ على حيويته فلا تطاله الشيخوخة، فيه يجد

كل فرد ضالته المنشودة، العلماء، الفلاسفة، الأدباء، الشعراء وسواهم. إنه الكتاب الذي كان فيه فكر الله منذ الأزل، ويبقى متكاملاً إلى الأبد، دون حاجة إلى فلسفة التأويل والتأوين والنظريات المعاصرة الأخرى التي تمس قدسيته وعصمته، بتوشيحه إياه بثوب غير ثوبه، ومن ثم حجب الحقائق الإلهية عن قصد أو غيره. وأضعاف مفعوله في صيانة الذات المؤمنة من الضلال، ولكن في كل الأحوال لا خوف على الكتاب لأن الله يقف وراءه.

ومن هنا فالكتاب المقدس، مشعل وضاء ينير الدرب إلى السماء، ومن البديهي أن يسقط في وادي ظلال الموت من لا يمسك بيده هذا المشعل الهادي إلى سواء السبيل، والواقي من الانحراف والانزلاق عن المسار القويم. فإن شابت النفس شائبة فهو كفيل بتطهيرها، وإن خامرتها أفكار شريرة، فهو أمين أن ينتزعها ويحل مكانها أفكاراً طاهرة. فهو لا يدخل مجتمعاً إلا وأفاض عليه السلام والنعم والبركات، ووفر فيه كل عناصر الازدهار والرقي، فقد كان سر نجاح العديد من الشخصيات العالمية في مضامير اختصاصهم. إذ رأوا فيه السبيل الأمثل لبلوغ أهدافهم ونجاحهم. في حياتهم. ومن خلاله يستطيع المرء أن يميز الحق عن الباطل والخطأ عن الصواب والضلال عن الحقيقة، ولا شك في ذلك لكونه كلمة الله الأزلية التي لا تسقط أبداً.

وعليه فإذا ما شعرت النفس المؤمنة بغمامة الضلال تدنو منها، فما عليها إلا أن تبادر إلى كتاب الله ليبددها فتنقشع وتزول.

إن لم تكن لي المحبة...؟

إذن لكنت ريشة بمهب الريح، تتقاذفني إلى حيث لا أشاء، لأني أكون قد فقدت الإرادة الصالحة المنبعثة عن المحبة، وأكون مجرد جسد عديم الروح، عديم الحياة التي لا تنتعش إلا بنسمات المحبة الرقيقة، والتي تفقد معناها إن هي فقدت المحبة وتصبح متاهة مضللة، لأن مشعلها الذي يقودها إلى سواء السبيل يكون قد خلا من الزيت.

إن لم تكن... فأنا لست بشيء ولئن جمعت كنوز الدنيا، ولبست أعظم من سليمان وأبهى من زنابق الحقل.

إن لم تكن... فأنا لا أعرف للإنسانية معنى، وإن جهلت هذا أكون قد جهلت ذاتي وكياني، وإن جهلت ذاتي، ترى ماذا أكون ؟

لا أكون سوى نحاس يطن أو صنج يرن، وهل لطنين النحاس قيمة ؟ وهل لرنين الصنج ثبات، أم أنه يتلاشى في طيات الفضاء اللامتناهي ؟

إن لم تكن... فأنا وحيد في هذا الكون رغم أنه يعج بمليارات من البشر، لا أخ يسندني ولا صديق يواسيني في محنتي أو يشاركني أفراحي أو يداوي جراحي، ويخفف عني هموم الحياة، وما أكثرها، أو يسقيني ماء بارد في عطشي، أو يخفف من وطأة وحشة وحدتي.

إن لم تكن... فهل أكون إنساناً حقاً، ذاك الذي أجملوه بأصغريه بقلبه ولسانه. والقلب لا يكون حياً ومعافى إن لم تملأه المحبة. واللسان، لا يكون نزيها مستقيماً إن لم يردد دوماً ويترجم أحرف كلمة (المحبة)، إذ بترديد هذه الكلمة يكون يذكر الله الذي شاء أن يوصف بأنه محبة.

إن لم تكن... فأنا بعيد عن معرفة المحبة (1 يو 4: 8)، وبعيد عن مفاهيم العطاء لأن المحبة بذل وعطاء. ولاعتبرت الله كما اعتبره آخرون متسلطاً يتحكم بقسوة في رقاب البشر، بعيداً عما ينتابهم من محن مريرة وتجارب قاسية أليمة لا يأبه لبؤس الإنسان وشقائه، لا بل قد يسر بذلك وَلَتخيَّلته إنساناً يحصد من حيث لم يزرع ويجمع من حيث لم يحصد (متى 25: 24)، لكن المحبة علمتني أن الله آب رحيم رؤوف بالعباد ولا رأفة الأب بأبنائه (مز 103: 13).

إن لم تكن... لما أدركت معنى الرفق وقيمة الصبر، وهما من صميم تعاليم يسوع، فهي التي قادتني إلى معرفة الرفق لكونها ترفق

وتتأنى، وعلمتني كيف أصبر على محنة وإساءة لأنها تصبر على كل شيء وتصفح عن كل شيء. وبالصبر أكون قد اقتنيت نفسي "**بصبركم تقتنون أنفسكم**" (لوقا 21: 19).

إن لم تكن... فأنا جاهل وأمي لا أفقه من شؤون الحياة شيئاً، ولئن كان لي العلم كله، واكتنزت المعرفة كلها. وسأبقى كذلك إن لم أتعلم كيف أحب... أحب من أنا جزء من كيانها، تلك التي تغمرني بحنو أمومتها المنقطع النظير، أحب أمتي ووطني، أحب أخي في الإنسانية وأخلص الود لكل واحد. أحب كنيستي التي تركها لنا يسوع ذخراً أبدياً.

لو لم تكن... فأنا معرض لكل فعل سيء وتصرف غير حكيم، للحسد لكبرياء لسوء الظن، للظلم، لعدم التسامح.

فيا لروعة الحياة مع المحبة، ويا لبهجتها عندما يُرسي الناس أعمالها وتصرفاتهم على قاعدتها الراسخة.

ينبوع الفرح

التقيت به بعد النكبة التي حلت به ولم تبقَ له من حطام الدنيا شيئاً ولم تذر، بعد أن كانت أهراؤه ملأى بالخيرات مشكّلة ثروة هائلة. وكنت أتصور أن أراه بخلاف ما رأيته تماماً، أي أراه مهموماً وقد أخذ منه الحزن مأخذاً، غير أني فوجئت بتلك الابتسامة الرقيقة الشفافة التي عهدناه بها، والتي لم تكن تفارق شفتيه، مازالت متألقة مرتسمة على ثغره البسام، ولم يكن بوسعي إلا أن أبادله الابتسامة وهنا اعترف بأن ما كان يدور في ذهني أن أفعله لدى لقياه, هو أن أتصنّع رسم علامات الأسى على وجهي تعبيراً عن أسفي وتألمي العميق لما حل به، ولئن كان هذا الموقف غير سليم، لكنه متماشي مع طبيعة أبناء آدم اليوم، فهم يظهرون بعكس ما يبطنون، يتظاهرون بأنهم يبكون مع الباكين، لكن

ببضعة دموع تماسيحية يسيلونها على وجناتهم، ويفرحون مع الفرحين، ولكن بمجرد الشفاه لا أكثر. فقد إذا هذا الموقف سنه لدى الأغلبية الساحقة من الناس، في حين هو نوع من الرياء في نظر يسوع، يلحق بممارسيه الويل واللعنة.

بعد مصافحة صديقي بحرارة، لم أتمالك إلا أن اثني على شجاعته فقلت : يا لك من رجل جبار، لا بد أنك تأثرت بأيوب البار فعرّض ابتسامته وقال بهدوء، يبدو لي أنك تود أن أفشي لك سر هذه الابتسامة، وسبب هذا الموقف الذي يناقض موقف أبناء هذا العالم الذين تنتابهم مأساة مثل التي انتابتني. ثق يا صاح، أن ابتسامتي هذه ليست مزيفة، بل حقيقية نابعة من أعمق أعماقي، وصادرة عن بصيص الإيمان الحي الذي التهب في داخلي والذي كان يعمل قبلاً ببطء. فلم ينطفئ بسبب المأساة التي مررت بها، بل ازداد حيوية وقوة إلى أن تأجج لهيبه في داخلي، وإذا بي أشعر وكأن عبئاً ثقيلاً قد أزيح عن كاهلي بعد التجربة التي شكلت منعطفاً خطيراً في حياتي غيّر مجراها نحو الأفضل، أجل، نحو الأفضل، ولئن كان في نظر الناس نوعاً من السقوط والتحطم، لا بل والإحباط.

أجل، رغم كل ما حلّ بي لم استسلم لليأس، بل صممت على أن اتخذ من هذه التجربة قاعدة متينة صلبة لبنيان نجاح أعظم وبناء مستقبل أكثر إشراقاً وازدهاراً مما يمكن بناؤه عن طريق المادة، وأنا موقن من هذا النجاح، لا سيما واني أضع نصب عيني أولئك الجبابرة الذين خدموا البشرية باختراعاتهم ومآتيهم الإنسانية، أولئك الذين لاقوا في

البدء فشلاً ذريعاً. لا بل هزءاً كافياً للإحباط واستحواذ اليأس عليهم، بيد أن تصميمهم على النجاح كان أقوى، فلم يتقاعسوا، بل واصلوا حتى تحقق النجاح الذي صبوا إليه. وقد تعلمت منهم، أن ليس مهماً أن يعيش المرء بيسر مثلما هو مهم أن يعيش سعيداً، فالسعادة الحقة لا توفرها أموال الدنيا.

واستطرد : لا تعتقد يا أخي أن المال ممكن أن يكون قاعدة أمينة تستقر عليها عوامل الفرح الدائم لطالما أنه مؤثر خارجي فقط، فالفرح ليس بسلعة تستورد، بل هو دفق ينبع من الداخل، والقاعدة التي ترسو عليها دعائمه هو الإيمان. لا أخفي عليك أن ما حدث لي ترك في البدء غصة عميقة في نفسي لكوني إنساناً كسائر البشر، غير أن أمراً واحداً غيّر مجرى تفكيري وحياتي، ألا وهو موقف السيد المسيح الذي عبّر فيه عما تخالجه من مشاعر الفرح وهو في أوج وذروة آلامه، حين قال لتلاميذه " **ليكن فرحي فيكم...ويتم فرحكم** " فالمسيح، عندما كان يمر بتجربة أليمة، وخطر الموت قاب قوسين منه أو أدنى، يعبر عن الفرح التام الذي يريده لتلاميذه. لقد تصورت المسيح وهو محاط بتلاميذه وأمائر الحزن بادية على وجوههم تعبيراً عما سيعانيه معلمهم من الآلام والموت، في حين كان يتحدث إليهم بلغة الفرح. أقول : لقد أخذتني الدهشة وأنا أتامل هذا المشهد الرهيب. فقلت في نفسي، ألا يجدر بي وأنا ادّعي التلمذة ليسوع أن أتشبه بسيدي، فأطلق العنان للفرح كي ينطلق من داخلي فيغمرني وأنا في ضيقتي ؟ ترى هل أن التألم على ما فات يعيد إليّ ما فقدته ؟ ما الذي كان يمتلكه المسيح وتلاميذه عندما حدثهم بلغة الفرح، أقول : لا شيء حتى أن تلك الدريهمات القليلة التي تجمعت في

صندوق الجماعة ابتزها الإسخريوطي. وهنا شعرت بموجة فرح عارم غمرني، ما شعرت بمثله من قبل. لقد خسرت كل عالمي السابق، ولكن المهم ربحت نفسي التي رجح المسيح كفتها على أية كفة أخرى، فانساب من داخلي نبع فرح غزير، فأدركت أن بوسع المرء أن يفرح حتى في المناسبات غير السارة، أو كما يقال، في السراء والذراء، لطالما هناك إيمان حي عامل بإمكانه أن يحيل الأتراح أفراحاً. ألم يوصِ الرسول بولس بالفرح الدائم " **افرحوا في كل حين** ".

وختم حديثه بقوله، أرجو أن لا تفهم من كلامي أني متطرف وشاذ عن البشر في ما يخص الحياة الدنيا، فأنا مازلت إنساناً لا أكثر، وإن أنكرت أهمية المادة في حياتنا، أكون غير صادق مع نفسي، غير أنني أصبحت انظر إلى المادة من زاوية واحدة وهي أداة أو آلة لتسيير دفة الحياة لا أكثر. أنت تعرف كيف سعيت وراءها بجنون وكأني أسابق الزمن، كنت لا آبه لما أعانيه في سبيلها من ركوب الأهوال والمخاطر حتى جمعت منها الكثير، ولكن اليوم وبعدما جردتني التجربة منها، صرت أشعر وكأنني قد تحررت من عبء ثقيل الوطأة، لا سيما وقد كانت قد أبعدتني عن الله، أولاً : لأني اعتمدتها في كل شؤوني حتى لتحقيق مآرب غير مقبولة. كانت هي القوة الوحيدة التي بها أحقق كل طموحاتي، ناسياً قوة الله ونعمته. ثانياً : لأني لم أعد أتردد إلى هيكل الله فنسيت حتى تلك الصلوات العذبة التي لقنتني إياها أمّي في طفولتي. فشكرا لله الذي أعادني إلى رشدي وفتح أمامي طريق الخلاص فالفرح أو السعادة فيض داخلي من أعمال الروح الطاهرة، فلا يأتي عن مؤثرات خارجية وإن حصل فإلى حين.

ماذا أفعل لأخلص ؟

سؤال طرحه سجان فيليبي على الرسول بولس الذي زج في السجن نتيجة لمؤامرة يهود المدينة، بقصد وضع حد لنشاطه الرسولي في نشر الخلاص وتقديم المسيح للشعوب إلهاً ومخلصاً، بيد أن الله الذي لا يتغافل عن عبيده الأمناء والأخيار لم يغفل عن السجين بولس بل أرسل ملاكه ليلاً لكي يحل السلاسل التي كان موثقاً بها، وهكذا كان، فتنبه السجان وإذا بأبواب السجن مفتوحة مصارعها فكاد يفقد صوابه وحاول الانتحار فطمأنه السجين بولس بأن أحداً من النزلاء لم يغادر موضعه، فارتمى عند أقدام بولس وسأله " **ماذا أفعل لأخلص** ؟ " وكان الجواب " **آمن بالرب يسوع تخلص أنت وأهل بيتك** " (أع 16: 30)، ولكن هل انطوت صفحة هذا السؤال لأن الحادثة لم

تتكرر مع بولس ؟ طبعاً كلا، لأن أياً منا اليوم لا يشعر بحاجته إلى طرح هذا السؤال على من يمتلك الجواب الناجع عنه ؟ فإذا كان الخلاص بالنسبة إلى السجان يتمثل بالتخلص من براثن الوثنية وتقاليدها المحجوبة وإذا كانت الكلمة الشافية آنذاك هي " **آمن** "، أفلا توجد اليوم براثن متعددة متشعبة نحن مبتلون بها ؟

ترى ما هي الكلمة الناجعة للتخلص منها ؟ بالتأكيد ليست كلمة " **آمن** " لأننا مؤمنون فهي إذن كلمة أخرى، ومن هو الذي ينطق بهذه الكلمة ؟ أنه ولا ريب ذاك الذي قال عنه الرسول بطرس " **أن لا خلاص إلا به (يسوع)** " (أع 4: 12)، والكلمة التي ينطق بها تختلف باختلاف ما نحن مبتلون به فهو الوحيد الذي به نلنا وننال الخلاص من أية مشكلة تعترضنا في مسيرتنا مهما كانت عويصة وصعبة وكثيرة المشاكل التي اعترضت الرسل فالتجاؤا إليه وسمعوا فورا الكلمة " **الحل** "، من ذلك ما أخبرنا به متى الرسول من أنهم كانوا يوماً في قارب فهبت عاصفة هوجاء فنادوا يسوع " **أننا نهلك** "، وإذا بالخلاص يأتي بكلمة هي " **انتهار الريح** "، وكلمة يسوع هي حية أبداً ولا تسقط على الأرض، فإذا ما هبت عليك عواصف مقلقة فما عليك إلا أن تنادي يسوع لينتهر ما يزعجك ويعكر صفو راحتك فيعود إليك الهدوء والاستقرار.

ومن مشاكل الإنسان الشخصية، تلك الهموم التي تقذف بأمواجها العاتية ذات اليمين وذات الشمال ولا يجد وسيلة للتخلص

منها، فتستحوذ عليه من الكآبة المريرة التي قد تستحيل إلى داء عضال يقضي عليه إن هو لم يبحث لها عن علاج، ألم يشبه الرب يسوع هموم الحياة بالشوك الذي يقضي على بذرة الإيمان إن هو نما جنباً إلى جنب مع تلك البذرة فلا بد إذن من تأصيل تلك البذرة وإلا فشوك الهموم يخنقها لا محالة فيسمع كلمة يسوع " **يا قليل الإيمان** " ولكي لا نكون قليلي الإيمان علينا أن نمتلئ بالروح كما يوصي الرسول بولس لماذا ؟ لأن من شأن الروح القدس أن يدخل العزاء إلى القلوب المهمومة المكلومة، فلما اضطربت قلوب الرسل وامتلأت همّا على أثر انبأهم برحيله من هذا العالم، أرسل إليهم روحه القدوس ليكون خير رفيق لهم في مسيرتهم الرسولية وخير مدافع في جهادهم ضد قوى الشر، وخير معز في الضيقات حيث تداهم هموم المشاكل التي كان لا بد أن تعترض مسيرتهم الرسولية..

فمن أعمال الروح القدس تطهير القلوب من الهموم وملؤها بالفرح الروحي، هذا ما يفعله روح الله مع كل من يمتلئ به، وكأني به يقول " **افرحوا في الرب..** " و " **رنموا له ترنيمة جديدة... لأن الرب أعلن خلاصه** " (مزمور) فالروح قادر أن يبدد غيوم الهموم القاتمة التي لا تمطر سوى الموت الزؤام. فإذا ما ساورت هموم الحياة وسالت نفسك ماذا أفعل لأتخلص منها، نقول التجئ إلى يسوع فهو أمين وقادر أن يعينك ويرسل إليك روحه القدوس المعزي. ولعل من أبرز ما يثير الهموم لدى البعض هو حالة الفقر التي يعيشونها ناظرين إليها وكأنها مشكلة أو

نكبة، إلا أن الأمر ليس كذلك بالنسبة إلى الذين تجذر الإيمان في قلوبهم، فهؤلاء يرونه ضيقاً ليس من المستحيل أو الصعب تحمله، لأن مشكلة الإنسان ليست في ما يأكل ويشرب ويلبس فالرب يوصي بعدم الاهتمام الزائد بذلك كونه هو الذي بقيت ويلبس كما يفعل بالنسبة إلى طيور السماء لا سيما والإنسان أفضل من كل الطيور، لكن المشكلة تحصل عندما لا يعي المرء كيف يتصرف، فقد يتصرف تصرفاً أرعن كان يجرم من أجل الثراء أو القضاء على الفقر.

أما الإنسان الحكيم فيحاول أن يجد لفقره مخارج مقبولة ومرضية لدى الله والبشر كان يقول " **إن كان الله قد رضي بذلك فلماذا لا يرضى البشر به ؟**"، قال الجامعة " **ولد فقير وحكيم خير من ملك شيخ جاهل** " (4: 13)، خاصة إذا اقترنت الحكمة بالإيمان بابن الله الذي يغني ويفقر يضع ويرفع.. يرفع الفقير من المزبلة للجلوس مع الشرفاء ويملكهم كرسي المجد (1 صم 2: 7)، إن مثل هذه النظرة الحكيمة للفقر كانت لدى الرسل والمؤمنين الأوائل، وليس هذا غريباً لطالما أن المعلم الأول يسوع عاش ومات بالجسد فقيراً، ولم يكن له أين يسند رأسه، ويقول الرسول بولس : " **أن المسيح افتقر لكي نستغني نحن بفقره** " (2 كور 8: 9) نستغني بغنى نعمه الإلهية وبمواهب روحه القدوس التي بها نستطيع أن نغني الآخرين، يقول " **نحن الفقراء نغني كثيرين**"، أما إذا اعتبر الفقر نكبة أو تجربة قاسية، فبإمكان الإيمان أن يحيل ذلك إلى فرح بل إلى فرح، وبهذا الخصوص يقول القديس يعقوب " **احسبوه كل فرح**

يا أخوتي حينما تقعون في تجارب متنوعة عالمين أن امتحان إيمانكم ينشئ صبراً " (1: 2) وكما أننا نشكر الله في الخيرات كذلك يجب أن نشكره أيضاً في الضيقات مؤمنين بأن لله في ذلك مقاصد هي دائماً في صالح الإنسان، ومع ذلك فنحن لا نقول بأن الفقر واجب، بل أن ننظر إليه بعين الإيمان إن وجد، وهنا نقول : إذا ما مررت بمثل هذه التجربة أسأل : ماذا أفعل لأخلص، فيأتيك الجواب " **الق على الرب همك فهو يعولك** " (مز 55: 23).

الهروب من وجه الله

هل ترى أن كلمة الله الخالدة لآدم " **آدم، أين أنت ؟**" سرت إلى جميع نسله عبر الأجيال، كما سرت خطيئته إليهم ؟. " أين أنت ؟"، هذا السؤال وجهه الله لآدم لدى محاولته الفاشلة الهروب من وجهه تعالى، وبقراءة أخرى، لماذا تهرب يا آدم من وجهي، وجه العدالة ؟ أليس في هذه العبارة ما يوحي بالتأنيب اللاذع، رغم أن الله رحيم غفور، علماً بأن رحمة الله مهما كانت واسعة، لا تناقض عدالته أو توقفها عند حدها، كما يقال فإن الله إلى جانب سماحته المطلقة هو عادل ويحكم بالحق والقصاص، ولا محاباة لديه ولا تمييز عنده بين هذا وذاك، إلا بما يكون عليه الإنسان من تُقي وعطاء، والمآتي الحسنة.

فالجميع عنده سواسية، وهو يعرف كيف يسبغ رحمته على من يستحق الرحمة، ويترأف على من يستحق الرأفة " (خر 33: 19).

لقد تجسدت محبة الله في خلقته الإنسان ومنحه دالة كبرى إلى درجة أن يقف أمامه ويتحدث إليه وجهاً لوجه وكأنه يتحدث نداً إلى ندّ، غير أن الإنسان فقد هذه النعمة الفريدة بسبب عدم طاعته، فتبددت أحلامه في السعادة المطلقة المستقبلية، وأخذ منه الندم كل مأخذ، وساوره الشعور بالخوف وهو يتجول بين أشجار الجنة الباسقة وجداول المياه الدافقة يداعب وجهه الطري نسيم الصبح الباسم، لا سيما بعد أن امتدت يده ليلتقط ثمرة طازجة سال لها لعابه، فسجل بذلك أفدح خسارة في تاريخ أبنائه البشر، وإذ شعر بفظاعة خطئه، حاول الهرب من أمام وجه الله.

وكأني بابنه داؤد يعتذر إلى الله عنه وبنبرة تنم عن خجل ورهبة والوثوق التام باستحالة النجاة بالهروب والاختفاء، عن وجه الله كما فعل أبوه آدم الهارب الذي قال وبمسحة من الخجل " **سمعت صوتك فاختفيت** "، أما داؤد وهو واثق من عدم جدوى الهروب من وجه الرب فناجى ربه قائلاً " **أين اذهب من روحك، ومن وجهك أين اهرب، إن صعدتُ إلى السماء فأنت هناك، وإن فرشت في الهاوية فها أنت، إن أخذت جناحي الصبح وسكنت في أقاصي البحر فهناك أيضاً تهديني يدك وتمسكني بيمينك** " (مز 139: 7)، فكلمات داؤد هذه تعبر عن الشعور بالذنب نيابة عن أبيه آدم، لذلك فهو يحاول الهروب من وجه

الله ولكن دون جدوى، من جهة أخرى فإن الشعور بالذنب يشكل مؤشراً إلى يقظة الضمير، والضمير إذا ما استيقظ نخس صاحبه بمناخس تتناسب حدتها مع جسامة الجرم، وقاده إلى الندم فالتوبة، هي التي تهيئ السبيل السوي للمصالحة مع الله.

يقول المثل الشعبي " **أن الغربال لا يحجب نور الشمس** " قد يرى البعض هذا المثل مجرد قول عابر إلا أن لدى التمعن به، يلاحظ فيه تأنيب لمن يقترف إثماً أو جرماً بعيداً عن أنظار الناس، وكأن شيئاً لم يحدث، ويغيب عن باله عجزه عن إخفاء الأمر بالنسبة إلى الله الذي يراه أكثر مما يرى المرء نفسه، فكل شيء مكشوف أمام الله، فهو يرى ما لا نراه لا بل ويكشف أفكارنا ونوايانا. دونكم قصة صغيرة تتضمن عبرة كبيرة (اصطحب قاطع طرق ابنه الصغير ليشاركه " العمل " فتوقل رابية ليرصد كل عابر، وطلب إلى ابنه أن يراقب المسالك، ثم سأله : هل من أحد يرانا ؟ فأجاب الطفل : نعم يا بابا، ومن هو ؟ أجاب : أنه الله).

نعود إلى موضوع هروب آدم لنلاحظ وراء ذلك أمرين، **الأول** : وكما ألمحنا، شعوره بالذنب من جراء معصيته وعدم التزامه بالوصية الإلهية، وهو أمر طبيعي أن يشعر كل أمريء ذي إحساس بالذنب في حالة تعديه الشريعة الإلهية وانحرافه عن تعاليم السماء المودعة في الكتاب المقدس، أو ضربه للقيم الإنسانية والروحية والاجتماعية عرض الحائط، **والأمر الثاني** : اكتشافه كونه عارياً وتيقنه من أن الحالة لم تعد طبيعية بل مخجلة أيضاً، فهرب متستراً بأوراق الشجر ومختفياً عن

وجه الله. إن موقف آدم هذا هو خير تعبير عن شعوره بالخطأ الجسيم الذي ارتكبه، فشكل بذلك مثالاً حياً للإقتداء به في حالة ارتكاب أي خطأ فادح، انه اعتراف بالذنب وهو موقف فضيل ومقبول جداً في المجتمعات الحية، لا بل يعتبر موقفاً يستحق الثناء والإطراء، أليس جديراً أن يختفي عن الأنظار من يرتكب جرماً وإثماً قبيحاً أو من عرّى نفسه من القيم الأخلاقية والمثل العليا إلى درجة إفلاسه من الحقوق الاجتماعية ؟ فمثل هذا لا بد وأن يسمع الله يقول له : " **أين أنت ؟**"، أين أنت من حالة البرارة التي أبدعتُكَ بها ؟ لماذا تُرى عرياناً ومجرداً من كل ما يُقرّبك إليّ، لماذا تعريت من إيمانك ومن المحبة التي زرعتها في قلبك ؟ لماذا لا تعود وتتدثر بثوب التوبة النصوح، فقد وفرت لك ما يستر عريك ليس فقط من ورق التين، بل من تقوى وقداسة.

أيها الأخ : لدى دعوة الله إياك، اعلم إنما يريد أن تكون بكليتك عنده قلباً وقالباً، أنه لا يرضى منك بمجرد حضورك إلى هيكله أو رسم علامة الصليب على جبهتك، أو أن تحتل مكاناً على أحد المقاعد في الكنيسة وأنت تلتفت ذات اليمين وذات اليسار، وذهنك شارد وساه عن الغاية المتوخاة من حضورك، فبموقفك هذا تكون هارباً من وجه الله دون أن تدري، ألا يُعدُّ هارباً من وجه الله من يعيش بعيداً عن حياة الله، أو من لا يستقي من ينابيع الحياة الحقة، الأسرار الإلهية ؟ لماذا تهرب وأنت تسمعه يناديك " **هلمّ إلي، لا تخف** "، أتردد قول أبيك آدم يوم ناداه ربه فقال " **سمعت صوتك فاختبأت** "؟، هل تشعر أنك عريان

ومجرد من جلباب الحق وثوب التُقى، أو من الإيمان والمحبة والرجاء، لقد وفر لك الله ما تتدثر به من أعمال البرّ والصلاح، فلِم َالهروب من وجهه ؟ ألا تدري أن بهروبك من وجه فقير بائس، الذي يحمل صورة الله، تكون قد هربت من وجه الله الذي لا يرى غضاضة من أن يتمثل بذلك البائس. كما لم يرها عندما أخلى ذاته وأخفى مجده العظيم بجسدنا البائس، قال له المجد " **من صنع بأحد أخوتي هؤلاء الصغار فبي صنع** " (متى 25: 40)، أن هروبك من أعمال المحبة هو هروب من وجه الله " **أحبّ قريبك كنفسك** " والقريب من وجهة نظر المسيحية هو كل إنسان دون تمييز أو استثناء. وهكذا يكون الهروب من وجه الله أمراً غريباً عن المسيحية.

هلّموا نبني

ما أجملها من كلمة، فالبناء رمز الحيوية والحياة، وعربون المحبة والسلام والرفاه، ودليل الوفاق والنية الحسنة والتعاون المثمر، الأمور التي بجملتها تخلق جواً من الارتياح بل والراحة النفسية وتشكل أرضية جيدة لبناء المجتمع الذي ينشده جميع ذوي الإرادة الصالحة من البشر على حد سواء، باستثناء من جندوا أنفسهم للتخريب والدمار أو باعوها للشيطان كما يقال بوعي أو بغير وعي، فالإنسان الواعي لا يسعى سوى إلى البنيان، لكونه يميز الأمور التي تبني من التي لا تبني، والتي لا تبني هي هدّامة إذ " **ليس كل شيء للبنيان** " (1 كو 10: 22)، لذا فالرسول بولس يحث على العمل بالأشياء التي تبني والتي تؤول إلى خير الجميع ومنفعتهم، وكل عمل من هذا القبيل لا يأتي إن لم تكن المحبة هي المحرك

الأول له، لأن المحبة تسعى دائماً لتقوية أواصر الإيمان والسلام، وتؤمن بحق الآخرين في الحياة الكريمة والرأي والكلمة وإن اختلفت، وتقود إلى الإيمان بالله وتعمل على توثيق العلاقات معه، فهي لا تحسد ولا تسيء الظن..

إن أول ما يتبادر إلى الأذهان، ونحن نلفظ كلمة " البنيان " هو ولا ريب بناء حضارة أو صرح ما أو معبد وما سوى ذلك فلولا البناء لما وصل الإنسان إلى ما هو عليه اليوم من الرقي والازدهار، ولئن وضع البعض الرقي في تجاه معاكس خاطئ خارج نطاق المنطق والمعقول ومن ثم خارج إرادة الله، فهذا الخروج إن هو إلا نقيض البناء أو ما نسميه بالهدم والتخريب، باسم البناء، وهو أن بنى أحياناً فلا يتعدى بنيانه النصف الضعيف في المجتمع، أي الناحية الاجتماعية فقط دون أن يأبه بالنصف القوي الذي يمثل الحياة الروحية، وقد قيل ما أصعب البناء وأيسر الهدم، وهذا ما نلمسه في حياة الناس عبر أجيالهم، فما يبنى في سنين قد يهدم في ساعات، ومن هنا يحتم الواجب، نبذ فكرة الهدم في كل المجالات باستثناء حالة واحدة فقط هي الهدم من أجل بنيان أفضل وأعظم، والذي يأتي على صور متنوعة، أن كلمة " البناء " هي أكثر شمولاً مما ذكرنا، فهي قبل كل شيء تعني بنيان الذات، وبنيان العلاقات مع الله أولاً ومن ثم مع الغير، فهذا النوع من البنيان أكثر أهمية مما سبقه لكون الإنسان، أهم من أي شيء أخر وكما قيل " البشر قبل الحجر "، وهذا هو بيت القصيد من هذا الحديث، فما هي مقومات بنيان الذات ؟

لا يستطيع الفرد أن يبني ذاته بصورة صحيحة كما يتصورها أو يريدها، أن لم تكن طبيعته من طبيعة الله الخيرة البارة والنقية. فمثلما أن لكل بناء مقومات، من مواد ودقة العمل، كذلك هي الحال بالنسبة إلى بناء الذات فلا بد من وجود مقومات أكثر فاعلية لكون بناء صرح الإنسان أكثر صعوبة من بناء أي صرح آخر مهما كان شامخاً، فالصرح المادي لا إرادة له لكي يعترض أو يقول للمهندس أريد أن أكون كذا وكذا، بعكس الإنسان الذي يمتلك إرادة قوية باستطاعتها أن تفشل كل محاولة لبناء الذات إن لم توضع أسس متينة لهذا البناء على صخرة الرغبة والإيمان الراسخ، فعلى المرء أن يدرك أن الله هو الذي يبني وإلا باطلاً يتعب البناؤون (مز 127: 1)، فإذن ولكي يكون بناء الذات مرصوصاً، يجب أن تكون العلاقة مع الله قوية وثابتة، لكي توحي للإنسان بالوسائل الناجعة لبناء ذاته والآخرين، ولعل أولها هي : **المحبة: " المحبة تبني "** (1 كو 8: 1)، فهي لا تعرف الهدم بل تمد الجسور بين القلوب فلا يعود المرء يرى عيوب الآخرين إن وجدت، قبل أن يرى عيوبه بل تتقيد بوصية الرب " **اخرج القذى...**"، المحبة تهيء القلوب للتسامح والمغفرة وتستر المصائب والأخطاء. وهنا يكمن سر النجاح، فالذي يغفر يُغفر له، وكما أن المرء يريد أن يُغفر له عليه أن يغفر هو بدوره للآخرين أيضاً، لأن الواقع يقول أن جميعنا خطاة، فلا يوجد من لا يحتاج إلى المغفرة سواء مغفرة الله، أم مغفرة المُساء إليه " **فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم** " (متى 7: 12).

قال أحد الفضلاء " **أن الذي لا يغفر يكون قد كسر الجسر الذي ينبغي أن يعبر عليه** "، عندما كنّا أطفالاً، سرعان ما نحتد مع بعضنا البعض بسبب أية إساءة أو شتيمة مهما كانت عفوية وبسيطة ولكن ما هي إلا لحظات حتى تتم المصالحة وتسود المحبة. وقد اتخذ الرب يسوع براءة الأطفال وصفاء قلوبهم مثلاً وقدوة في المحبة والغفران بقوله : " **إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات** " (متى 18: 3)، فإذا امتلأت القلوب بالمحبة، سترت كثرة الخطايا وبررت الإساءة إلى درجة اعتبارها أمراً غير ذات شأن وحيثما وجدت المحبة فهناك الصدق، وحيث الصدق ينتفي الكذب مصدر الشقاق والخصومات وحتى النزاعات كالحروب، فبوجود الصدق تنفتح الأبواب أمام حل المشاكل وسيادة السلام. فعلى هذه الصورة يبني المرء نفسه وعلاقته مع الآخرين.

أما بالنسبة إلى العلاقة مع الله فنقول : مثلما تشكل المحبة الحجر الأساس لعلاقة الإنسان مع أخيه الإنسان كذلك الأمر بالنسبة إلى العلاقة مع الله، فإن شئنا تمتينها علينا أن نجذّر محبتنا لله في أعماقنا ونفوسنا وأذهاننا لكننا لن نقوى على ذلك إلا إذا امتلأنا بالروح القدس (أف 5: 18)، وهذا يعني فتح أبواب حياتنا أمام عمل الروح القدس فينا " **امتلأوا بالروح...** "، فهو أمين وقادر على إبقائنا شركاء مع الطبيعة الإلهية، هذه النعمة التي أولانا إياها السيد المسيح كرماً منه، " **وليس بأعمال برٍّ عملناها** "، **إذن هلّموا نبني هلّموا نبني.**

موقف...

في الكنيسة، في المجتمع وعلى مختلف الصعد، أناس يعيشون حياة إيمان صادق، مقدمين ذواتهم أمثلة حية معبرة عن صدق ما يقولون، واستقامة ما يفعلون، وبعيداً عن حب الذات كل ما به يفكرون، ليس للمواقف السلبية في نفوسهم مكان، بل كل موقف لهم عقلاني حتى ولئن كان على حساب مصلحتهم الخاصة، أنهم يرون أنفسهم صغيرة ولكنها في نظر سواهم كبيرة جداً. إن موقفاً مثل هذا جدير بالإقتداء، وعلى كل الصعد، الكنسية والاجتماعية وسواها. فهو سيف بتار يشهر على الأنانية القاتلة، والحق يقال، أن من لا يعرف سوى ذاته، لا يعرفه أحد، ومن يحصر جهده وفكره في نفسه، يجد نفسه معزولاً، ومن يزرع لنفسه فقط، فلا يحصد سوى الزوان.

يقدم لنا سفر أعمال الرسل مواقف رائعة جداً، يتلاشى أمامها الغرور وحب الذات، وينبعث منها عبير الصدق وعبق الفضائل المسيحية وروحها وعظمة قيمها وخلقها، في مقدمتها موقف بولس الرسول من أبولس، وأبولس شاب يهودي اسكندراني أمسك بناصية الثقافة وتمكن من الحكمة وفاز من البلاغة وفصاحة الكلام بالنصيب الأوفى وغدا أحد أشهر أمراء المنابر بلا منازع، وقد وصفه سفر أعمال الرسل بأنه **"رجل فصيح مقتدر"** (أع 18)، فبرز في الوسط الإيماني. ويترك الإسكندرية ويأتي إلى أفسس ثم كورنثوس، وكان يتكلم بحماسة ويعلم تعليماً صحيحاً ما يختص بيسوع، وكان لا يعرف سوى معمودية يوحنا، فأسر القلوب، فذابت شوقاً للاستماع إليه، إلى درجة أن البعض في كورنثوس نسوا مبشرهم الأول ومؤسس كنيستهم الرسول بولس، وتطرفوا إلى درجة التحزب لأبولس، متناسين فضل بولس. لم يكن أبولس يعمل لنفسه، بل الذي جنده للخدمة، الأمر الذي وفر له القدرات الكافية للنجاح بهذه الصورة الرائعة أضف إلى هذا حياة الإيمان والقدوة الحسنة التي عكسها على سامعيه، فخلب ألبابهم.

هذا الرجل الكبير لم يرَ غضاضة من أن يستمع إلى وعظ أسرة مؤمنة بسيطة (أكيلا وبرسكيلا) وهي تحدثه عن عدم كفاءة معمودية يوحنا " **وتشرح له مذهب الرب شرحاً صحيحاً** " (أع 18)، فيقتنع ويؤمن بما أستمعه منها فيقتبل معمودية يسوع. أنه لموقف جدير بالإعجاب حقاً. فبالرغم من علو كعبه في ميدان الثقافة الدينية، قبل الحقيقة من زوجين بارين قاهراً بذلك الغرور ومحطماً وثاقات الكبرياء.

بيد أن هذا الموقف ليس بيتنا القصيد في حديثنا هذا المقتضب، بل هناك موقف آخر أكثر فعالية وأعمق أثراً في النفوس. أنه موقف الرسول بولس من أبولس. فقد تلقى أخباراً عن نشاط أبولس في الكنيسة التي أسسها في كورنثوس، وكيف أن الجماهير سُحرت بكلماته لا بل مالت إليه دونه، وبدلاً من أن يبدي أمتعاصه، كما نفعل نحن، عبر في رسالة له عن عَظمِ سروره للخدمة التي يقدمها أبولس لكلمة الله. ومنتقداً الانقسام الذي حدث في الكنيسة بسببه ولا سيما أولئك الذين تحزبوا له (بولس)، واضعاً نفسه في كفه ميزان متعادلة تماماً للكفة الأخرى التي وضع فيها أبولس فيقول : " **من هو أبولس ومن هو بولسن هما خادمان بهما أهتديتم إلى الايمان على قدر ما أعطاهما الرب. أنا غرست وأبولس سقى ولكن الله هو الذي ينمي** " (1كو 3: 5)، فبدلاً من أن يفرقهما الحسد، جمعتهما في صداقة حميمة ووحدة الخدمة والهدف، فعملا في حقل الرب جنباً إلى جنب بعيدين عن روح الأنانية والحسد، هذه الروح الشريرة التي تبث الفرقة وتدعو إلى الانقسام وتولد الأحقاد والضغائن حيثما وجدت. وقانا الله شرها.

فما أحوجنا اليوم إلى مثل هذا الموقف النبيل، فبدلاً من المواقف السلبية التي يقفها الكثيرون الذين يبحثون عن نقطة ضعف في هذا العمل الجليل، أو تلك العظة الرائعة، أو ذياك الكتاب القيّم، للتشهير ولتوجيه الانتقاد اللاذع. يجدر بنا ونحن نرى أخاً يبرز في حقل الكنيسة، أن نقول ما قاله النبي موسى لأليشاع الذي أغتيب إليه الداد وميداد بأنهما يتنبآن في المحلة، حيث قال : " **هل تغار أنت لي، ليت كل الشعب يتنبأ** " (عدد 11: 29).

هل أنت موجود ؟

قد يتساءل المرء مستغرباً لـدى طرح هـذا السؤال عليـه كيـف لا أكون موجوداً ولي شعور وأنا أقرأ وآكل وأشرب ؟ وقديماً قـال أحـد الفلاسفة (إنني أفكر إذن أنا موجود).

لكن مفهوم الوجود الذي نتحدث عنه هنا بعيد عن هذا المفهوم ولا يمت إليه بصلة لأنه يعني أكثر من التواجد والحضور في مكان ما، أنـه يمس ذات الإنسان وعلى أساسه تُقيَّم وتحدد إنسانيته.

إنه الوجود المعطاء، ذلـك أن الوجـود بـلا عطـاء ليـس وجـوداً، ترى ما نفـع شـجرة لا تعطـي الثمـر في حينـه وبخاصـه تلـك الـتي تحمـل أشواكاً دامية بل وقاتلة أحياناً ؟ أليـس عـدم وجودهـا هـو الأفضـل، ألا

يكون غيابها هو الذي يتمناه الإنسان ؟

ينقل لنا لوقا البشير على لسان السيد المسيح مثل التينة المغروسة في كرم الرجل. كيف طلب كرامه أن يقطعها لئلا تعطل الأرض لطالما لا تعطي ثمراً (لو 13: 8) وليس ما يبرر وجودها أفما كان الأجدر أن لا تغرس تلك التينة الرديئة. ولماذا ترى لعن السيد المسيح شجرة التين (مت 21: 19) التي لم يجد فيها سوى الورق، أليس لأنه أرادها ذات ثمر يسد رمق الجائع ؟ وإذ خيبت أمله لعنها حتى ولئن كانت أفنانها تعانق الشهب، منظرها خلاب وأوراقها كثيفة خضراء وأغصانها وارقة. فهي بنظره غير موجودة لانتقاء الغاية من ذلك الوجود، لذا استحقت اللعنة. أجل لقد لعن المسيح التينة وهي في غير موسم عطائها ليعلمنا أن لا فراغ في حياة الإنسان المؤمن، فعطاؤه يجب أن يكون مستمراً ودون توقف.

وهذا يعني أ ن المقاييس الحقيقية للإنسان لدى الله ليست بالطول والعرض والجمال الخارجي والحسب والنسب إنما هي العطاء السخي وليد المحبة التي تنبعث من أعماق القلب وتوزع مجاناً لكل الناس دون استثناء، مقرونة بالشعور بالسعادة العارمة " **المعطي المسرور يحبه الله**" (2 كو 9: 7)، واشترط بأن العطاء أن يكون بسخاء (رو 12: 8) ولا يقصد بالعطاء المادي فقط، وقد يكون هذا أقل نوع من العطاء وإنما العطاء الأعظم يتمثل بالمحبة والسلام وكرامة الإنسان... الخ.

ولو كان للشجرة المعطاء نطق وفم لعبرت عن بالغ سعادتها وهي تنظر يد محتاج تمتد إليها لتقطف ثمرها فيسد جوعه لأنها كالمحبة

لا تبغي شيئا لنفسها (المحبة لا تطلب ما لنفسها) (1 كو 13: 5) بل تؤمن بأنها وجدت لغيرها وهذا هو الفكر الصحيح الذي أشار إليه الرسول بولس " **لا تنظروا كل واحد إلى ما هو لنفسه بل كل واحد إلى ما هو للآخرين إنما فليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع أيضاً** " (في 2: 4).

ترى ألا تمثل التينة التي لعنها المسيح الكثيرين من المتواجدين على وجه الأرض الذين يعجزون عن تقديم برهان واحد على كونهم موجودين حقاً لكونهم لا يقدمون شيئاً من العطاء لأمتهم، لكنيستهم، لوطنهم، لمجتمعهم. ليس مهماً أن يكون العطاء قليلاً أم كثيراً بقدر ما يكون مبدئياً نابعاً من صميم القلب. والدليل على ذلك فلس الأرملة الفقيرة التي قال عنها يسوع إنها ألقت أكثر من جميع الذين ألقوا في الخزانة (مر 12: 42) فالإنسان بلا عطاء كجدول بلا ماء.

فهل أنت موجود ؟

فإذا كنت دائم العطاء فأنت حقاً حي وموجود، وإن كنت (لا سمح الله) عائشا على هامش الحياة فعليك أن تتمعن قليلاً بقول الله على لسان الحكيم " **اذهب إلى النملة أيها الكسلان تأمل طرقها وكن حكيماً التي ليس لها قائد أو عريف أو متسلط وتعد في الصيف طعامها وتجمع في الحصاد أكلها. إلى متى تنام أيها الكسلان** " (أم 6: 6).

المسار الصحيح

في أعقاب انحراف الإنسان عن المسار الصحيح القويم الذي وضعه الله أمامه، تشعبت لديه المسارات واختلفت الأوضاع فتاه في بيداء الزمان، لا يرى أمامه سوى السراب، فأخذ يتخبط في اختياره لمسار يطمئن إليه ويضمن حياته بشكل أفضل، حيث لم يعد يدري أي مسار يختار أو إلى أي صوب يتجه لينعم بحياة يسودها السلام والطمأنينة. وظل في حيرة من أمره حتى اكتشف أن خير وسيلة لوضعه في المسار الصحيح هي الاتجاه الروحي، وبعبارة أخرى، الاتجاه نحو الله وإقامة علاقات وثقى بينه وبين تلك القوة الجبارة المسيطرة على الكون بأسره. فالحياة الروحية أو العيش لله ومعه، هي الكفيل الأكثر ضماناً وفعالية لوضع الإنسان في المسار الصحيح نحو :

1- **الله:** فحياة الروح توحي إليه كيف يختار السبيل السوي للسلوك نحو الله، موضحة معالم هذا السلوك الروحي، الذي يتمثل بالمحبة والسلام والالتزام بكل ما توصيه إليه الشريعة الإلهية التي هي أمنية أن توفر له راحة الضمير.

2- **قريبه الإنسان** : حيث تلقي تعاليم السماء الأضواء أمامه ليختار أفضل السبل للتعامل الحر والحوار مع الخير مهما كان هذا الغير، بعيداً عن كل اعتبارات بشرية دنيوية، وملتزم باعتبارات إنسانية أخلاقية.

3- **ذاته** : من أهم الأمور التي تلقي عليها تعاليم السماء الأضواء هي تلقين الإنسان درساً في الابتعاد عن حب الذات بل ومحاسبتها وبشدة فيكون بذلك قد ضمن عدم محاسبة الآخرين إياه لأن من حاسب نفسه لن يجد من يحاسبه.

كما توجهه الحياة الروحية أو (الدين) لاتخاذ خطاً مستقيماً في حياته، وصموداً ثابتاً تجاه تداعيات الزمان، شاكراً الله في كل حين، متخذاً من الظروف الشاذة حافزاً للمضي قدماً نحو الله. ولكي تُكتب له الغلبة على هذه التداعيات، فيخرج منها منتصراً على غرار أيوب الصديق. وهنا يلزم تنمية إيمانه وتأصيله في قلبه وخلق الثقة فيه تؤهله أن يفرح مع مار بولس " **أستطيع كل شيء بالمسيح الذي يقويني** " (في 4: 13). ومؤمناً أن " **من يغلب سيأكل من شجرة الحياة ولن يمحى اسمه من سفر الحياة** " (رؤ 2). ولكن ما يؤسف له أن نجد بين المؤمنين من ينسى شكر الله أثر نكبة حلت به وكأن الله هو سبب تلك المحنة

ومسؤول عن كل حالة تطرأ على الإنسان. فالله هو إله الخير وليس إله الشر. فإذا كان السيد المسيح قد تألم وذاق الموت من أجلنا، أفكثير أن نتألم من أجله (في 1: 29). ألم يقل الرب " **من لا يحمل صليبه ويتبعني فما يستحقني** " (متى 10: 38)، وما الصليب هذا سوى ما يتعرض له المؤمن من ضيق وشدة.

نعود إلى موضوع الدين وتأثيره في حياة الإنسان لنقول : أنه لا يعني مجرد عقائد نظرية نحفظها ونتمسك بها بصورة كيفية، بل هو حق ومحبة وعمل وممارسات إنسانية فاعلة، كقول القديس مار يعقوب " **الديانة الطاهرة النقية عند الله الأب هي، افتقار اليتامى والأرامل في ضيقهم وحفظ الإنسان نفسه بلا دنس من العالم** " (1: 27). ويضيف النبي ميخا " **أن الله يطلب من الإنسان أن يصنع الحق ويحب الرحمة ويسلك متواضعاً مع آلهه** " (6: 8). ولا ريب أن الممارسات الروحية والطقسية تشكل بعداً هاماً من أبعاد الدين والعبادة المشتركة بين أفراد أسرة واحدة " **أما أنا وبيتي فنعبد الرب** " (يش 24: 15)، وبين أبناء الكنيسة " **كلما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمي فأنا أكون معهم** ". فتخلق جواً من السلام والتآلف، وبهذا يوثق الإنسان علاقته مع خالقه، بانياً إياها على أسس صخرية غير متزعزعة.

ومن هنا، فالدين من أهم ثوابت الحياة المستقيمة، لطالما هو قائم على أسس ومبادئ سماوية ثابتة لا تقبل التغيير والتبديل. أجل ممكن أن تطرأ تعديلات وتغييرات على الممارسات التعبدية والطقسية، بما يتلاءم

وروح العصر، لكونها ليست غاية بذاتها، بل إحدى قنوات الدين لإيصال الإنسان إلى الله. أما جوهر الدين ومبادؤه الأساسية فلا تخضع للتغيير أو (التعصرن) لأنه كما قيل ليس تقليعة ممكن تغييرها وفق متطلبات الظروف، أو تؤول مفاهيمه بصورة مغايرة عن الحقيقة وصولاً إلى أهداف بعيدة كل البعد عن الروح التي يرمي إليها الدين المبين.

إلا أن تقليعات حديثة تظهر هنا وهناك، ولا سيما في الغرب، تجرد الدين عن قيمه الروحية التي أرادها الله له. فيغدو مجرد غطاء لمقاصد لا دينية ولا إنسانية وأعمال تتنافى ومعطيات حقيقة الإيمان. ولا شك بأن وراء كل ذلك تقف المادة الهادفة دائماً إلى تجميد الحياة الروحية، ولعبها دوراً قذراً في حياة الإنسان. وبعكس الدين الذي يعمل على رفع شأن الإنسان وعلى اتساع آفاق معرفته وتشعب روافد ثقافته. ولا ننسى أن الحضارة البشرية نمت وازدهرت بفضل تأثيره في إبراز عبقرية الإنسان بشهادة المعالم الحضارية الرائعة كالمعابد الأخاذة وما تحتويه من فن رفيع. وهكذا نرى أن الدين يضع الإنسان حقاً في المسار الصحيح نحو الله، ونحو التقدم والرقي.

الاقتسام

ترى هل تتراود خواطر إلى ذهن ذاك الذي يعاني من التخمة وهو يتقلب على فراشه الحريري، وقد استبد به الأرق والألم، بأن هناك آلافاً من البشر الذين تتلوى بطونهم من الجوع وهم على أسرتهم الحجرية، وقد استبد بهم الأرق والألم بسبب فراغ مِعَدِهم التي أوشكت أن تتوقف عن الحركة لأن شيئاً ما لم يدخلها ؟ أو ترى هل يتذكر ذلك الجالس في قصره المنيف على أريكة وثيرة أمام (الفايربليس) في شتاء قرص برده واشتدت رياحه وقست عواصفه ؟ أقول، هل يتذكر بأن أعداداً هائلة من البشر لا تكسو عريهم سوى ثياب رثة بالية لا تقيهم قساوة ذلك البرد القارص ؟ هل يمر بباله قول الإنجيل المقدس بلسان

المعمدان وهو يحث الأغنياء على الاقتسام " **من له ثوبان فليعط من ليس له، ومن له طعام فليفعل هكذا** " (لو 3: 11).

إن جل ما نستطيع أن نفعله تجاه مثل هذه المواقف الشاذة هو أن نلفت أنظار المتخم إلى نصيحة صاحب الأمثال " **كل كفايتك لئلا تتخم** " (أم 25: 16) ترى ألا يعني هذا تذكير الأغنياء بضرورة الاقتسام مع الذين ليس لهم ولو بنسبة ضئيلة ؟.

قد يقول مثل هذا، أن لي غنى وفيراً فلِمَ لا اتنعم به واتمتع، لِمَ أحبس نفسي عن خيراتي ؟ نجيبه : لك كل الحق في ذلك، ولكن تذكر أيضاً " **أن الزائد أخو الناقص** " فمثلما يلحق النقص ضرراً في الإنسان كذلك يفعل الزائد أيضاً، افليس جديراً به وبأمثاله أن يفكروا بأن ما يمتلكون من خيرات إنما هي هبة من الله وفرها لهم لكي يقتسموها بدورهم مع من لا يقوى على سد حاجاته لسبب مشروع أو آخر.

فلو انطلق الناس من هذا المبدأ، فأطعم الشبعان جوعاناً وكسا الثري عرياناً واعان القوي ضعيفاً، إذن لكانت هناك راحة ضمير، ولسادت المحبة وانتعشت العدالة الاجتماعية، وبالتالي سوف لن يسمع أحد أقوال الرب الموجهة إلى الذين يغضون الطرف عن المساكين والمحتاجين " **ابتعدوا عني.. لأني جعت فما أطعمتموني وعطشت فما سقيتموني.. وعرياناً كنت فما كسوتموني..** " (متى 25: 41).

وأن ما لا يبشر بالخير هو غياب فكرة الاقتسام عن أذهان معظم الناس، وتحجر قلوبهم، وسيطرة الأنانية البغيضة، رمز التمرد على الله، على أفكارهم وقلوبهم فاغلقوا منافذ قلوبهم تجاه الرحمة فحجبوا اللقمة البسيطة عن المساكين البائسين العاجزين عن إعالة أنفسهم، وفي الوقت نفسه يسخون بالطعام لحيواناتهم التي قد لا تحتاج إلا إلى اليسير منه، وكأني بالسيد المسيح يوجه إليهم انتقاده اللاذع بقوله " **لكم أعين ولا تبصرون، ولكم آذان ولا تسمعون ولا تذكرون** " (مر 8: 18)، وذلك أن آلافاً من البشر يتضورون جوعاً أمام أعينهم، ويشق صراخ أطفالهم عنان السماء، لكنهم لا يأبهون لكل هذا وكأن شيئاً ما لا يحدث، ترى ألم يقصد الرب يسوع تذكيرنا بالعواقب الوخيمة لمثل هذا التصرف غير الإنساني عندما قدم مثل ذلك الغني الغبي نموذجاً لتجاهل المحتاجين الذين تصير دموعهم خبزاً (مز 42: 3)، فلم يفكر ذلك الغني سوى بتوسيع مخازنه وزيادة أهرائه.

لذا قال الرب " **في هذه الليلة تطلب نفسك منك فهذه التي أعددتها لمن تكون** " (لو 12: 20)، أننا نرى في هذا الغني، تلك الدول الكبرى الغنية التي لا هم لها سوى المزيد من الثراء، وبدلاً من أن تسهم في تخفيف وطأة الجوع لدى المحرومين، إذا بها تستخدم كل وسائلها الخبيثة لسحب اللقمة من أفواه البؤساء الجائعين إن وجدت.

لقد فضح السيد المسيح رياء الكتبة والفريسيين وظلمهم للفقراء والمعوزين، لأنهم كانوا يأكلون بيوت الأرامل والأيتام بحجج واهية

وتحت غطاء " حماية حقوق الإنسان " وهم أكثر الناس الذين يهضمون تلك الحقوق، هؤلاء هم الأغنياء الذين قال عنهم السيد المسيح " **أن دخول الجمل في ثقب الأبرة أسهل من دخولهم إلى ملكوت الله**" (مز 10: 23)، هؤلاء الذين صار الغنى المادي كل شيء في حياتهم، متوهمين بأنهم يعيشون إلى الأبد دون أن يدور في خلدهم أن حياتهم مهما طالت لا تعد كونها كالبخار يظهر قليلاً ثم يضمحل (يع 4: 14)، وأن أموالهم تفسد وثيابهم يأكلها العث، ويعلو الصدأ ذهبهم وفضتهم ويكل أجسادهم كالنار (يع 5: 2)، كل ذلك لأنهم وضعوا التنعم هدفهم الأول في الحياة دون أن يتذكروا بأننا جميعاً غرباء في هذا العالم.

وإلى جانب هذا فأن الواقع يؤكد أن الأثرياء الذين لا يفكرون بالاقتسام هم في دوامة من القلق وعدم الاستقرار النفسي، لا بل قد يصابون بالإحباط في حالات كثيرة، مثل الغني الشاب الذي سأل السيد المسيح عن أقصر سبيل إلى ملكوت الله، فإذا به يصاب بالإحباط لدى سماعه أن التجرد عن عبادة المادة والاقتسام هما (الطريق الأقصر إلى الحياة الأبدية، وحتى الممارسات الروحية لا تستقيم إلا إذا اقترنت بالاقتسام وأعمال الرحمة. يقول اشعيا النبي " **أليس (الصوم) أن تكسر للجائع خبزك وأن تدخل المساكين التائهين إلى بيتك، إذا رأيت عرياناً أن تكسوه وأن لا تتغاضى عن لحمك** " (58: 7)، ويعتبر اشعيا النبي باراً كل من يبذل خبزه للجوعان ويكسو العريان ثوباً (58: 7)، ولا ينسى الله أن يغدق نعمه وبركاته لكل من يمد يداً خيرة فيعطي من خبزه للفقير (أم 22: 9).

بين ظلمة الليل ونور النهار

الليل تعبير عن غفوة الإنسان عن ذاته، لذا قال الرسول بولس " **استيقظ أيها النائم** ". لأن الإهمال نتيجته الخسران، كن حذراً من الذين يصيرون أبناء لإبليس فأكثر الأمور خسارة هو خسارة الخلاص الذي تم لنا بدم يسوع المسيح (محور الحياة المسيحية).

فلو غابت فكرة الخلاص عن الأذهان لا يعود المرء يدرك أهميته وقيمته، إذ أنه يساق وراء الأوهام وجنون المتعة التي تقود إلى مهاوي الهاوية. وهناك أيضاً إهمال الذات، الذات الشخصية والذوات الموكلة إلى الشخص رعايتها، كإهمال الآباء والأمهات رعاية أبنائهم وتوجيههم التوجيه السليم وخلق أرضية دينية لهم كي لا ينشأوا كقصبة مهزوزة تلعب فيها الرياح كما تشاء، ثم إرساء بنيان هياكلهم على صخرة

راسخة لا تزعزعها العواصف مهما كانت قاسية عاتية وأخيراً خلق إرادة قوية في داخلهم نابعة من صلب الإيمان تذلل كل المغريات مهما كان نوعها.

والكتاب المقدس يقدم لنا نماذج حية عن فشل الأغراء أمام قوة الإيمان المبدئي، فموسى النبي يرفض عرض تبني ابنة فرعون له، وهو عرض مغري، ودانيال النبي يرفض أن يجلس على مائدة الملك نبوخذنصر لئلا يتنجس، في حين أن هذه الدعوة شرف عظيم في نظر الناس. والسيد المسيح يرفض عرض إبليس أن تعطي له ممالك الأرض كلها كما رفض تاج الملك عندما أرادوه ملكاً أرضياً.

والتاريخ الكنسي يقدم لنا نماذج رائعة للصوم أمام إغراءات تصل إلى حد تفضيل الموت على التدنس والاستسلام للشر والمغريات كقول الرب " **من خلّص نفسه يهلكها ومن هلكها من أجلي ومن أجل الإنجيل يخلصها** ".

وقد يتعرض الإنسان لأفكار شريرة خاطئة، والعبرة هنا ليست في عدم التعرض لأفكار شريرة مثل هذه، بل في الصمود ومقاومة هذه الأفكار بكل ضراوة كقول الرسول بطرس " **قاوموا الشر راسخين في الإيمان** " وقد يتساءل البعض عن سبب تولد مثل هذه الأفكار لدى المؤمن ؟

والجواب قد تكون العشرة الرديئة والصداقات المبنية على أسس مصلحية غير قويمة هي أحد الأسباب المؤدية إلى السقوط والضياع ومن المؤسف أنه عندما يسدى نصح لشخص أو عائلة مؤمنة للحذر من الصداقات المشبوهة المريبة يأتي الجواب : أن الخجل يمنعنا من الابتعاد عنها ولكن يجب أن نعرف أن للخجل حدوداً ومن الضرورة التغلب عليه عندما يكون سبباً لمس الكرامة أو سلب الإيمان والعقيدة والحرمان من الخلاص بدم يسوع المسيح.

لنكتب بقلم الرصاص

إن كان لا بد من الكتابة، فلتكن بقلم الرصاص لا بمداد غامق كثيف كالحبر الصيني الذي لا يمحى إلا بصعوبة بالغة. هذا ما يتمناه كل من تصدر عنه إساءة ما تجاه قريبه، لأن قد تكون هذه الإساءة مقصودة أو على الأقل بحجم ما كان متوقعاً وهذا ما تنشده الشريعة التي تفتح باب التسامح والمغفرة على مصراعيه، إيماناً منه بأن ما يكتب بقلم الرصاص يسهل محوه وإزالة أثاره كلياً، وبعكسه ما يكتب بالمداد الغامق، إذ لا بد من بقاء بعض أثاره مهما عولج. والمفروض أن لا يبقى شيء حتى دلالة.

هذا ما فعله الله عندما وجهت إليه أول إساءة في تاريخ البشرية، فقد دونها ولا شك على صك بقلم الرصاص لتسهل إزالتها مستقبلاً،

أننا نردد دائماً في صلاتنا " **أن السيد المسيح محا الصك المكتوب** "، لذا أمكن إزالتها بالكلية. وقد تمَّ ذلك بدم ابنه الحبيب يسوع الذي أكَّد هذا المبدأ الإنساني الرائع، في جوابه على سؤال بطرس الرسول " **يا سيد كم مرة يخطأ إلى أخي واغفر له، هل إلى سبع مرات ؟ فأجاب لا سبع مرات بل سبعين مرة سبع مرات** " (مت 18: 22). وقد يستصعب المرء تنفيذ هذا، بحجة ضعفه البشري، وعدم امتلاكه الشجاعة الكافية للتسامح بهذا المقدار، إضافة إلى شعوره بكبريائه كإنسان. فقد يسامح لمرة أو بضع مرات دون أن يسجل الإساءة، لا في ذهنه ولا في قلبه، ولكن ما زاد على ذلك فقد يخرج عن نطاق احتماله. نقول له أن كان لا بد من الكتابة، فبقلم الرصاص استعداداً لمحوها أن آجلاً أو عاجلاً.

أولاً : لكونك إنساناً مخلوقاً على صورة الله، والإنسانية تقضي بالتسامح من أجل حياة أفضل تخفق في سمائها ألوية السلام والمحبة.

ثانياً : لكونك مسيحياً والمسيح يحث على المغفرة لا بل يربط مغفرة الله للإنسان، بمغفرة الإنسان لأخيه (مت 18).

ثالثاً : لكون الكتابة بقلم الرصاص تعبير عن تقديرك لقيمة النفس وحرصاً على مشاعر الناس ترى لو انعكس وأسأت أنت إلى قريبك أفلا تتمنى أن لا يدون لك أساءتك، أو الأقل أن يدونها بقلم الرصاص ؟ تذكر مقولة السيد المسيح " **عاملوا الآخرين مثلما تريدون أن يعاملوكم** " (متى 7).

ومن بديهي أنك ترغب في أن يسامحك الآخرون، فأنت والحالة هذه ملزم بالتعامل بالمثل. فالتسامح يكسب محبة الله والناس. وتذكر أن لكل إنسان ضعفاته " **احتملوا بعضكم ضعف بعض** " (روم 15). فإن سامحت سومِحت، وبذلك تكون قد ربحت الآخرين ونفسك أيضاً، فاعمل ما في وسعك على ربح الآخرين، واحذر أن تخسر الناس بالبحث وراء الانتقام، لأن الله حصر الانتقام بنفسه " **لا تنتقموا لأنفسكم ... لي النقمة أنا أجازي يقول الرب** " (رو 12: 19).

بالرغم من عظمة رحمته التي تناشده أن يكتب إساءات الناس بقلم الرصاص لتمحى عند الضرورة وبسرعة فائقة، وهكذا فعل مع أهل نينوى الذين غرقوا في حماة المآثم وشربوا كأسهم حتى الثمالة. ولدى توبتهم بكرازة يونان محا الله الصك المكتوب ضدهم، ولكن يجب أن لا يغيب عن البال أن محو الله لأي صك عقاب، مشروط دوماً بعدم العودة إلى الماضي " **هوذا قد شفيت فلا تعد تخطئ** " (يو 5).

ولأنه لا يتساهل أكثر مما يجب تجاه الخطية كما ظن يونان إذ غضب لما افتقدت رحمة الله أهل نينوى. فالله رغم كل رحمته هو إله (غيور ومنتقم)، لا يقف مكتوف الأيدي تجاه الظلم والتعسف وسواها من الخطايا، بل ينتقم ممن يتمادى في غيه وشره. فقد رحم نينوى لدى توبتها، لكنه دمرها فيما بعد عقاباً لعصيانها وتمردها ثانية رغم عفوه عنها.

الله وقيصر

" أ عطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله" (متى 22: 21)

إنه المبدأ الذي تتبناه الديانة المسيحية في ما يخص حياة الإنسان من حيث كونه مركباً من عنصري الروح والجسد، ولئن تترجح لديها كفة الروح بصفتها نسمة الله أولاً، وخالدة ثانياً، بيد أن هذا لا يعني بخس حقوق الجسد. وقبل الولوج في صلب الموضوع، أود أن أشير إلى أن لهذه الكلمات الخالدة أبعاداً متعددة وتفاسير متنوعة، إلا أن جميعها تصب في مصب واحد ألا وهو الإنسان، فهي تعني : الله والعالم، حياة الروح وحياة الجسد، الفصل ما بين الدين والسياسة وهذا يعني عدم تسييس الدين، فحيث الدين لا سياسة وحيث السياسة لا دين وأخيراً العدالة في حقوق الإنسان (إعطاء لكل ذي حق حقه).

إن ما دعانا إلى التطرق إلى هذا الموضوع، وجود من يأخذ على المسيحية ومتهما إياها بالانحياز التام للروح دون الجسد إلى درجة أن اعتبرها بعضهم ديانة خيالية ميتافيزيتيقية غير منطقية لا تسير في ركب هذا العصر. غير أننا نفهم من قول السيد المسيح أعلاه، أنه لا يتنكر لمتطلبات حياة الدنيا أو حاجات الجسد بما فيها نزواته وعواطفه، فالمسيحية تؤمن بأن لكل من الروح والجسد حقوقاً يجب أن تراعى، وخصوصية يجب أن تحترم، فهي والحالة هذه تحترم الإنسان كإنسان متكامل له ملء الحرية أن يتمتع بمباهج الحياة وبما يتوافق وإرادة الله لكون هذه المتع هي هبة من الله الحي الذي يمنحنا كل شيء بوفرة للتمتع (1 تي 6: 17)، فالمسيحية لا تحول دون أن يعيش الجسد حياته كاملة، بيد أنها وكما نوهنا أعلاه تعطي أهمية أعظم للجانب الروحي " **اطلبوا ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم** " (متى 6: 33)، " **واعملوا لا للطعام البائد، بل للطعام الباقي** " (يو 6: 27)، وقد قال الشاعر العربي في هذا السياق : (... أنت في النفس لا في الجسم إنسان)، وعلى ضوء أهمية الحياة الروحية وبالتالي الحياة الأبدية، برزت في المسيحية فكرة العفة لكنها، لم تناد بالعفة المطلقة، ولا تفرضها على أبنائها، إنما اختص بها معشر الزهاد والنساك فقط، لأن العفة المطلقة تعني العزوف عن الزواج، وهو أمر لا تأخذ به المسيحية، فالزواج شرعة إلهية واجبة لحفظ النوع الإنساني، والمسيحية تقدس هذه الشرعة حتى أن الزواج

عندها ليس مجرد حالة اجتماعية، كما هي لدى الكثيرين بل تضفي عليها حالة من القداسة.

أما الرهبنة في المسيحية فليست فريضة أو عقيدة جوهرية، إنما هي مجرد فلسفة عشقها البعض لمجرد رغبتهم وإرادتهم إمعاناً في التعبد والخدمة، فهي والحالة هذه مسالة شخصية بحتة، يكرس فيها الإنسان حياته للعمل في حقل الله، ونشر كلمته بين الملأ ولا ريب فمثل هذا العمل يستوجب التفرغ لكي يأتي بالثمر المنشود و لم تأتِ هذه الرغبة تهرباً من أعباء حياة الدنيا، لأن من يتبع هذه الطريقة يتحمل جهداً أعظم، وأعباء أكثر وأشد، ويشهد التاريخ على الأعباء التي تكبدها الرهبان، ولا يزالون، خدمة للإنسان والإنسانية. فقد نشروا الثقافة وأثروا الحضارة بمؤسساتهم الإنسانية والثقافية والعلمية، التي غالباً ما تعجز عنها حتى الدول، وبالرغم من هذا فأن الشعور بالارتياح والبهجة والمتعة يرافق أعمالهم ومنجزاتهم لأن الحياة الحقة في نظرهم ونظر معظم فئات الناس والأديان، ليست الغوص في أعماق الماديات وإشباع الغرائز والنزوات، وصب كل الاهتمام على شؤون حياة الدنيا بل هي في عطاء الإنسان ومآتيه الآيلة إلى الحياة الأبدية ورفاهية البشر، الأمر الذي يرجح على كفة الجسد لدى الديانة المسيحية التي في الوقت نفسه ترمي ثقلاً كبيراً على أهمية العمل والسعي الحثيث نحوه، لأن الحضارة والتقدم عندها هما ثمرة من ثمار العمل الدؤوب.

والكتاب المقدس يحث على العمل الجاد، فمنذ أن خلق الله الإنسان " أوصاه " أن يعمل الأرض ويحفظها (تكوين) والسيد المسيح يوبخ العبد الذي لم يتاجر بوزنته، والعذارى اللواتي لم يهيئن الزيت في مصابيحهن. ويصرح الوحي الإلهي على لسان بولس الرسول " **من لا يعمل لا يأكل**"، وهكذا نرى أن المسيحية تعطي " **ما لقيصر لقيصر وما لله لله**"، فلا يتوهمن أحد بأن المسيحية هي ضد رغبات الجسد التي شرعها الله له، أو أن الحياة الروحية تمتص كل اهتماماتها، فهي لا تحيا للآخرة فقط، إنما للدنيا أيضاً، مستفيدة من حياة الدنيا لصالح الآخرة، كما أنها لا تحارب المادة إلا بمقدار فاعليتها في إبعاد الإنسان عن الله، ولا تنظر إلى الغنى والأغنياء، بعين احتقار شزراً، إنما توجه الأغنياء إلى السبل القويمة في تعاملهم مع المادة، فتاريخ المسيحية مفعم بذكر شخصيات بارة وغنية في آن واحد عاشوا أغنياء بالروح والجسد ولم يؤمنوا بقشور الأمور وظاهرية الحياة، وهذا شأن المسيحية في أفكارها وتوجهاتها، فما يهمها أكثر هو داخل الإنسان لا ظاهره، واصفة الظاهر بالحرف والداخل بالروح " **الحرف يقتل ولكن الروح يحيي** " (2 كو 3: 6)، فالطهر الحقيقي عندها هو الداخلي، وقد وبخ السيد المسيح رؤساء اليهود الروحيين الحريصين على الظاهر، الذين انتقدوا تلاميذه لعدم غسلهم أيديهم قبل الأكل (متى 15: 2)، وشبههم بالقبور المزخرفة من الخارج لكنها ملأى بالجيفة من الداخل (متى 23: 27)، كما انتقدهم لأنهم " **ينظفون خارج الكأس أما من الداخل فمملؤون**

اختطافاً ودعارة " (متى 23: 25)، ومن هنا نقول : أن حرص المسيحية على طهارة الإنسان داخلياً وجنوحها نحو الحياة الروحية ليس تعبيراً عن الضعف والخنوع كما يذهب أصحاب نظرية القوة والعنف وهي النظرية التي لا تأخذ بها المسيحية والتي ينبذها الرأي العام في أرجاء الدنيا، متمسكاً بنظرية اللاعنف ولكونها الوسيلة الإنسانية لبلوغ الأهداف وقد اتخذها غاندي زعيم الهند العظيم الذي قاد بلاده إلى الحرية عن طريق اللاعنف، حتى أن القادة السياسيين الذين يحاولون بلوغ أهدافهم عبر العنف يصرحون ولئن ظاهرياً بأنهم لا يحبذون العنف.

وفي سياق آخر لمفهوم وصية الرب الخالدة، نقول : لا بد من قراءة الوصية " **اعطوا ما...** "، قراءة تمس واقعنا الروحي اليومي من حيث أن الإنسان أخذ يعطي كل شيء " **لقيصر** " دون أن يعطي شيئاً يذكر " **لله**" وإن أعطى فبشحة، وبعبارة أخرى أنه يصادر حصة " الله" من حياته لصالح حصة " قيصر " فهو يعيش لذاته فقط دون الله والآخرين، وهنا نتساءل : أين هي حصة الله من حياتنا ؟ هل ننفذ وصية الرب يسوع أعلاه أم نحن عنها غافلون ؟ فكنائسنا اليوم تكاد تكون فارغة باستثناء في بعض المواسم، والنشاطات الروحية يسيطر عليها الفتور وهي آخذة بالانكماش رغم كل جهود الاكليروس، الدورات التثقيفية بمختلف أهدافها تبدأ بعدد كبير من الرواد وتنتهي بعدد لا يذكر، علماً بأن الثقافة الدينية مطلوبة جداً اليوم أكثر من أي وقت مضى ولكن ما يحدث هو غزو الثقافة الاجتماعية للثقافة الدينية بالنسبة إلى الغالبية

الساحقة وتحت ذرائع واهية وحجج تافهة، مثلهم مثل الذين دعاهم سيد قوم إلى مادبة عشاء فاعتذروا لأسباب واهية (انظر لوقا 14: 19-)، وهكذا يكون المرء قد اغتصب حق الله المستوجب عليه، بإعطائه كل شيء لحياته الدنيا دون أن يكرس بعضاً منها للآخرة.

البُعد الآخر

صاغ الله الإنسان من عنصرين، الأول ملموس وظاهر للعيان " الجسد "، والثاني محجوب بين طيات الأول " النفس " لكنه معروف ولكل منهما أبعاده الخاصة، إلا أن هناك بعداً آخر يشترك فيه العنصران، أودعه الله في صميم كيان الإنسان، لا يظهر للعيان بشكل مباشر، لكن له مفعولاً هائلاً ومؤثراً يعمل من وراء الكواليس - إن صح التعبير — فهو لا يظهر إلا من خلال أعمال الإنسان المبرورة وذات الفوائد العامة والخاصة، ومن خلال المآتي الإنسانية الظاهرية والسلوك الرضي المرضي، وله شان كبير في حياة البشر، فهو مؤشر دقيق إلى الحالة الصحية لعنصري الإنسان الأساسيين، وبخاصة العنصر غير المرئي - وفيه كنز الله كل القيم العليا والمثل الأخلاقية السامية التي تعكس جوهر الإنسان،

وتعبّر عن مدى إيمانه بهذا البعد وأعني به " البُعد الإنساني " أو الروح الإنسانية المودعة في وجدان الإنسان الذي يتنكر لهذا البُعد في كثير من الأحيان، ونظراً لأهمية هذا البُعد في حياة البشر، جسّده السيد المسيح فبدا واضحاً في كل تعاليمه وأعماله الهادفة إلى سعادة الإنسان عبر الخلاص، ولا سيما في معجزاته، وقد أوجب وضعه في المرتبة الأولى بين اهتمامات الإنسان، معتبراً إياه جزءاً هاماً من حياته " **أنتم ملح الأرض**". فقد يعيش المرء حياة اعتيادية مقبولة خالية من الشوائب والمنغصات تعجز في كثير من الأحيان عن كشف جوهره مثلما يكشفه البُعد الآخر أي أعماله الإنسانية التي تشكل عاملاً فاعلاً في سعادة الآخرين، عندما يكون سبب نجاة أحدهم مثلاً من كارثة محققة أو بؤس قاتل أو حتى من موت أكيد، لا سيما بالنسبة إلى الذين لا يعون ما يعنيه العمل الإنساني المقدم إليهم، وقد يدركه البعض بعد أن يروا أنفسهم في حالة أفضل بكثير مما كانوا عليه قبل أن تمسهم أنام البُعد الآخر الخيرة.

إن قولنا أن يسوع جسّد هذا البُعد ليس أمراً جزافاً، إذ لنا في إنجيله المقدس أمثلة كثيرة على ذلك، فبدافع هذا البُعد حول الناس من ظلمة الخطيئة إلى نور الإنجيل. فهذه المرأة السامرية المنبوذة من المجتمع والتي يلتقيها يسوع على بئر يعقوب، فيطلب منها ماء ليشرب، لا لكي يطفئ ظماءه، بل ليغمرها بعطفه وحنانه ويقودها لتكشف بنفسها عن بعض هويته، " **إني أرى أنك نبي** " (يو 4: 19)، لا ينكر أن يسوع جاع وعطش وتعب واستراح كسائر البشر، غير أن طلبه الماء من السامرية لم

يكن يهدف الماء بقدر ما قصده من الخير لتلك المرأة، وبعبارة أخرى، أنه فعل ذلك بدافع محبته لمن خلق على صورته ومثاله، فقد كانت تلك المرأة معذبة من جهة ضميرها دون أن تشهر، فأيقظ يسوع ذلك الضمير فبدت لها الحقيقة جلية، لقد أدرك في أية هوة سحيقة كانت ساقطة فأراد انتشالها من وهدتها بجذبه إياها إلى ينابيع ماء الحياة كي لا تعطش ثانية وتأتي لتستقي الماء، فملأ جرة حياتها بالماء الذي لا ينضب ولا يعطش شاربوه.

إن الروح الإنسانية التي ليسوع دعته إلى أن ينقذ المرأة من براثن الخطيئة المسيطرة على ضميرها، فيجدد حياتها لتعيش في مجتمعها كأي إنسان آخر بعيدة عن تصويب الأنظار نحوها ورمقها بعيون الازدراء والمهانة، فما توخاه يسوع أذن من شربة ماء من امرأة خاطئة، هو كرامة تلك المرأة وإعادتها إليها بعد أن كانت مهدورة، أن نظرة يسوع إلى الإنسان هي واحدة، سمتها الحب والإنسانية، فلم يحرم منها أحداً حتى الذين أسلموه إلى الآلام والموت " **يا ابتاه اغفر لهم لأنهم لا يعرفون ماذا يفعلون** "، لقد طرح يسوع جانباً النظرة التي تعتمد الاعتبارات البشرية البحتة كالنظرة العرقية أو الدينية أو المذهبية وما سوى ذلك، فهذه الأمور في نظره تذوب وتتلاشى أمام المحبة التي لا تعرف حداً ولا تمييزاً بين هذا وذاك، فالبُعد الإنساني لم يدع يسوع أن يترك المرأة وشأنها ملطخة بحمأة الخطيئة فكشف لها سر حياتها كيما تعيد النظر في سلوكها وتكتشف بنفسها في أية هوة ألقت نفسها بنفسها دون أن

تدرك، وهذا ما أراد ايصاله إلى كل شخص يتورط بمنكر، لكي يكتشف ذاته ويتحاشى ذلك المنكر، وفي الوقت نفسه يكون قد نبهنا جميعاً بفعله هذا، إلى أن لا نظهر بمظهر مخالف للحقيقة، فلا نجعل مثلاً تديننا مجرد قشور واهية ومظاهر متلاشية لا علاقة لها بالحياة المسيحية، ذلك أن حياتنا يجب أن تعتمد بالدرجة الأولى على حياة المسيح، حتى ولئن يكلفنا هذا الشيء الكثير، فإن كانت علاقتنا به كعلاقة السامريين بعبادتهم في جبل جزريم فقط، أي كونها عبادة يكتنفها الجهل (يو 4: 2)، فلا جدوى منها، لأنه يريد أن تكون عبادتنا لله مقترنة بالمعرفة الحقيقية وبروح الحق، نابعة من صميم ضميرنا وعمق وجداننا، لقد وجه يسوع، في حواره مع السامرية، رسالة إلى البشر كافة ليكونوا لطفاء تجاه من قسا عليهم الدهر، مشيراً في الوقت ذاته إلى إمكانية تقويم أي إنسان مهما بلغ من الشر والسوء، لأ ن الله قد أودع فيه عنصر الخير الذي لا يتلاشى كلياً، بل قد يخبو لفترة ما ثم يأتي إلى الظهور في ظرف لا يعلمه ولا يخطر على باله، فقد يكمن في إحدى زواياه الخفية، ما يعتم أن يضطرم في الوقت المناسب تحت تأثير فعل أو مشهد ما، كما يلتهب بصيص النار على حين غرة، أضف إلى هذا، تحطيم يسوع للحاجز الذي وضعه المجتمع اليهودي بين الرجل والمرأة عبر حواره امرأة أكثر من مرة، الأمر الذي لم يألفه المجتمع اليهودي لكونه غريباً عن تصورهم وتقاليدهم، حتى أن التلاميذ أنفسهم أخذتهم الدهشة حين مشاهدتهم إياه يحاور امرأة، لكن أياً منهم لم يجرؤ أن يعبر عن هذه الدهشة بسؤاله :

لماذا تحاور امرأة لا سيما وقد كانت غريبة لا بل من الأعداء، فقد دك يسوع، بهذا الحوار، أركان العداء القائم بين اليهود والسامريين، وكأني به يقدم درساً للذين صادتهم شراك العداء علهم يقطعونها وينجوا منها.

لنعد الآن لنر هل مازال الإنسان اليوم يمتلك البُعد الآخر، أم أن اهتمامات هذا العالم قضت عليه، بسبب جفاء دماء المحبة في القلوب، لا نستطيع أن ننكر ضعف هذا البُعد لدى الأغلبية من الناس، إلا أنه مازال يمتلك ملء الحيوية لدى البقية الباقية التي لم تحن الركبة للبعل (رو 11: 4)، رغم كل الفساد الذي استشرى بين البشر. فما زلنا نرى ملامحه تبدو في الانتصار لكل مظلوم، وإغاثة كل ملهوف، ومسح الدموع المنسكبة من مآق متالمة، نجده في إكساء جسد عار محطم لبائس شقي، وفي قطرة ماء تبعد شبح الموت من مدنف محتضر وهكذا دواليك، يتجلى هذا البُعد لدى كل من يجنح للسلم وينشد السلام وينزع عن قلبه حب الانتقام، ويحاول إبعاد الأذى عن أخيه الإنسان، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وكل صلاتنا أن يعيد الله البُعد الإنساني إلى قلب كل إنسان.

ظواهر مدانة

الذات بين الحب والانتقاد

وما البُعد إلا ما بين القلوب

قليلاً من الشجاعة الأدبية

الحياة معركة

الإرادة بين الخير والشر

المعول المقدس

الضمير في المزاد العلني

أموات في عالم الأحياء

دردشة مع فنجان قهوة

الأسرة المسيحية والمجتمع

أنبقى أطفالاً

السلام شهيد العصر

باطل، يجري على الأرض

بين الأمل والعمل

بين البصر والبصيرة

العنصرية

الغرور

بين الحسود والمحسود

أين هو أخوك ؟
مقاييس الحياة
لكل شيء وقت
الصراحة
معاقون
غنى وغني
المساومة
لِمَ التدخل
لا تعد تخطئ
الحي المائت
الصدق والمصداقية
إنس ولا تنسى
بين السماع والحقيقة
الاستقلالية
لِمن التحدي ؟
البكورية أم آكلة عدس
بالحكمة
القناعة
التعصب
صداقة
الفايروس
الحجر بين الدحرجة والرماية

الحضارة والأسرة
الأمين في القليل
بطولة أم حماقة ؟
الأغنياء الفقراء والفقراء الأغنياء
جاهل مع سبق الإصرار
القناع
الخجل
الصيد والاصطياد
الاستغلال الخاطئ
بين الجد والهزل
أحمق حماقة
ما يليق وما لا يليق
بين الرجل والبساط
الخمر
العشرة الرديئة
الزائد أخو الناقص
داء الشهرة
الإيمان.. وإيمان المناسبات
فضيلة أم عار ؟
القلب المزروع
العمل شهادة
من لا يعمل لا يأكل

السبت أم الإنسان
فاعل خير
الحجاب
لِمَ الغضب ؟
الهجرة
بين الطاعة والتطوع
طاقة أفتيخس
من الأعظم
مشكلة وحل
عَ المكشوف
رضى الله أم رضى الإنسان ؟
الاستغلال بين القبيح والمليح
الوعد عند الحر دين

الذات بين الحب والانتقاد

الذات، هذا المعبود الغاشم العريق بالعبادة الذي رافق الإنسان منذ فجر حياته، وما يزال معظم الناس يستسلمون له بمحض إرادتهم ورغبتهم، ولا يفكرون بمعبود سواه، فهو عندهم الأول والأوحد، يغذونه بأعمالهم وتصرفاتهم غير القويمة وغير المرضية لدى الله والبشر، ومن هنا فعابد ذاته لا بد وأن يضرب صفحاً بحكم واقعه عن عبادة ربه وخالقه، إذ لا يمكن عبادة ربين في آنٍ واحد، ذلك ان الله الخالق هو المعبود الوحيد الذي لا يجوز ان يكون له شريك، الأمر الذي دعا التعاليم المسيحية إلى شجب هذا النوع من الآلهة (الذات). ولكن هذا لا يعني بأي شكل من الأشكال أن يكره الإنسان ذاته، بل تفضيله محبتها على

محبة الله. إن حب الذات، وهو النوع البغيض من الحب، من شأنه أن يوهم صاحبه بأنه بمستوى أرفع من سائر مَن يحيطون به الذين يتوجب عليهم في نظره أن يحذوا حذوه في عبادة ذاته، إذ يرى ذاته أكثر حكمة وحنكة أو رفعة نسباً وحسباً، لا بل يمثل قمة المثالية، فهو المصيب أبداً وهو الصادق الذي لا نقاش معه، فهذه النظرة الخاطئة إلى الذات تولد لديه ظاهرة انتقاد للغير وتفضيل نفسه عليهم، في حين أن التوجيه المسيحي يسير نحو محبة وتفضيل القريب على الذات (في 2).

وقد قدّم يسوع نفسه قدوة في ذلك، حيث أنه بذل ذاته محبة بالبشر، ويحث الرسول بولس على التشبه بالمعلم الأول يسوع فيقول، **" كونوا متواضعين في تفضيل الآخرين على أنفسكم، ناظرين لا إلى منفعتكم بل إلى منفعة غيركم، كونوا على فكر المسيح يسوع "** (في 2) أن المبتلي بحب الذات لا يرى غضاضة في أن يضحي بكل شيء في سبيل إرضاء ذاته، أنه يضحي بالصداقة وبمحبة القريب وباعتبارات اجتماعية يحترمها الجميع ويرتاحون لها، ولكن هل يفكر مثل هذا أن الفشل في الحياة ينتظره، إن لم يكن اليوم فغداً، وإلا فبعده ؟ ألا يخطر بباله أن الله خلق البشر سواسية دون تمييز بين هذا وذاك، باستثناء ما يعمله الإنسان أو يعطيه، علماً بأن العطاء في نظر الله مهما كان نوعه أفضل من الأخذ والرب يُسرُّ به ؟ وأن المعطين هم أكثر نجاحاً في الحياة، وأن أي مجتمع أو مؤسسة لا تستقيم شؤونها إلا بعطائها، والعطاء

يستوجب نكران الذات لا عبادتها، وهذا ما يعترف به كل امريء له مقدار من الإدراك والفكر الرصين.

فمحبة الذات أذن هي على نقيض تام مع تعاليم الإنجيل التي وجهت إلى نقد الذات وليس إلى محبتها إلى درجة العبادة، وقدمت درساً عملياً في هذا، وضعت سر الاعتراف ليكون منبراً لنقد المؤمن ذاته على ما أرتكب من أخطاء، فيكون بذلك قد طهر ذاته من الشوائب وعاد إلى ربه كالذهب النقي. وقد أدركت بعض المجتمعات مغزى هذه الخطورة فتبنتها تحت مصطلح " النقد الذاتي ". أن أهم ما تفرزه محبة الذات هو النظرة الخاطئة نحو الغير والتي تقود إلى البحث وبذل الكثير من الجهد في سبيل اكتشاف نقيصة أو زلة ما لدى هذا أو ذاك لكشفها للملأ وإظهار ذاته بمظهر المنزّه عن النقائص والأخطاء. وقد يتخذ البعض انتقاد الآخرين هواية محببة تبعث فيهم الارتياح والنشوة، لا سيما إذا جاء عملهم هذا ببعض النتائج التي يتوخونها. وبقدر ما هو النقد الذاتي محبذ ومطلوب، فإن انتقاد الآخرين غير المبرر أو المستند على أسس واقعية سليمة، هو مرفوض ومستهجن. وغالباً ما يأتي الانتقاد غير المبرر، إشباعاً للهواية أو حسداً من ذوي المواهب بقصد وضع غطاء على تلك المواهب للتقليل من أهميتها وفاعليتها. في الوقت الذي يشيد بها القاصي والداني. ولكن لا يغيب عن البال، أن إزاء هذا الانتقاد الهدام، هناك انتقاد بنّاء، هدفه تصويب الخطأ وإعادة ما تهدم بسبب ذلك الخطأ، وهو مقبول ومحبذ لكونه خالياً من التفكير العقيم السقيم. ويتميز هذا النوع من النقد بكونه صريحاً وموجهاً بصورة مباشرة إلى المنتقد. وذات طابع جدي مقترن بحسن النية، ولا يأتي عن طريق الوسطاء كما هو شأن النقد الهدّام الذي

ينسب صاحبه كلامه إلى فلان نقلاً عن فلان الذي سمع فلاناً يقول كذا وكذا والخ، أو يختصر الطريق ويقول : هكذا يقول الناس، وعندما يجابه بالحقيقة يحاول التهرب مما ادعاه وأشاعه لكونه بعيداً عن الرغبة في الاصلاح. وإلى جانب هذا، هنالك نوع آخر من الانتقاد غير المباشر يوجّه عن طريق تقييم هذا العمل أو ذاك النشاط الذي، بحسب رؤية المنتقد الشخصية، تقف وراءه اعتبارات ومصالح خاصة. مثال ذلك، أن عملاً أو نشاطاً ما ثقافياً أم اجتماعياً أم دينياً يكتب له النجاح ويأتي بالثمار المتوخاة وتقيمه الغالبية الساحقة تقييماً إيجابياً، إذا بوجود من يصفه بالفاشل أو التافه، وفي الوقت نفسه يصف عملاً لا يستحق الذكر بأنه رائع ومتميز، والدافع إلى هذا الموقف، كون الناقد لم تكن له أصبع في العمل الأول. وكان يمني نفسه بأن تكون له الأصبع، في حين يصدر حكمه " الصائب جداً " بحق العمل الثاني، فيشيد به ويثني، لأنه كان أحد المشاركين فيه. يقول الشاعر :

وعين الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٍ ولكن عينَ السُخطِ تُبدي المساويا

ومن المفارقات الاجتماعية الأخرى، أن ينتقد المرء عملاً في ظروف واعتبارات معينة، ولكن حين زوال تلك الظروف وغياب الاعتبارات، إذا به يمتدح ذلك العمل، وبالعكس، وهنا يصح فيه القول : " **مَنْ مَدَحَ وذمّ فقد كذِبَ مرتين** ". ومجمل القول : أن الإنسان السوي يضع نصب عينيه مقولة السيد المسيح " **أخرِج الخشبة من عينك لكي تنظر القذى في عين قريبك** ". أي انتقد ذاتك قبل أن ينتقدك غيرك، فمن انتقد ذاته وأصلحها، لن يجد مَن ينتقده.

وما البعد إلا ما بين القلوب

القلوب، ما أوسعها من مخازن لِما لا يُحدّ من الحُب، إن خلت من الشوائب بمختلف أنماطها، ومن خصائص الحب أنه لا يعرف بعداً، فكل حبيب قريب مهما بعُد، والمقولة التي اتخذتها موضوعاً لحديثي، سمعتها أو قرأتها، لكن ممن سمعتها ؟ لا أتذكر أين قرأتها ؟ لا أدري، المهم أنها فكرة رائعة ذكرتني بتوأمة لها في قصيدة الشاعر السرياني الموهوب ابن العبري، ومهما يكن من أمر فقد غاصت في أعماق قلبي وهزّت أوتاره لينشد هذه الكلمة المتواضعة، فهي وإن كانت مقولة مقتضبة، إلا أنها تحمل معان سامية لكونها صادرة ولا ريب عن فكر واسع الآفاق الإنسانية يحمل قلباً كبيراً ينطوي على المزيد من الحب والحقيقة، لقد لفت نظري إلى أهمية الدور الذي تلعبه القلوب ونحن

نعيش في خضم اوقيانوس هائل من المشاكل والمفارقات ومتاعب الحياة الخارجة عن حدود الوصف والمعقول، ما كانت لتكون لولا غياب الحب عن قلوب البشر وخلو أذهانهم من الصفاء والنية الحسنة، ولولا التغافل عن عدم استعمال صابون الحب الذي وحده باستطاعته التطهير واختراق الأعماق من أجل أن يجتث ما قد علق بها من ضروب الشوائب، التي تدثر الحياة بدثار مهلهل متسخ، فينقاد المرء إلى سلوكية غير واقعية بعيدة عن الروح الإنسانية، ومن البديهي أن هذا النوع من الصابون ليس سلعة تباع وتشترى في الحوانيت، أنه صابون المحبة أو قل هو شعور انساني بحت ينبع من صميم القلب المستقيم، وهو ولا مراء هبة من الله عزّ وجل، " **كل شيء من السوق، والمحبة من فوق** "، دابه أن يحيا الإنسان بسعادة وسلام، وألفة ووئام، يعمل على تضييق، إن لم يكن إزالة، الهوة الفاصلة ما بين القرب والبعد، فيجعل من البعد قرباً وليس العكس، فيغدو كل شيء سهل المنال لكل يد تمتد وتعمل للخير العام.

أما في حالة فقدان مثل هذا النوع من الصابون المشار إليه أعلاه، فينقلب القرب إلى بعد، ويحل الضياع " **من غاب عن العين غاب عن القلب** "، وهذا يعني أن ابتعاد الإنسان عن أخيه لمدة طويلة قد تنسيه حتى صلة الرحم وروابط الأخوة، فالبُعد الحقيقي إذن يكمن في بعد القلوب عن بعضها، والقرب الحقيقي يكمن في قرب القلوب من بعضها، فالقريب منك حقاً لا يدع الحب يغادر قلبه تجاهك ولئن ابتعد عنك آلاف الأميال أو غاب عشرات السنين بل يغذيه دوماً لكي يتجذر في

أعماقه ويتأصل، فلا تنفصم عراه مهما قست تداعيات الحياة، لأنه يفرز خيطاً ولئن رفيعاً وشبيهاً بخيط العنكبوت، إلا أنه قوي ومتماسك يطول ويمتد بامتداد المسافة بينهما مهما شسعت. وحول معاناة الإنسان من بُعد صديق أو هجر مُحب، يعبر الشاعر ابن العبري عن مدى مشاعر التألم لدى الفراق، وكيف أن الكآبة تغزو القلوب، وتستحوذ عليها، ويلعن الزمان الذي لعب دوراً قذراً في إبعاد القلوب، جاء هذا في قصيدة له بهذا الصدد :

كيف يمكن أن يحيا من ابتعد عن أحبائه ؟

وبم ترى يستطيع أن يتغلب على معاناة قلبه.

وفي قصيدة أخرى يناجي عزيزاً له ويقول : إن ابتعادك عني حطمني كتحطم الفخار... وأتاني بفيض من الضيقات والدمار.

وفي قصيدة ثالثة، يرى أن الذي يخوض غمار بحر الهجر، يكون قد محا صك ميناء حياته.

فإذا كان هذا هو مصير الإنسان الذي يبتعد عن الله خالقه ؟ فماذا ترى يكون مصير مَن يبتعد عن الله خالقه ؟

فالقلب إذن هو المستقر الحقيقي الثابت للحب، فإذا ملّكه الإنسان لله، فسوف يبقى معه أبداً، وهذا ما يبتغيه الله من الإنسان، فهو لا يطلب شيئاً سوى القلب " **يا ابني أعطني قلبك** " (أم 23: 26)، وأن يهب المرء قلبه لله بصورة صحيحة، يكون قد عبر عن صدق حبه، وقد

غدا أسير هذا الحب، وبالتزامه التام بهذا يكون قد برهن على يقينية بقائه مع الله، لما سأل فريسي السيد المسيح عن أهم وصايا الناموس، والالتزام بالوصايا يعني بالبداهة حب الله، أجاب : " **تحب الله من كل قلبك** "...محبة صادقة لا غبار عليها، وكذلك قريبك، ذلك أن المحبة من هذا النمط لا تتحمل أي نقاش أو مراوغة، وجل ما يفكر به الإنسان بوحي هذه المحبة، هو استعداده للعطاء اللامحدود من أجل من يحب، وهذا ما يعرف بالحب الباذل كحب المسيح للكنيسة الذي دفعه إلى بذل ذاته من أجلها.

ومما يؤسف له، أن يدعي أحد محبته لله أو لقريبه، وقلبه بعيد عنه كما تفصح أعماله، ولا سيما في ما يخص الممارسات الروحية، وارتياد هياكل الله وما إلى ذلك، فقلما يشاهد من يكون هذا ديدنه، في هيكل الله للصلاة، وفي حالة سؤاله عن سبب ذلك، يأتي جوابه على الفور " **أن حبي لله هو في القلب** "، بيد أن جواباً مثل هذا غير مقنع لأن المحبة تقود الإنسان حتماً إلى من يحب، فوجوده قريباً منه بالجسد يقوم دليلاً على تلك المحبة، وإلا كان جوابه مجرد كلام فارغ لا طائل تحته.

في العهد القديم، كان اليهود يتبجحون بأنهم يعبدون الله الواحد الأحد وهم معتزون به أيما اعتزاز ويعبدونه بالصورة التي يرضاها، غير أن الله وبلسان نبيه أشعيا يبدي عدم رضاه عن عبادتهم المزعومة أو الشكلية بدليل أن قلوبهم كانت بعيدة عنه " **أن هذا الشعب قد اقترب**

إليّ بفمه وأكرمني بشفتيه وأمـا قلبـه فـأبعده عـني " (29: 13)، وبهـذا يكشف الرب زيف ادعائهم، كما يكشف زيف من يدعي بمحبتـه إيـاه، ويبخس حق الله في وجوب عبادته.

فمن يبخس حق الله يهون عليه بخس حق الإنسان، فقد عبر ا الله عن سخطه على ذلك الشعب الذي أدعى عبادته لكنـه ذهـب وراء آلهـة أخرى ليعبدها ويسجد لها (قض 2: 19)، ومـن المؤسـف أن يتشـبه بهـم من رسمت على جباههم سمـة الخـروف المذبـوح (يسـوع المسيح)، فهـم يمضون الوقت المخصص للقرب من الله، بابتعـادهم عنه وعبـادتهم آلهـة هذا العصر وفي طليعتها المادة.

قليلاً من الشجاعة الأدبية

لا أدري، هل أن ما سوف أطرحه أمام القارئ الكريم هو من باب قصة من قصص الخيال، أم حقيقة أم مأساة ؟ قل ما شئت ولكن الحق أقول لك : أنها حدث واقعي.

إن عالمنا هذا كما يقال عالم عجائب وغرائب، عالم متناقضات ومفارقات، فحيث تتوقع نجاحاً تلقى الإخفاق، وحيث تطلب الأمان. والهدوء. تكثر المنغصات والمخاوف، وحيث تنشد الأمانة تصطدم بالخيانة، وأنت إن لجأت إلى من تطمئن إليه، تجده وحشاً ضارياً وانتهازياً بشعاً يبحث عن نقاط الضعف فيك كي يستغلها استغلالاً لا إنسانياً ولا أخلاقياً دون وازع من ضمير ودون أن يولي أي اهتمام للقيم والمثل العليا والكرامة الإنسانية، أنه على أتم استعداد ليدوس هذه الكرامة، إن

كان في ذلك مصلحته الشخصية حتى ولئن كانت دنيئة، أنه يريد أن ينهش فريسته ويمزق أوصال سمعتها ويقضي على حياتها معنوياً بكل ما لديه من أساليب معوجة خبيثة، لا تعتقد أيها القارئ الكريم باني متشائم إلى درجة لا أرى في الحياة أي بصيص من نور السعادة والأمانة والسلام، كلا، لست كذلك، فأنا مؤمن بأن مازال في هذه الدنيا كثير من الإيجابيات ومن الطيبين الذين يمتازون بسمو الأخلاق، بما هو موضوع اعتزاز، ما يدعو إلى التفاؤل رغم كل شيء غير أن بعض الأحداث التي لا تكون في الحسبان تظهر هنا وهناك بين حين وآخر، تجعل المرء أن يقف مشدوها تجاه ما يرى ويسمع وهو يكاد لا يصدق ما يحدث فعلاً، لا سيما إنساننا الشرقي ذو الخصوصية المتميزة.

ما أدونه هنا قصة واقعية أضعها أمام القراء الكرام، أقول واقعية، ليس استناداً إلى ما سمعته، بل لأني كنت الشخص الثاني الذي وقف على هذه المأساة، أما الشخص الأول فكانت امرأة في ريعان الشباب وقد وهبها الله من جمال ما جعل الأنظار تتجه إليها، لا سيما الخبيثة منها، امرأة لم اجتمع بها من قبل إذ لامعرفة لي بها، وقد تكون سمعت عني دون أن تلتقيني من قبل، جاءتني بصحبة طفلها الذي لا يتجاوز السابعة من عمره، وطلبت إلي أن أسمعها في حديث خاص وشخصي للغاية، فانتذبنا مكاناً يبعد بضعة أمتار عمن كانوا متواجدين هناك من أهلها وذويها، وفئة ممن كانوا معي في نزهة في ذلك اليوم الجميل المشجع للتخلص من عناء العمل، والركون إلى الراحة

والاستمتاع بأشعة الشمس المشرقة الدافئة، بعد يوم ممطر وطقس بارد. بادرتني بالقول، منذ فترة وأنا أبحث عن شخص أطمئن إليه لأعرض عليه قصتي بل مشكلتي، علني أجد عنده الحل المريح ليرتاح ضميري المعذب، فحين رأيتك وعرفت من أنت، صممت على طرح موضوعي أمامك. وأن طرح موضوع مثل هذا ليس بالأمر الهين، فهو يحتاج إلى المزيد من الشجاعة الأدبية لدى امرأة شابة لكي تطرحه بكل جرأة، كانت المرأة الوحيدة بين الذين يقصدونني بطرح بعض مشاكلهم علي، تطرح مشكلتها دون تكلف وبصراحة متناهية، دون أن تقول، كما يقول الكثيرون " سر اعتراف "، ربما لأنها تعرف أن سر الاعتراف لا يكون سوى أمام الكاهن، لكن ثقتها بأن الأمر سيبقى سراً، بادرت بالكلام قائلة : " أني أرى نفسي ضعيفة جداً تجاه.... ولا أدري كيف اتصرف، وأنا في هذا الموقف، تأخذني الحيرة وتتقاذفني الأفكار ذات اليمين وذات اليسار. وإذ شعرت بإماءة مني، بأني أدركت مشكلتها وسر معاناتها، سالتني : ألديك حل لمشكلتي هذه ؟ ما الوسيلة التي أستطيع بها أن اكتسب قوة رادعة لمقاومة هذا الرجل الذي يسحرني، وإعادته إلى أعقابه خاسئاً دون النيل مني ؟ فطلبت إليها أن تجيب بصراحة في ما إذا كانت تقرأ الكتاب المقدس، لأنها لو فعلت لوجدت فيه مرشداً أميناً ومخلصاً إلى ما ينبغي عليها فعله، وهو أمين أن يكسبها القوة التي تبحث عنها، فأجابت : لا أخفي عليك بأني أقرأ فعلاً الكتاب المقدس، فقلت : هل تصلين ؟ أجابت : نعم، فقلت : أن أية صلاة تصدر عن قلب مؤمن

تشكل أكبر مصدر قوة، لا سيما وأنت، كما يبدو لي، مؤمنة وتمتلكين الشجاعة الأدبية الكافية لصد مثل هذا المتطفل الدنئ، فكم انقذت الصلاة من أناس ضعفاء مروا بتجارب قاسية، وضربت لها مثلاً واقعياً لفتاة مرت بتجربة تشبه تجربتها إلى حد بعيد، مشكلتها هذه، فكانت الصلاة خير منقذ لها، قالت : ولكن رغم كل هذا فأنا أجد نفسي ضعيفة كلما زارنا، فهو صديق زوجي، والانكى أنه يتردد عندنا حتى في غياب زوجي، وهنا يظهر ضعفي فانهار، وأخشى أن يكتشف هذا الضعف فيستغله فيؤدي الأمر بي إلى السقوط، قلت : هل تدركين ماذا يعني سقوط امرأة لا سيما المتزوجة مثلك، وأنت تعترفين بأن زوجك يحبك وأن الوفاق الزوجي بينكما على أحسن ما يرام، والتآلف متوفر، وأنك على رغد من العيش وطبيعية في عواطفك، فلا يوجد أي مبرر والحالة هذه للسقوط.

صمتت فترة باندهال ثم قالت : يقُال أن أمراً مثل هذا لا يعتبر فاحشة في الغرب بل هو أمر طبيعي، قلت : هل نحن غربيون ؟ أليس لنا خصوصية تختلف تماماً عن خصوصية أولئك ؟ فنحن قبل كل شيء شرقيون، لنا أخلاقنا وتقاليدنا التي ترفض بل تمقت مثل هذه الممارسات الشاذة، إلى جانب تمسكنا بتعاليمنا السماوية التي تستنكر تصرفات مثل هذه، نحن ننتقد الغربيين من هذه الناحية لاعتبارهم إياها مجرد ناحية اجتماعية لا تمت إلى الدين أو الأخلاق بصلة، كل ذلك لكي يتخلصوا من تانيب الضمير وحكم الشريعة الإلهية، ثم وأنت في خضم هذه المعركة

النفسية أثناء وجود هذا الرجل في دارك، ألا يدور في خلدك ما الذي سيلحق بعائلتك وعائلة زوجك من سوء السمعة ونبذ المجتمع إذا ما افتضح الأمر، وهل أن أمراً مثل هذا يبقى خفياً والرب يقول :" **لاخفي إلا وسيظهر** ؟". وهنا لاحظت عليها بوادر الارتياح، وفي الوقت نفسه لمست أنه مازال هناك شيء في أعماقها والذي عبرت عنه بتنهدة عميقة، ثم أعادت السؤال : هل لديك من حل ؟ أجبت : أن الحل الوحيد هو بيدك وإرادتك، وما علينا نحن خَدَمَة الدين إلا أن نطرح حلولاً وندع الأمر لطالب الحل، فلطالما أنت مؤمنة فأن أول شيء تفعلينه هو اللجوء إلى الصلاة وقراءة الكتاب المقدس لا سيما العهد الجديد، وحيث أنك تتمتعين بشجاعة أدبية كما الاحظ، عليك أن تستغلي هذه الشجاعة وتعتذري عن استقبالك إياه في دارك مهما كان موقعه وبخاصة في غياب زوجك، وإلا فأطلبي إلى زوجك أن يفعل ذلك بطريقة ذكية.

أضع هذه القصة، بل المأساة، أمام أنظار بناتنا ليكونن يقظات حذرات، ويقتنين الشجاعة الأدبية الكافية لردع مثل هؤلاء المتطفلين العابثين الذين لا يخشون الله ولا يستحون من البشر.

أضعها أمام الأزواج لكي يكونوا دقيقين في اختيار الأصدقاء وعدم ترك لهم الحبل على الغارب وتقديم شهادات حسن السلوك بحقهم.

الحياة معركة

الحياة معركة تبتديء بـ " واع " الولادة وتنتهي بخرخرة الموت، الحياة معركة إما أن تكون لك أو عليك، فإن أردتها لك، زودتها بما يلائم من السلاح واليقظة والهمة، وإن أهملت لاحقتك الهزيمة النكراء، الحياة معركة، تنوعت ميادينها وتشعبت ساحاتها وتباينت أسلحتها، ولئن كانت كلمة **المعركة** تهز الأبدان وتثير الخوف والقلق والقرف، لكونها ضد ميول طبيعة الإنسان التي تهوى الهدوء والسلام، لكن واقعنا اليوم هو كالأمس يشهد بأنه في معركة مستمرة مذ تسلل الشر إلى حياة الإنسان وشطرها شطرين، الخير والشر، فدخل منذئذ في معترك الصراع بين عنصرين متناقضين، ولم يقتصر هذا الصراع على ما هو خارج الإنسان، بل تغلغل إلى داخله أيضاً، بين عقله وعاطفته، فالعقل في معظم

الأحيان يقف إلى جانب الخير ويحاول أن يبقي صاحبه على الصواب والرشاد، محذراً إياه من الزلل والسقوط ومن مغبته الأليمة، في حين أن العاطفة، وبخاصة عندما تجرفها تيارات معينة، تقود صاحبها إلى منزلقات لا حد لها فإذا ما أرخى المرء لها العنان غدت كعاصفة هوجاء تهيج وتموج ويعسر كبح جماحها حتى تطيح به إلى مصير لا تحمد عقباه، وهكذا تستمر المعركة قائمة بين العقل والعاطفة، والمقصود بالعاطفة هنا، تلك العاطفة العمياء التي تقود صاحبها إلى هوى ذميم، وليس تلك التي تنبعث من، الأمومة أو الأبوة، أو من قلوب حباها الله بالرحمة والشفقة.

وهنا لا بد من تدخل الإرادة لترجيح كفة الواحد على الآخر، فإن كانت صالحة خيرة كان النصر للعقل والسعد للإنسان، وإن لم تكن صالحة ترجحت كفة العاطفة العمياء التي غالباً ما تقع تحت تاثير اعتبارات خاصة من شأنها إزاحة الحق جانباً ليتربع الباطل على العرش ويغدو سيد الموقف، الحياة معركة، قائمة بين الماضي والحاضر أو بين جيل وآخر، ويشتد الصراع بينهما حينما تأخذ بعض التغيرات مكانها في الحاضر فتوحي بأن الماضي عجز عن إسعاد الإنسان، أو أنه يقف حاجزاً يحول دون أنطلاقة الفكر وانفتاحه، في حين أن الماضي يظهر وجهه المشرق ويدلل على كونه أصلاً لكل إشراقة جديدة تظهر في الحاضر. إلا أن البون يبقى شاسعاً بالنسبة إلى مفهوم الحياة بين جيل وآخر من بعض النواحي على الأقل، نظراً لوجود خلاف في المفاهيم الاجتماعية والحياتية بين الطرفين، وخلاف في العلاقة ما بين الإنسان وأخيه الإنسان، أو ما

بين شعب وآخر، لا بل وحتى في علاقة الإنسان بخالقه، وبذلك يبقى الصراع محتدماً لتعزيز كل من الطرفين وجهة نظره، وعلى سبيل المثال نقول : أن العديد من مجتمعات العصر ترى الحرية بخلاف ما تراها مجتمعات أخرى تعطي قدراً كافياً من الاعتبار والاحترام للماضي ولئن كانت معاصرة هي الأخرى، وبذلك يكون للمجتمع البشري قد انقسم إلى مجتمعين، الأول يرى الحرية حقاً، لكل فرد له حق التصرف المطلق في جميع الشؤون الحياتية، دون الالتزام بالقيم الروحية والدينية، أما الثاني وهو المجتمع الملتزم بالقيم الدينية، فيحددها بشكل معقول ومقبول، الأول يفهم الأخلاق بشكل مغاير لمفهوم الثاني لها، فهي عند الأول الالتزام ببعض الاعتبارات العامة كعدم إلحاق الأذى بالإنسان والأوطان، وللمرء أن يفعل ما يشاء، في حين يرى الثاني ضرورة الالتزام بالمبادئ الأخلاقية كما ألهمتها السماء لبني البشر، وهكذا يحتدم الصراع وتشتد المعركة بين الماضي الملتزم والحاضر الذي يحاول تهميش الماضي لا سيما في ما يخص تقاليده الأصيلة والتزماته الخلقية. ولكن مهما كان الأمر لا يصح إطلاقاً اعتبار أن دور الماضي قد انتهى وولى إلى الأبد، فالماضي يبقى جزءاً هاماً من كيان الإنسان وحياته، مهما شسعت المسافة بينه وبين الحاضر، ومهما اتسعت شقة الخلاف بينهما، والمثل الشعبي يقول : " اللي ما عندو عتيق ما عندو جديد ".

السؤال هنا، هل يمكن اعتبار كل ما في الماضي صحيحاً وكل ما في الحاضر غير صحيح ؟ كلا طبعاً بل لكل منهما حسناته إلى جانب

مساوئه ففي الماضي أمور صحيحة ومنطقية وكذلك في الحاضر، ومثلما نتحدث عن الصراع الاجتماعي والخلقي نتحدث أيضاً عن الصراع القائم بين الماضي والحاضر في الفكر الديني، فمن المعلوم أن الدين يتضمن عقائد أساسية وجوهرية لا يجوز المس بها إطلاقاً مهما طال بها الزمن، كإدخال تعديلات عليها أو تأويلها تأويلاً خاصاً، قد ينطبق هذا الأمر على بعض القضايا والتقاليد الثانوية الهامشية أو القوانين والأنظمة الموضوعة. غير أن الأمر ليس كذلك بالنسبة إلى المسائل العقائدية المنصوص عليها في الكتاب المقدس والتقاليد الرسولية التي لا يجوز البتة صهرها في بوتقة ما وإخراجها بصورة مشوهة واعتبارها هي الصورة الحقيقية التي يجب تقديمها إلى الإنسان المعاصر، كما لا يجوز تأويلها بشكل كيفي يراعي الأمزجة ويتماشى مع رغبة دعاة التجديد والتغيير، إلا أن هذا ليس مطلقاً، فما نعنيه هنا هو التجديد غير المبرر فهناك ما يستوجب التجديد مع الحفاظ على الجوهر. كما لا يجوز اعتبار أن العقيدة الفلانية لم تعد ملائمة لتقبل الإنسان المعاصر، ويجب إحصاؤها بين مخلفات الماضي ووضعها فوق الرفوف العالية، فهذا ولا ريب خروج واضح عن النهج القويم والمبادئ الدينية القويمة. ونوع آخر من الصراع يدور اليوم داخل إنساننا، ألا وهو الصراع بين الهجرة والبقاء، فالمعركة حامية بتاثير ظروف معينة آنية، حيث يتصور أحدنا أحياناً أن الهجرة ملجأ للراحة النفسية، أو أنطلاق إلى عالم سداه السلام ولحمته السعادة، وأحياناً أخرى يرى عكس ذلك، فالأرض عزيزة والوطن غال وليس من

الهين هجرة، ويعتبر أن الظروف التي يمر بها ليست أكثر شؤماً وأقسى ضراوة من تلك التي مر بها الآباء والأجداد وصمدوا حتى النهاية، وبذلك يقوم الصراع داخل الإنسان الذي تراوده فكرة الهجرة وترك الوطن وهو الأعز.

الإرادة بين الخير والشر

الخير والشر خصمان لدودان عنيفان يعملان داخل الإنسان وهما في صراع مستمر مذ دخل الشر ساحة الإنسان، وكل يحاول التغلب على خصمه وبخاصة الخير من حيث كونه من صنع الله الذي القى بذرته في الإنسان وتركها تنمو. أما الشر فأراده ويريده الإنسان لذاته بمحض إرادته السئية. يصف أحد آباء الكنيسة عنف الإرادة الشريرة فيقول : " **كم اشتهيت أن أتوب، غير أن إرادتي الضعيفة حالت دون ذلك** "، ومن هنا قلنا، الإرادة بين الخير والشر والرسول بولس، مشيراً

إلى الصراع العنيف في رسالته إلى أهل رومية ملمحاً إلى عنف الخطيئة بحيث يرى نفسه عاجزاً عن تجنب الخطأ إلاّ بقوة خارقة : يقول " **لأن ما أريده لا أعمله وما أكرهه أعمله** " (رو 7: 15)، أنه يكره الخطيئة حتى لمجرد أن يشتم رائحتها الكريهة، لكنه كإنسان يعترف بضعفه البشري أمامها، وبدون تردد ينسب إليها هذا الموقف المحرج، لكونها تسكن في داخله. فبالرغم من كونه يميز تماماً الخير عن الشر والصالح عن الطالح، ويود بكل ما يملك من قوة أن يصنع الخير لأن في صنع الخير سعادة، إلا أن الخطيئة تحول دون ذلك، لا بل تقوده إلى أن يعمل ما لا رغبة له فيه وهذا شر الأمور لكونه من نتاج الخطيئة أولاً ولأنه متمرس في شريعة الله ويعرفها حق المعرفة ثانياً. ومع ذلك فإن شريعة الخطيئة تقاوم في داخله شريعة الله التي يقرها عقله، وكأني به يصوّر الخطيئة سيداً عاتياً ظالماً، ويصوّر نفسه عبداً لا بد له من إطاعة سيده في كل ما يأمره به، (راجع رو 7: 15 – 25)، وإذا يضع هذا الموقف أمام المؤمن، فلكي يحذره من أن يدع شريعة الخطيئة تتغلب فيه على الشريعة الإلهية ويحفزه ليتذرع بإ رادة قوية تستمد قوتها من قوة الله التي وحده تستطيع دك المخال الشر، ونظراً لكون الله هو محبة، فيكون للمحبة تأثير جد عظيم في ترجيح كفة الخير على كفة الشر، لأن الشر في هذه الحالة ينتفي بكل تشعباته، حتى أن الشرير الأكبر (إبليس) بكل طغيانه لا يقوى على زعزعة أركان المحبة. والسؤال هنا كيف وبأية آلية يتزود المؤمن بقوة من الله؟ أن الآلية لأكثر فاعلية هي الصلاة والصوم وسائر الممارسات

الروحية الأخرى، وبخاصة الصلاة التي تشكل الوسيلة الأولى لدخول السيد المسيح إلى ذات الإنسان، ولما كان السيد المسيح هو الخير الأعظم والصلاح الكلي، فإن الشر لا يتجرأ أن يظهر حتى نفسه، والكتاب المقدس يقدم نماذج كثيرة على فاعلية حياة التقوى، من ذلك الحياة التي عاشها أيوب البار الذي فشل إبليس في اصطياده بشباك شروره الخبيثة، قال الكتاب "... **وكان الرجل (أيوب) كاملاًومستقيماً يتقي الله ويحيد عن الشر** " (أيوب 1: 1).

نستنتج مما تقدم أن كفة الإرادة الشريرة تترجح لدى الإنسان عندما يبيع نفسه للخطيئة وبعبارة أكثر دقة للشيطان، كالذي يبيع ضميره من أجل المادة، وبحسب تعبير الكتاب المقدس، يبيع بكوريته من أجل آكلة عدس (راجع تكوين 25: 27-34)، يحدث مثل هذا عندما تكون نظرة الإنسان إلى الأمور ضيقة وقصيرة المدى، حيث ينسى كل ما يحيي، ويميل إلى شيء واحد قد يؤدي به إلى الهلاك. ينسى نعمة الله ينبوع كل الصالحات الباقيات ويأخذ من الحياة جانبها الهزيل التافه، ينسى شريعة الله التي تعمل من أجل خيره وإبعاد الشر عنه، ويتمسك بما يناهضها ولئن لحق به ضرر جسيم بسببه، يسر بما هو زائل ويرضى بضعفه أمام الخطيئة بعكس الرسول بولس القائل : " **أُسرّ بالضعفات والشتائم والضرورات والاضطهادات والضيقات لأجل المسيح لأني حينما أنا ضعيف فحينئذٍ أنا قوي** " (2 كو 12: 10)، قال هذا حينما شعر ببعض الضعف تجاه الخطيئة فاشتكى إلى يسوع ليزيل عنه هذا الضعف فقال له

" **تكفيك نعمتي لأن قوتي في الضعف تكمل** " (2 كو 12: 9)، فبدون نعمة الرب لا نقوى أن نأتي شيئاً فيه صلاح.

فالإنسان بعد سقوطه، يجد نفسه ضعيفاً تجاه تداعيات الحياة، ويرى المؤمن أن ما يبعدها عنه هو اختيار السيد المسيح الطريق الحق إلى الحياة الحقة والركون إلى شريعته التي بها يستطيع أن يكتشف السبيل السوي للتخلص من براثن الخطيئة، وبهذه الطريقة يستطيع التغلب على الشعور الخاطيء الذي يتأجج في داخله، إما عن طريق إرادة قوية مستمدة من قوة الإيمان كما أشرنا أو بنعمة من المسيح، فيستطيع آنذك أن يقول مع الرسول بولس : " **أستطيع كل شيء في المسيح الذي يقويني** "، وفي كثير من الأحيان يخضع المؤمن لسلطان الخطيئة فيضع اللوم على الشيطان (غرّني الشيطان) وهذا تبرير لا قيمة له لطالما أن الوسائل المنقذة من مثل هذا الموقف متيسرة في كل لحظة، " **لأنك بكلامك تتبرر وبكلامك تدان** " (متى 12: 37).

من ناحية أخرى فإن كفة الإرادة الشريرة تترجح لدى الإنسان عندما لا تتحد إرادته مع إرادة الله، وغنيٌ عن البيان أن الله لا يريد للإنسان سوى ما هو لصالحه وخيره وبالتالي سعادته، غير أن الإنسان غالباً ما لا يستجيب إلى نداء الإرادة الإلهية، وبذلك يكون قد سجل لنفسه فشلاً ذريعاً " ويكون ذنبه على جنبه " كما يُقال، وبعكس ذلك عندما تتحد إرادة الإنسان مع إرادة الله، كما نقرأ في الإنجيل المقدس في أكثر من مكان، حيث تحدث معجزة لدى اتحاد الإرادتين، ففي إنجيل

متى مثلاً يلجأ أبرص إلى يسوع مسلماً له المشيئة فيرد " شئت " فطهر جسده للحال وعاد إنساناً كريماً بعد أن كان منبوذاً، وفي مكان آخر من الإنجيل نفسه (متى 23: 27) نرى عكس ذلك، حيث يرفض الإنسان اتحاد الإرادتين فيؤول إلى التهلكة، " **يا أورشليم يا أورشليم، يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها، كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها ولم تريدوا** " (متى 23: 37)، وفعلاً قد انتهت إلى الخراب سنة /70 م/.

والسؤال هنا، لماذا يجنح الإنسان نحو الشر ؟ لا ريب من أن أهم الأسباب هي قطع الصلة مع الله، فالبعد عن الله مؤثر سلبي في سلوك الإنسان، يهيء له الانحراف عن الحق فيريه الحق مرّاً والباطل حلو المذاق، فلا يعود يدرك " **أن الإنسان لا يحيي بالخبز وحده بل بكل كلمة من فم الله** "، (متى 4: 4)، ولا يتذكر وعود الله بأنه تعالى يستجيب لمن يدعوه وهو وحده ينقذه من شر بلايا هذا العالم، فالإنسان ما دام متحداً مع الله فهو في مأمن فلا يخشى السقوط ولا تأتي إرادته إلا ما فيه الخير والصلاح. فلا مجال لها أن تجنح نحو التمرد.

إلى جانب هذا توجد عوامل أخرى تدفعه إلى ترجيح كفة الإرادة الشريرة، في طليعتها الأطماع الدنيوية التي يخلقها حب الذات، وهو مرض فتاك لا يبقي من الخير شيئاً ولا يذر، وبالطبع هو مكرهة في عين الرب الذي يوصي بتفضيل الغير على الذات (في 2: 3)، فإذا ما استشرى هذا الداء على الإنسان لم يعد يرى سوى نفسه أو يفكر إلا

بنفسه ولها فقط يطلب كل شيء، وهذا يتقاطع تماماً مع دعوة الله إلى المحبة لأنها لا تطلب ما لنفسها (1 كو 13: 5)، وكما يحذرنا الرسول من الانسياق وراء محبة الذات التي تغذي الأحقاد والحسد بعكس ما تفعله المحبة النزيهة التي لا تحسد، فغياب المحبة إذن والحالة هذه يعطي فرصة سانحة لترجيح كفة الشر والفساد الذي حيثما انتشر حلّ العداء وساد الظلم وحب الانتقام في حين نهى عنه الله متحملاً أعباء الانتقام " **لي النقمة وأنا أجازي** " (رو 12: 1)، إذ لا بد للعدالة أن تأخذ مجراها، فإن لم يكن في هذا العالم ففي الآخر، والمؤمن يضع نصب عينيه قول المزمر من أن في الأرض إلهاً يقاضي البشر، وهو عادل وترس للمستضعفين، خلاصٌ لمستقيمي القلوب، يستل سيفه على من لا يتوب، يرميه بسلاح مميت (مز 58: 11 و 7: 11-15).

المعـــول المقـــدس

المعول بمفهومه العام، أداة هدم وتخريب، وفي القياسات البشرية لا ينسجم مع كلمة " القداسة " لكونها المرآة الصافية للقيم الروحية والأخلاقية، ورمز للبناء، وأية شركة بين الهدم والبناء ؟ ولكن هذا لا ينفي أن يكون أحياناً وراء الهدم بناء، وبعبارة أخرى أن يعمل المعول على تغيير شيء ما من حالة إلى حالة أفضل، و هنا يكون قد تحول من أداة هدم إلى أداة بناء وبالتالي قد انسجم مع القداسة، وهذا يعتمد أولاً وآخراً على إرادة الإنسان الصالحة، ومن هنا تأخذ كلمة " المعول " بعداً آخر غير اعتيادي، بل غير مادي هدفه القضاء على كل ما من شأنه هدم حياة الإنسان وتقويضها بصورة أو أخرى أو تشويهها، بجعلها تتمسك بتوافه الأمور أو بحسب تعبير الرسول بولس : " **تمسكها بالأركان**

الضعيفة" (غل 4: 9)، فالمعول المعنوي هنا يكون أداة تهذيب وتأديب يشبه إلى حد ما السوط الذي استعمله رب المجد في طرد الباعة وتجار بيوت الله من هيكل الله وإعادته إلى حالة القداسة (يو 2: 15)، ذلك أن الله لا يرضى السكنى إلا في مساكن مقدسة لكونه قدوس القديسيين.

فمن مهام المعول الإيجابية، هدم ما يشكل خطراً على حياة الإنسان، كهدم مبنى معرض للانهيار مثلاً، الذي في حالة انهياره يذهب ضحيته العديد من الأرواح البريئة، فالمعول هنا يشترك مع الإنسان في الحفاظ على حياته، وهذا هو بالضبط غرض المعول المقدس، فما هو هذا المعول، أنه كلمة الله التي وصفت بسيف ذي حدين ديدنه قطع دابر الشر، وقد تحدث السيد المسيح عن هذا النوع من السيوف، خلال عرضه مهام مجيئه إلى العالم، بقوله : "**لم آت لألقي سلاماً على الأرض بل سيفاً** " (متى 10: 34)، ومثلما يختلف هذا السيف في استخدامه عن السيف قاطع الرقاب، كذلك يختلف المعول المقدس (كلمة الله) في مفعوله عن المعول الهدام، فما هي مهام هذا المعول ؟

لو تأملنا سيرة الإنسان منذ فجر وجوده لوجدنا أن من شروط محبة الله له، هي العمل والمثابرة من أجل حياة قويمة هنيئة. فقد أوصاه أن يعمل الأرض ويحافظ عليها، جاعلاً العمل سمة من سمات حياة الكيان البشري، غير أن العديد اليوم يتقاعسون عن العمل في الوقت الذي يحملون مسؤولية إعالة، أبناء أو آباء أو أسر، فيهملون هذه الحاسة من

حياتهم فيتغاضون عن كونهم مسؤولين تجاه الله، والمجتمع عن أسر لا بد لها أن تعيش، فهنا يأخذ المعول المقدس دوره ليهدم مثل هذا التصرف اللاإنساني بضربته " **اذهب إلى النملة أيها الكسلان وتأمل طرقها وكن حكيماً** " (أم 6: 6)، وإذا كان السيد المسيح قد وبخ العذارى الجاهلات على أعمالهن، أفلا يوبخ من يهمل نفسه ونفوس الآخرين الموكلة إليه إعالتهم ؟ لا سيما كون الله أرشد الإنسان إلى طريق الحياة السوي ألا وهو العمل إلى درجة أنه اعتبر التهرب منه خطيئة " **فمن يعرف أن يعمل حسناً ولا يعمل فذلك خطيئة له** " (يع 4: 17)، وهنا أشير والأسى يحز في نفسي إلى وجود أرباب أسر عائشة على هامش الحياة وتحت خط الفقر، في حين أن المجال واسع أمامهم لكي يعملوا وينقذوا هذه الأسر المنكوبة من حال الذل والتعاسة. والانكى أن بينهم من لا يهتمون سوى بأنفسهم دون أن يعيروا اهتماماً بأفراد أسرهم، فينفقون ما يجنونه في سبل ملتوية كالإدمان على الخمر والمخدرات والميسر وما إليها من طرق عقيمة شأنها تدمير حياة الأسرة، إلى درجة انتزاع اللقمة من أفواه الأطفال، وهنا أيضاً يتدخل المعول المقدس للقضاء على مثل هذه الارجاس التي تزج بصاحبها في متاهات لا قرار لها، قلما يستطيع التخلص منها، وذلك عن طريق وصيته القائلة " **لاتسكروا بالخمر الذي فيه الخلاعة بل امتلأوا بالروح** " (أف 5: 18)، والمقصود هو الروح القدس، النعمة العظمى التي أ نعم بها الله الآب على المؤمن لكي تقوده إلى سواء السبيل وتحذره من عثرات هذا العالم، ترى هل لا نتذكر ما

فعلته الخمر بأبينا نوح وكيف صارت سبباً لإلحاق اللعنة بأبنه كنعان (تك 9: 25) ؟ ألا نتذكر ما فعلته الخمر بلوط (تك 19: 32) ؟ ألا نقرأ ما أوحي إلى بولس من أن مثل هؤلاء المدمنين لاحصة لهم في ملكوت الله " **لا تضلوا لا زناة ولا عبدة أوثان ولا فاسقون ولا مأبونون ولا مضاجعو ذكور ولا سارقون ولا طماعون ولا سكيرون ولا شتامون ولا خاطفون يرثون ملكوت الله** " (1 كو 6: 9)، كما يدرج الرسول بطرس السكر مع المحرمات (1 بط 4: 3).

ترى ما الذي يدفع مثل هؤلاء إلى أن يضربوا عرض الحائط كل شيء سوى أنفسهم ؟ أليس لأن فكرة (الأنا)، قد عشعشت في أدمغتهم، هذه الخصلة الذميمة التي اتخذوها آلهاً آخراً يعبدونها، والويل لمن يعبد ربين، غير مدركين أنها تنشيء غروراً والغرور كرهاً والكره يخلق ما لا يحمد عقباه، فهي إذن معول هدام للأسرة والمجتمع و(الأنا) شخصية كانت أم بمعنى (نحن) لا تدع للحوار مجالاً، وهو الأساس الأرسخ للتقدم، والباعث على المحبة والسلام والوفاق بين مختلف المذاهب الدينية والعرقية والقومية، علماً بأ ن كلمة الله تلقي باللائمة على محبي الذات دون محبة الله (2 تي 3: 3)، وتضعهم في صف المجدفين والدنسين وعادمي النزاهة وغير محبين للاصلاح.

ترى ألا يتصور مثل هؤلاء إلى أية دركة أوصلت (الأنا)، إبليس عدو البشرية ؟ كيف حفّزته إلى التعالي فإذا به في أعمق أعماق الهاوية، ومنذئذ أخذ يحارب الإنسان بشتى الوسائل ومنها تبني (الأنا) بقصد أن

يوصل به إلى ما وصل هو إليه. فقد يصور له الشيطان (الأنا) بأنها حجر الأساس في بناء شخصية قويـة مثلى تقبض على زمام الأمور في هـذه الحياة، غير أن معول الله المقدس يقوض أركان ما يحاول إبليس بناءه لصالحه، ويحث على التغلب عليه، إذ يقول بلسان صاحب الرؤيا "**من يغلب (الشيطان) فسأعطيه أن يأكل من شجرة الحياة** " (2: 7). فمن يحاول أعمال المعول المقدس في صرح الشيطان، سيراه ولا شك ساقطاً مثل البرق من السماء (لو 10: 18).

الضمير في المزاد العلني

ما الضمي ر؟ وما فاعليته في الإنسان، ومـا علاقتـه بـا لله ؟ لقـد قيل الشيء الكثير عن الضمير، يوحي بأهميته بكونه عنصراً هاماً في حياة البشر. وقد بالغ بعضهم في إضفاء أرفع الصفات وأسماها عليه، حتى قيـل أنه نا ئب الله في الإنسان، وقال غـيرهم أنـه صـوت الله. ولكـني لا أرى هذا صواباً، على الأقل لأن " **الله لا ينام ولا ينعس** " (مز 121: 3)، أما الضمير فينام وينعس، وصوت الله يجلجل دوماً أما صـوت الضمـير فقـد يخرس. وللضمير معان متباينة لدى المعنيـين كمـا أن هـذه المعـاني تختلـف باختلاف لغات العالم، غير أن هـذا لا يهمنـا في هـذه العجالـة بقـدر مـا يهمنا الوقوف على مهمته لدى الإنسـان ومـدى فاعليتـه، وهـل يعكـس " فكر الله وإرادته "؟ نقرأ في الكتاب المقـدس عبـارة " **تـأنيب الـذات** "

الذي يشعر به المرء في موقف ما مقترن بارتكاب خطأ أو خطيئة، وما مصدر هذا التأنيب سوى ذلك العنصر الخفي الموجود في داخله والذي يُعرف بالضمير. وقد أطلعنا الإنجيل المقدس على موقف السيد المسيح من المرأة التي جاء بها إليه قوم يسألونه رأيه في رجمها أو عدمه باعتبارها زانية، وكان جواب الرب " **من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولاً بحجر**" وتجاه هذا السؤال استيقظت ضمائرهم النائمة فأدركوا أنهم ليسوا أقل دنساً من تلك المرأة. يقول الإنجيل " **فلما سمعوا ذلك أخذت ضمائرهم تبكتهم فخرجوا واحداً بعد واحد** " (يو 8: 9)، ولكن هذا الضمير ليس دائماً الحكم في كل شيء، فقد يرتكب الإنسان الزلات البسيطة لا يدركها فيرى نفسه مبرراً. يقول الرسول بولس في هذا الصدد " **أني لست أشعر بشيء في ذاتي لكني لست مبرراً، ولكن الذي يحكم فيَّ هو الرب** " (1 كو 4: 4)، فالحكم النهائي إذاً هو لله وقد حدث في كنيسة كورنثوس ما يُشير إلى أن الإنسان يرى نفسه مبرراً دون أن يدرك بأنه قد زل، فقد اشتكى بعضهم إلى بولس الرسول بأن قوماً منهم يأكلون اللحم دون التحقق من كونه ذبح للأوثان أم لا، اعتقاداً منهم بأنه لم يعد هناك وثن، الأمر الذي ولد شكوكاً واضطراباً لدى الآخرين من المؤمنين الملتزمين بقرار المجمع الرسولي الأول الذي حرّم أكل اللحم المذبوح للأوثان، وقد جاء في معرض جوابه على تلك الشكوى " **إن كان طعام يعثر أخي فلن آكل لحماً إلى الأبد لئلا أُعثِر أخي** " (1 كو 12: 8). وما الضمير سوى شريعة الله الطبيعية أودعها في

الإنسان ليهتدي بنوره إلى سواء السبيل وبوحي منه يعود إلى الرشاد في حالة زلل أو انحراف، ثم لكي ينبهه ليعي نفسه ومسؤوليته تجاه الله أو نحو ذاته أو الذين أقامه الله مسؤولاً عنهم، في العمل كان أم في الأسرة أم في المجتمع أم في مجال آخر من مجالات الحياة، إذ يقدم له التوجيه الصائب أو التأنيب البنّاء. يقول الرسول بولس : " **إن الأمم الذين بلا شريعة إذا عملوا بالفطرة ما تأمر به الشريعة، كانوا شريعة لأنفسهم مع أنهم بلا شريعة** " (روم 2: 14)، فالضمير هنا هو الشريعة الفطرية التي سار بموجبها البشر قبل معرفتهم الله الحقيقي وكأن الله قد كتب الشريعة الأدبية في قلوبهم قبل أن ينزلها على البشر، فامتثل له الناس لطالما كان قوياً وصالحاً، لأن الضمير الصالح هو الذي يستنير بنور الإيمان والوحي فيبقى بعيداً عن أي ضغط خارجي فإذا امتلكه المرء، سار مع الله حتماً " **أني عشت لله بضمير صالح حتى اليوم** " (أع 23: 1)، ومن هنا اقتضت الضرورة بالحفاظ على الضمير طاهراً وصالحاً وبدون عثرة من نحو الله والناس (أع 24: 16). ولكن هل تجري الرياح دوماً بما يشتهيه السَفَنُ ؟ لا سيما بوجود الإرادة التي تكون شريرة أحياناً، فإذا كانت صالحة استجابت لتوجيهات الضمير الصالح، وإن كانت شريرة رفضتها، لا بل تعطل فاعلية الضمير عندما تتغلب عليه، تماماً كما تعطل الشريعة الأدبية التي أعطاها الله للإنسان لنفس الغاية التي أعطاها للضمير (الشريعة الطبيعية).

إلى هنا دار الحديث عن الضمير الذي خلقه الله صالحاً " **ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً** " (تك 1: 31)، لكن الضمير يتأثر بإرادة الإنسان غير الصالحة، فيدخله الفساد ويدنسه فتلعب آنذاك الإرادة الشريرة دورها القذر، بعد أن تكون قد خدرت الضمير بشكل أو آخر وجردت الإنسان منه، الأمر الذي يفسح المجال للبشر أن يسرحوا ويمرحوا في ميدان الفساد، من تضعضع أخلاقي وتنكر للقيم الإنسانية دون حسيب أو رقيب لطالما أنهم لم يعودوا يصغون لصوت ضمائره ولا يشعرون بوخزات مناخسها، وغدا لديهم الاستعداد التام لبيعها في المزاد العلني كانها سلعة أخرى، دون خجل أو تورع، وبأبخس الأثمان، ذلك أنه مهما ارتفع سعر الضمير فهو بخس جداً، ولكن ما يؤسف له أن يباع الضمير اليوم بحفنة واحدة من الدراهم، فهي كافية لشراء ضمير إنسان يطلب منه أداء شهادة زور تجعل من الحق باطلاً ومن الباطل حقاً، وبحفنة واحدة يشهّر بإنسان هو في ذروة الأخلاق والمثل الإنسانية، فتجعل منها إنساناً ساقطاً، وأن قطعة واحدة من الأصفر الرنان كافية لارتكاب أفظع الجرائم واتيان أبشع المنكرات، يُطرح جانباً لكي تكال التهم جزافاً ضد إنسان بريء لتنزل به أشد العقوبات قسوة وصرامة، يكبح البعض جماح ضمائرهم لكي يقتلوا آلافاً من الأطفال الأبرياء والشيوخ ويستطيبوا هلاك البشر دون مبرر إشباعاً لأطماعهم الدنيئة وإمعاناً بروح التسلط الشريرة على الشعوب، والتي تملأ كل جوانحهم وتسيطر على أحاسيسهم وتقضي على أي نوع من المشاعر الإنسانية

فيهم، هذه الروح تتنافى وإرادة الله في حرية الإنسان. فهؤلاء وأمثالهم يحقنون ضمائرهم بجرعة مخدرة ليطلقوا العنان لشهواتهم الجامحة، فتسر أعينهم برؤية بني آدم وقد غدوا فريسة للأمراض الفتاكة من جراء جرائمهم، ولكي يستمتعوا إذا ما علموا أن بطون ملايين من البشر تتلوى جوعاً، ترى ما الفارق بين هؤلاء وبين المتسلطين في العهد الروماني مثلاً، ألم يحرق نيرون روما ليمتع أنظاره بمشهد الألسنة النارية وهي تلتهم روما، ألم تتعالَ ضحكات خلفائه لتشق عنان السماء وهم ينظرون إلى الوحوش الضارية كيف تمزق أشلاء أناس أبرياء ؟ ترى ألا تفوق همجية هؤلاء الذين يدعون ببلوغ قمة المدنية، همجية أولئك ؟ ما الفائدة من كل الاختراعات الحديثة الجبارة المدهشة، إن هي سخّرت لتدمير البشر بدلاً من إسعادهم ؟ هذا ما يؤسف له حقاً أن يعطل بعضهم إرادة الله في سعادة الناس.

أموات في عالم الأحياء !

الميت في نظر الناس هو من فقد الحياة، والحي عندهم هو من يوجد ويتحرك ويأكل ويشرب ويلبس، ولكن هل هذه هي الحقيقة كلها ؟ كلا، فهذا علم ناقص وقد تستغرب أيها القارئ الكريم من هذا الجواب المقتضب والذي لا يتجاوز ثلاثة أحرف، أو قد يدهشك عنوان هذا الحديث بالذات، إذ كيف يمكن أن يوجد أموات في عالم الأحياء ؟، وقد يتضائل استغرابك بعض الشيء إذا ما تبادر إلى ذهنك أن الإنسان بعد لفظه أنفاسه الأخيرة، يبقى فترة من الزمن طالت أم قصرت ميتاً بين الأحياء حتى إيداعه اللحد وانتقاله كلياً إلى عالم الأموات، لكن الحق

أقول لك، إن الجواب بـ " كلا "، للسؤال أعلاه كافياً لذوي الألباب، ثم أن عنوان الحديث لا يمت بصلة بهؤلاء الراحلين، فهو يعني شيئاً آخر، فمثلما وجد حي بين الأموات، كذلك يوجد أموات بين الأحياء. فلنسمع الآن السؤال الذي وجهه الرب فجر قيامته إلى المجدلية " **لماذا تبحثين عن الحي بين الأموات** ؟"، بالتأكيد استغربت حينذاك تلك المرأة التي شاهدته بأم عينها يغادر عالم الأحياء ويودع جسده أحد مساكن الموتى، ومن الطبيعي أن تذهب باحثة عنه بين الراقدين، غير أن استغرابها يتلاشى حين سمعت اسمها ينطلق من فم القائم من بين الأموات فتأكدت أنه هو فعلاً حي ولا مكان له بين الأموات، بيد أن الأمر هنا معكوس تماماً، فالموضوع هو موضوع موتى في عالم الأحياء، ولا بأس أن نستعين بالمجدلية التي اكتسبت خبرة في موضوع الأحياء والأموات، وصار لها بعد نظر في تمييز الموتى الحقيقيين من الأحياء الحقيقيين، فنطلب إليها أن تجول في عالمنا الذي يعرف بعالم الأحياء، وتلقى بمن تشاء وتطرح عليه هذا السؤال : **هل أنت حي** ؟، ولا بد أن تسمع على الفور جواباً على هيئة سؤال : **اتعجباً وسؤالاً** ؟، أفلا تريني وأنا أجاذبك أطراف الحديث، فأنا إنسان أمتلك كل مقومات الحياة، وقد غاب عن باله أن الحياة التي نعنيها ويعنيها كل حي، هي العطاء الدائم، هي العمل الدؤوب الذي لا يتسلل إليه الكلل، هي الإيمان الحي الذي لا ينضب معينه، هي البذل والتضحية، هي الحب بلا حدود.

وهذا ما يغيب عن بال الكثيرين. فمن لا يجد الحب مكاناً في قلبه، لا يجد له مكاناً في عالم الأحياء. والآن إطرحي سؤالك أيتها المجدلية على ذياك الثري الذي لا يعي أن كل ما يمتلكه مصدره الله، فلا بد أنه سيسخر منك ويتهمك بالجنون، وإن رئف بك فبالبلاهة فقط، وإذا ما تنازل وأجاب فسوف يقول لك : " **هل أنت غريبة عن أورشليم** "؟، إلا تشاهدين فخامة قصوري وشموخها ألم تسمعي بما أمتلكه من عمارات تناطح السحاب ؟ ألم تطرق مسمعك أنباء المآدب الدسمة التي أقيمها بين الفينة والأخرى لكبار الأعيان وعلية القوم ؟ وقد طبقت شهرتي الأفاق فلا يمر يوم إلا وتتناول الصحف أخباري، ويشار إليَّ بالبنان أينما وجدت وحيثما جلست. بعد كل هذا تسألينني هذا السؤال التافه ؟ فما كان منها إلا أن تجيب : أن سؤالي ليس بتافه أيها السيد الموقر، ربما يكون كذلك في نظرك ونظر الذين لا يفقهون المعنى الحقيقي للحياة، فكل ما ذكرته لا يمثل أياً من مقومات الحياة الحقة فهو مجرد فقاعات بل قشور الحياة وشبحها فقط. لأن الحياة الحقة تتمثل، إلى جانب ما ذكرناه، بشعور الإنسان بمشاعر الآخرين، وإيمانه بأنه لا فرق بينه وبين ذياك المعوز الفقير أو الكسيح، فالفارق الوحيد بين هذا أو ذاك الإنسان، هو البعد عن الله والقرب منه. أفلست أذن ميتاً عائشاً في عالم الأحياء، ولا تمتلك شيئاً من مقومات الحياة الحقيقية ؟ ونحن بدورنا نقول لهذا السيد الموقر وأمثاله، تكون حياً أن أدركت أنك فقط مؤتمن على أموالك فتنفقها في الطرق المرضية عند الله والناس، كأن تفتح المؤسسات

الخيرية والإنسانية التي تعمل على تخفيف وطأة العوز والجوع عن كاهل من ليس بوسعه الحصول على قوت يومه، أو تمد يدك لتنهض كسيحاً مستنجداً أو تدعم المشاريع الأيلة إلى خلاص النفوس، أو إن أنت أحببت أخاك الإنسان من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل ذهنك، وأقمت مآدب للفقراء والمساكين الذين يعجزون عن مجازاتك بالمثل، ليكون لك مكافأة عند الله عملاً بقول الرب : " **إذا صنعت غداء أو عشاء فلا تدع أصدقاءك ولا أخوتك ولا أقرباءك ولا الجيران الأغنياء لئلا يدعوك هم أيضاً فتكون لك مكافأة، بل إذا صنعت ضيافة فأدْعُ المساكين الجدّع والعرج والعمي فيكون لك الطوبى إذ ليس لهم حتى يكافؤك، لأنك تكافئ في قيامة الأبرار** " (لو 14: 12-14)، وهذه إحدى العلامات البارزة للإنسان الحي.

نعود إلى المجدلية ونسألها أن تنتقل إلى الذين يصبّون كل اهتماماتهم على ما في الأرض، وقد تناسوا أنهم غرسة في كرم الرب، وإن كل غصن فيه لا يأتي بثمر يقطع ويطرح خارجاً، لتطرح على أحدهم سؤالها الغريب، فلا بد أن ينظر إليها شزراً ويظن أنها تسخر منه - وبعض الظن أثم - فيجيب، أن حيوان البر وطير السماء بإمكانه أن يميز بأني حي، فما بالك تطرحين عليّ هذا السؤال، اللهم إلا إذا كنتِ أقل فطنة وذكاء منها، فنقول لهذا الشخص وأمثاله، إن كنتم أحياء حقاً فلا بد أن تعطوا ما لله لله ومن ثم ما لقيصر لقيصر. ومرة أخرى نكلف المجدلية أن تطرح سؤالها على قوم جلّ همهم نشر شبح الموت بين البشر

وإحالة عالم الأحياء إلى عالم الأموات الأحياء، أناس لا هم لهم سوى استعباد البشر وإذلالهم والتحكم بمصائرهم وسلب حرياتهم، تنتعش نفوسهم المريضة بتألم الآخرين وترتاح ضمائرهم بشقاء الغير، ويطيرون فرحاً كلما شاهدوا إنساناً يترنح تحت وطأة ما ألحقوه به من الظلم والطغيان، وهنا نقول للمجدلية، ذكريهم بأنهم أموات فلا بد من العودة إلى الرشاد إن أرادوا الحياة، فهم أموات لأنهم أغلقوا مسامعهم عن أنين البائسين وصرخات الأطفال الذين أنتزعوا اللقمة من أفواههم أو غمسوها بالمر والعلقم. فهم أعظم جرماً من أولئك الذين غمسوا الإسفنجة بالمرارة وقدموها إلى يسوع. ذكريهم ليقتسموا الخبز مع هؤلاء إن أرادوا الحياة، ذكريهم بأن من يقتل الآخرين دون مبرر وبأية صورة كانت هم أموات بين الأحياء، ذكريهم بأن من يشاؤون أن يحصوا في عداد الأحياء عليهم أن يمهدوا السبيل أمام العميان فيردموا ما فيه من الحفر ويزيلوا عنه المطبات والمزالق ويقودوهم بأنفسهم إلى السبيل السوي الأمن، لا أن يوسعوا الحفر في طريقهم فيقضون فيها، أرشديهم أن يحيوا ويثبتوا في المسيح الحياة، إن هم شاءوا أن يحيوا في عالم الأحياء إلى الأبد، فمن فقد المسيح فقد الحياة.

دردشـــة مـــع فـــنجان قهوة

مع أن علاقتي بفنجان القهوة ليست على ما يرام إلا أنني أجالسه بين حين وآخر، لا لكي أحتسيه أو أتـذوق طعمـه، بـل لكـي أسمـع منـه بعض حكاياته الظريفـة الطريفة، بـل قُـل المضحكـة المبكيـة، فهـو بحكـم موقعه الاجتماعي، يمتلك من هـذه الحكايـات مـا لا يمتلكـه غـيره، نظـراً لتواجـده في كـل مناسبة سارة كـانت أم اليمـة وفي مجتمعـات متباينـة اجتماعياً وحضارياً، تداعبه مختلف الأنامل الخشنة منها والرقيقـة، الشـابة منها أو تلك التي أكل الدهـر عليهـا وشـرب حيـث يجتمـع النـاس حولـه بتباين شرائحهم وطبقاتهم، ومن هنا تتنوع الأحاديث التي تتبادل حولـه، فقد تختلف وجهات نظر الذيـن يجمعهـم هـذا الفنجـان بمناسـبة واحـدة، فيرتاح البعض لما يُطرح من مواضيع، وينفر منها البعـض الآخـر، يحبذهـا

نفر وينتقدها آخر، أما هو فلا يهمه هذا أو ذاك، إنما يهمه السماع فقط، ويا ليتنا نسمع أكثر مما نتكلم بثرثرة، لقد أبديت له رغبتي في جلسة منفردة تكون له ملء الحرية في الحديث لطالما أن الحديث بيني وبينه فقط، كما نقول لبعضنا البعض عندما نتحدث عن شيء نود كتمانه، ولكن سرعان ما ينطلق من هذا الطوق فينتشر بسرعة البرق وأكبر برهان ما أفعله الآن. علني اسمع منه بعض ما يدور بين جلساته، فاستجاب وقال: لقد اجتمع حولي يوماً ما نخبة من وجوه المجتمع فأخذوا يتجاذبون أطراف الحديث، وأن الشواذ في تلك الجلسة، هو الصمت الذي كان يخيم على الجميع وكان على رؤوسهم الطير، إذا ما تكلّم أحدهم أو إحداهن بالحري، فأخذت (أم...) المبادرة بالحديث واسترسلت و لم تتوقف إلا بعد لأي، ولكن ومع كل ذكائي لم أفهم مما قالت شيئاً، إذ لم يكن سوى ثرثرة في ثرثرة، لا يعرف " كوعه من بوعه " فقد كانت تنتقل من موضوع إلى آخر لا يربطهما رابط، وأنا شخصياً لم أُعِرها اهتماماً لأن الكلام كان من قبيل " لا يقدم ولا يؤخر " بيد أن ما حز بنفسي كلام (أم...)، التي ضمّنت ثرثرتها الكثير من الانتقاد غير المبرر لهذا أو ذاك، ويبدو أن تلك هي هوايتها المفضلة، فقد وزعت التهم " بسخاء "، فألصقت الكذب بفلانة وعدم الأمانة بأخرى، ووصمت غيرها بسوء السلوك والاستهانة بالقيم الاجتماعية والأخلاقية، وهكذا لم تبقَ شيئاً قبيحاً إلا ووصمت به هذه أو تلك، ولم يبقَ من الذين عملوا الصالحات سواها والمشاركين في الجلسة، وأنا واثق بأنها في مجلس آخر

من مجالس زملائـي الفنـاجين تقـدح بـأولئك الحـاضرين في جلسـتي ولـو أعطيتُ لساناً وكان لي الجرأة الكافية لقلت لهـا " **أخرجـي أولاً الخشـبة من عينك لكي تبصري جيداً أن تخرجي القـذى مـن عـين الآخريـن** "، وهنا كانت لي مداخلة قصيرة فقلـت : ليسـوا بقلـة أولئـك الذيـن يـرون أنفسهم أرفع وأفضل من غيرهم غـروراً منهـم ليس إلا، وهـم يدركـون تماماً أنهم أقل شأناً وأدنى مكانة وأشح عطاءاً من أولئك، لكنهم يحاولون إظهار أنفسهم وكأنهم رجال الساعة، أما غيرهم فأغبياء لا يفقهون من شؤون الحياة شيئاً، لا بل يحـاولون النيـل مـن سمعتهـم وتحطيـم كرامتهـم وكأن الكرامة حكرٌ عليهم، ثم استأنف الفنجان حديثه ليذكِّر بما تحدثت به (أم...)، وقد ارتدت زيّاً جميلاً ملفتاً للنظـر، فـأنطلقت بـالحديث عـن الأزياء المستوردة وأسعارها " البخسة جداً "، فقد اشترت بالأمس فستاناً من آخر صرعة " يجنن "، بمئة وخمسـين ألـف دينـار فقـط، ثـم صنّفـت الفساتين واي منها يصلح للمناسبة الفلانيـة واي لغيرهـا وكـأن الإنسـان خلق ليتبـارى في مـا يـأكل ويشـرب ويلبس، وكـم تمنيـت أن أُذكِّرهـا وأمثالها في تلك اللحظة بقول السيد المسيح الذي سمعته من أحد الجلسـاء الأتقياء " **تأملوا زنابق الحقل كيـف تنمـو، لا تغـزل ولا تتعـب، أقـول لكـم ولا سـليمان في كـل مجـده لبـس مثـل واحـدة منهـا.. يـا قليلـي الإيمان** "، وكذلك بما قال الرسـول بولـس عـن النسـاء اللواتـي يجـب أن يزيّن ذواتهن بلباس الحشمة مع ورع وتعقل لا بظفائر أو ذهـب أو لآلـئ أو ملابس غالية الثمـن (1 تم 2: 9). ثـم انـبرت (أم...)، لتتحـدث عـن

روعة وفخامة نيشان قريبتها التي برزت في كل الحفلات، لا سيما بكثرة الأصفر الرنان الذي قُدِّم لها بالمناسبة، فوصفت كل قطعة بتباه، وكأن الحلي هي التي تزين الإنسان وهي مقياس لشخصيته أو مكانته، أما مآتيه القيّمة وأعماله الإنسانية، وخدماته الجلّى في مختلف جوانب الحياة وأخلاقه الرفيعة، هذه كلها ليست بشيء في نظرها أمام الزينة الخارجية، وقد غاب عن بالها أن هذا يشكل عائقاً كبيراً في سبيل تكوين أسر مبنية على قواعد صحيحة راسخة سداها المحبة ولحمتها الكفاح المشترك في معترك الحياة، ولم تتذكر قول الرسول بطرس : " **لا تكن زينتكن الخارجية في الملابس، بل داخلية بما في باطن القلب من زينة نفس وديعة مطمئنة لا تفسد وثمنها عند الله عظيم** "، ثم سرى الحديث عن حفلات الزواج الرائعة التي لا تضاهى والتي أقامتها عائلة فلان أو فلان، فقد أقيمت في أرقى القاعات وضمت أبرز شخصيات المجتمع ولم تنته حتى ساعة متأخرة من الليل، ولكن قبل أن يسدل الستار على هذه الجلسة " البالغة الأهمية " انبرت إحدى الحاضرات تلوح على محياها أمائر الفطنة والوقار وقد خطّ الشيب رأسها فأضفى على جمال خلقها جمالاً.

وقالت : لنتأمل قليلاً بما طرح من أحاديث لنرّ الحصيلة النهائية لها، لا شيء بالطبع. تُرى ألم يحذر السيد المسيح من الثرثرة الباطلة وإطالة الكلام الذي لا جدوى منه، فإن جميع ما سمعناه ما هو سوى قبض الريح، لِمَ كل هذا الافتخار بأمور هي أشبه بعشب الحقل يظهر اليوم

ليذبل غـداً ؟ أنـا لا أنكـر حـق الإنسـان بـالتمتع بمباهج الحيـاة، بحـدود المعقول، غير أن الإسراف غير المبرر مرفوض، أليس من الأفضـل واللائـق أن يخصص جانب مما يبذر دون تروٍ لمن هم بحاجـة ماسـة إليـه، ألم يحثنـا الرب على مد يد العون لأخوتنا في الإنسانية لانتشـالهم مـن براثـن الفقـر والحاجة، لِمَ لا نتخذ كتاب الله المقدس نبراساً في شؤوننا الحياتيـة ؟ فلـو فعلنا ذلك لتحاشينا مثل هذه الأحاديث الفجـة والسـخيفة الـتي لا طـائل تحتها، لنتذكر أمنا العذراء مريم وهـي في زيـارة نسـيبتها أليصابـات، أيـة أحاديث شيقة تبادلتا تنعش الروح وترفع الأذهان إلى الأجواء اللامتناهية، لم تخرج تلك الأحاديث عـن إطـار تمجيـد اسـم الـرب والمحبـة والسـلام، فلنتخذها إذن قدوة لنا كلما جمعتنا الفرصة هنا أو هناك.

الأسرة المسيحية والمجتمع

الأسرة نواة المجتمع وعماده، والمجتمع نواة الأمة وعمادها، وعليه تكون الأسرة العماد الأساس الذي ترتكز عليه أمم العالم كافة، فإذا كانت الأسرة مكتملة لعناصرها الحيوية، متماسكة، جاءت المجتمعات سليمة قويمة صحيحة البُنى والبنيان، يسودها السلام وتربط المحبة القلوب. والأسرة أقدم مؤسسة عرفها تاريخ البشرية، وقد أضفى عليها صفة القداسة التي ظهرت جلية في الأسرة المسيحية، ومن هنا عليها أن تكون شاهدة لعمل الله فيها، يسودها مناخ يتماشى وإرادة الله، وينمو فيها الفرد كما تنمو البذرة الصالحة المزروعة في أرض خصبة، ويتحقق في أفرادها أسمى ما يريده الله في الفرد المسيحي، تتجلى فيها الأبوة الحانية وتتجسد الأمومة المثالية، والبنوة الصالحة، لكي تعطي صورة صادقة عن

الأسرة المسيحية، ويكون البيت الذي تعيش فيه هذه الأسرة بمثابة فردوس أرضي لا بل كنيسة مصغرة، كما كانت أسرة اكيلا وبرسكيلا (رو 16)، ولما كانت رسالة الكنيسة استمرارية لرسالة مؤسسها يسوع، فيما يخص نقل القيم الروحية والمثل الأخلاقية من جيل إلى آخر، كذلك يجب أن تكون رسالة الأسرة المسيحية في المجتمع الذي تعيشه.

وحيث أن الأسرة المسيحية تتكون نتيجة الارتباط المقدس بين مؤمن ومؤمنة، أي خلال سر الزواج المقدس، استوجب أن يقوم هذا الزواج على أسس قويمة عقلانية تتماشى ومفهوم قدسية الزواج المسيحي، وعلى اعتبار أنه سيكون كنيسة مصغرة. من هذا المنطلق ينبغي أن يفهم الزواج المسيحي، ومن هنا استوجب توجيه المُقبلين على الزواج أن ينظروا إليه بهذا المنظار الإيماني، وليس بمنظار مادي اجتماعي بحت، لكي تظهر فيهم حياة المسيح فتكون الأسر التي يؤسسونها نموذجاً حياً للخُلق المسيحية وتعاليم الإنجيل المقدس، ليدرك من خلالها الذين هم من الخارج ماهية الديانة المسيحية، ويعرفوا شخص المسيح مؤسس هذه الديانة الذي أعطى أهمية قصوى للأسرة، فإلى جانب مباركته إياها بحضوره عرس قانا الجليل، وجعله الفرح مستمراً في حين كان مهدداً بالتنغيص نظراً لنفاذ الخمر، كانت له زيارات خاصة إلى بعض الأسر المذكورة في الإنجيل، كما أضفى كرامة أفضل على الأسرة حينما قال : " **يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته** " (متى 19). وهذا يعني أن يعمل كل من الزوجين على إسعاد الطرف الآخر، لأن الرجل أصبح

مسؤولاً أمام الله تجاه زوجته، فيرعاها ويخلص لها، وعلى المرأة أن تبادل بدورها زوجها الحب والأمانة والإخلاص، من جهة ثانية أكد الرب يسوع رعايته للأسرة بتعليمه بوحدانية الزيجة المسيحية الذي يمنح كرامة أعظم للمرأة، وذلك استناداً إلى أن الله منذ البدء لم يخلق سوى امرأة واحدة للرجل وقد منح بركته للزوجين ليملأا الأرض.

ومن أهم عوامل نجاح الأسرة وسعادتها، هو الانسجام التام والتوافق بين الزوجين، ولعل من أبرز مكونات هذا التوافق هو الوعي بقدسية الزواج المسيحي لأن هذا الوعي كفيل بخلق جو من التفاهم الفكري والنفسي لدى الزوجين، وبخاصة إذا كانا على مستوى واحد من الثقافة والوعي، وسوف ينعكس التوافق الزوجي مستقبلاً على الأبناء الذين سيحاولون أن يعيشوا مع شركاء حياتهم في جو مفعم بالحب والسلام والتوافق الزوجي. ومن العوامل الأخرى التي تؤثر في خلق مناخ الانسجام الأسري، المناقشة الصريحة في كل القضايا التي تعترض الحياة الزوجية من أجل الوصول إلى حل يطمئن إليه الطرفان.

ومن مهام الأسرة الأساسية، أن يكون الوالدان آباء ومعلمين يغمرون الأولاد بالحب والحنان، كي لا يبحثوا عنها في أمكنة أخرى، الأمر الذي قد يؤدي بهم إلى التشرد، فتتفكك أواصر الأسرة وقد تفنى. كما عليهم أن يرشدوا الأبناء إلى ما هو صحيح ومجدٍ في حياتهم، ويخلقوا فيهم روح المحبة لله والوالدين وللجميع، ويبثوا في نفوسهم الروح الإنسانية. ويبعثوا فيهم روح الإيمان لتتأصل في قلوبهم، وينشروا

فيهم الوعي الديني بمختلف الوسائل المتاحة، كاصطحابهم إلى الكنائس للمشاركة في الحفلات الدينية، وتزويدهم بما يلائم إدراكهم من الكتب الدينية. وأخيراً الإبقاء على جو الأسرة نقياً خالياً من المشاحنات التي تولد عقداً نفسية لدى الأطفال. ومثلما يلعب الوالدان دوراً هاماً في حياة الأسرة، كذلك الأسرة بدورها تلعب دوراً خطيراً في المجتمع. وأن ديمومة نظام المجتمع يعتمد بالدرجة الأولى على نظام الأسرة كما يقول علماء المجتمع. وللأسرة المسيحية خصوصيتها، وعليها أن تترك بصماتها على المجتمع، وتلعب دورها الاصلاحي فيه إذا ما دخله فساد.

وفي ما يخص المساواة ولاسيما في المجتمع المعاصر، فإن المسيحية خير داعية للمساواة بين الرجل والمرأة، لأن المساواة من أهم خصائص المجتمع السليم المعاصر، مع الملاحظة أن أعمالاً كثيرة يختص بها الرجل دون المرأة والعكس بالعكس. وللأسرة المسيحية موقف من التحولات الاجتماعية المعاصرة، إذ تنظر إليها باهتمام بالغ، لأن التقدم في التحولات الاقتصادية والتكنولوجية يقتضي تغييراً يتلائم وهذا التقدم، ولكن يجب أن يكون هذا التغيير ضمن سلوكية المجتمع الذي تعيشه الأسرة المسيحية الشرقية وفي نطاق حضارته، فالتغيير في المجتمع الشرقي يجب أن يتم ضمن التركيبة الشرقية والمفاهيم الشرقية للسلوك والقيم الأخلاقية لا غير...

أنبقى أطفالاً ؟

لو طُرِحَ هذا السؤال على جمهور من الناس، لجاء الجواب، ذلك أفضل، لأن الطفل يعيش في عالم خاص، تملأه السعادة والبهجة، بعيداً عن هموم الحياة ومشاكلها، وكل ما يشعر به الطفل هو حنو الأبوة ودفء الأمومة، فهو لا يدرك قساوة تجارب الحياة ومرارة منغصاتها التي تحيط بالإنسان وبخاصة المعاصر من كل الجوانب، فالطفل، ونظراً لضيق دائرة تفكيره أو استيعابه للأمور، يشعر بالمتعة رغم كل ما يقع أمام ناظريه من أحداث مؤلمة أو ما يحدث في العالم من اضطرابات ومنازعات يحسب لها البالغ ألف حساب وحساب، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن الطفل معروف بالبراءة والطهر نظراً لنقاء قلبه وبساطة تفكيره. كما لا يخفى أن الرب يسوع دعا للتمثل ببراءة الأطفال وخلو

قلوبهم من كل غش ومكر وخبث، وقد جعل الرب هذه الكيفية سبيلاً للدخول إلى ملكوت الله الذي لا يدخله سوى الصلحاء والأبرار، فمن هذه الناحية يتمنى كل إنسان أُعطي قدراً من الحكمة والفهم، أن يبقى عائشاً في عالم الأطفال، ولكن هل يدرك المرء كل ما يتمناه ؟ وهل بمقدوره أن يوقف سنة الحياة في نموه غير الإرادي لكي لا يخرج من عالم الأطفال إلى عالم البالغين عالم الشقاء ؟ كلا طبعاً، ذلك أن النمو أمر طبيعي ولا بد لمن يعمر أن يمر بجميع مراحل الحياة شاء أم أبى، الطفولة، الفتوة، الشبوبية، الكهولة، فالشيخوخة، فلا إرادة له في ذلك، كما لم تكن له إرادة في المجيء إلى هذه الحياة، ولكن هناك نوعٌ آخر من الطفولة، للإنسان إرادة في إنمائها أو إبقائها تتراوح في مكانها لا بل عليه، وكمسيحي خاصة، أن ينميها ويغذيها باستمرار، حتى يصل إلى ملء قامة المسيح، ألا وهي الطفولة في الحياة الروحية، وهي مدار حديثنا هنا.

وأول ما نعنيه بالطفولة من الناحية الروحية، هو ضيق أفق معرفة الإنسان في الشؤون الدينية والروحية، كضيق فكر الطفل في الشؤون الدنيوية، نظراً لعدم اكتساب الخلفية الكافية من هذه الناحية الهامة جداً في حياته، وعدم وقوفه حتى على أبسط أسرار المسيحية، الأمر الذي يعبر عن جهله ضرورة النمو الروحي الذي من شأنه أن يحرر الإنسان من قيود الحياة المادية الصارمة، ومن المعروف أن الطفل يخدع بسهولة ولأتفه المغريات دون أن يفكر بعواقب الخدعة، وهكذا الأمر بالنسبة إلى من

يبقى طفلاً في الروح. في رسالته إلى أهل أفسس ينبه الرسول بولس إلى خطورة البقاء في حالة الطفولة الروحية فيقول : " **فلا نبقى أطفالاً تتقاذفهم أمواج المذاهب وتميل بهم كل ريح فيخدعهم الناس ويقودونهم بالحيلة إلى الضلال، بل نعلن الحق في المحبة فننمو في كل شيء نحو المسيح الذي هو الرأس** " (أف 4) أن الحق الذي يُشير إليه الرسول هو المسيح، وعلينا أن ننمو في هذا الحق، أي أن نعرفه بصورة متكاملة معرفة حقة عميقة الأغوار لا سطحية ضحلة، وذلك عبر فاعلية روحه القدوس الذي يجب أن يملأنا لتنمو فينا قوته، فيرشدنا إلى هذا الحق، " **فهو يرشدكم إلى جميع الحق** " (يو 16)، فلنلتزم بهذا الحق، والالتزام بالحق يعني أن نكون صادقين معه، ومع الآخرين، ناهجين نهجه القويم، وسالكين كما يحق للدعوة التي دعينا إليها (أف 4) إلى درجة أن تعكس أعمالنا صورة المسيح الحقيقية على العالم. لكي يتمجد بنا الله أبونا.

فالرسول يرى أنه من الضرورة أن تنمو روحياً وبصورة جدية وقوية من أجل نضوج إدراكنا، لئلا نكون فريسة سائغة لخداع الذين لا شأن لهم سوى القيادة إلى الضلال ومن ثم إلى وهدة الهلاك أولئك الذين يطوفون البحر والبر ليكسبوا واحداً إلى ديانتهم، فإذا نجحوا جعلوه يستحق جهنم ضعف ما يستحقون (متى 23)، قد لا نستطيع أن نتحاشى مثل هذا الموقف إذا ما بقينا أطفالاً من جهة الإيمان ومثلما أن الأطفال محاطون بمخاطر متنوعة الأمر الذي يستوجب رعايتهم والسهر عليهم والاهتمام بنموهم ليصبحوا أشداء وأعني بعيدين عن مخاطر الطفولة تلك،

هكذا الأمر بالنسبة إلى المؤمن الذي يجب أن ينمي طفولته الروحية وبعبارة أخرى إيمانه، لكي يتعدى مرحلة التكلم كطفل، أو التفكير أو الإدراك كطفل، فيغدو رجلاً يترك ما هو للأطفال بحسب توجيه الرسول بولس (1 كو 14: 20)، ولكي ننمو بالروح، علينا قبل كل شيء أن نعي المعنى الحقيقي للنمو الروحي، فهذا لا يعني أن نحصر ذواتنا في أقفاص خاصة لا تسمح لنا بالتحرك ذات اليمين وذات الشمال، لأن النمو الروحي كما نوهنا أعلاه، هو حالة التحرر من قيود الحياة المادية، بل هو حقن الذات بالنعمة الإلهية التي تفتح أمام المؤمن آفاقاً جديدة في معرفة الله، المعرفة المطلوبة بموجب ما قدمها لنا الرب يسوع، أيجدر بنا إذاً أن نبقى أطفالاً لا نفقه شيئاً عن الله ابينا سوى كلمة " الله "، فقط لا كما يفقه الطفل عن أبيه سوى كلمة " بابا " فهو لا يدرك حبه وتضحيته من أجله كما لا يدرك عمق عطف الأم الذي يفوق الوصف، ألا يجدر بنا أن نسمع نصح الرسول بطرس بأن ننمو في النعمة وفي معرفة ربنا ومخلصنا يسوع المسيح (2 بط 3: 17) كما يحذو الرسول بولس حذوه فيقول : **" إننا نصلي من أ جلكم.. لكي تنموا في معرفة الله متقوين بكل ما في قدرته المجيدة من قوة "** (كو 1: 9).

وبعد، هل يجوز للمؤمن أن يبقى طفلاً في إيمانه في حياته الروحية فيسهل اقتناصه وإفساد إيمانه بالذي عاش ومات من أجله، أم ينمي إيمانه وينعشه بالنفحات الروحية التي تسمو إلى العلى، والتي أودعها يسوع بين طيات إنجيله المقدس ؟

السلام.. شهيد العصر

يوم ميلاد المسيح هو يوم مولد السلام بكل ما تحمله هذه الكلمة من مضامين إنسانية وخلقية واجتماعية، أبدت السماء ذلك بهتافها (على الأرض السلام) وكأني بها تقول للبشر : لقد أتاكم رب السلام لينشر سلامه بينكم على أسس قويمة مستوحاة من روح المبادئ السماوية، لتنعموا بحياة، تسخى بالعطاء وتزخر بالسعادة والرفاه. ذلك أن سلام المسيح ليس مجرد كلمة تتداولها الألسن وتمضغها ثم تهضمها فتتلاشى كما هي الحال لدى البشر، بل هو سلام مرتبط بـالله مباشرة لكونه صادراً عنه وقد وعد به للناس، وهو صادق في وعوده وكلمته لا تسقط على الأرض، لذا فالسلام الذي جاء به المسيح هو السلام الثابت الذي يركن إليه، لأنه غرس أصوله في القلوب وليس في المسامع

والأفواه، ولأنه أسسه على عنصرين هامين هما الحب والعدل الذين بدونهما لا سلام على الأرض. وقد أقترن الحب بحياة المسيح رئيس السلام، بأقوى مفاعيله إلى درجة أنه قاده إلى بذل ذاته من أجل سلام العالم، بهذا الحب نقلنا يسوع من الموت إلى الحياة، وبتعبير آخر، من حياة تسودها حالة من الفوضى والاضطراب وعدم الاستقرار النفسي، إلى حياة السلام والاستقرار، ولأن المحبة لا تسقط (1 كور 13) فالسلام النابع منها هو سلام دائم لا تطاله الغيلة. وهو السلام الشامل الذي تذوب أمامه كل الاعتبارات الدنيوية لكونه سلاماً إلهياً، وليس عند الله اعتبارات من هذا القبيل، فالبشر عنده سواسية لا امتياز لأحد على الآخر إلا بقوة الإيمان والتقوى وقداسة السيرة وغزارة العطاء. فلكي يسود السلام إذن توجب أن تسود المحبة أولاً ، لله والإنسان، فمن لا يكن الحب للإنسان لا يصدّق حبه لله. ومن يحاول أن يضع الحواجز بين إنسان وآخر، أو شعب وآخر، أو أمة وأخرى بقصد الفرقة والتجزئة، يدلل على أن قلبه خال من الحب، ومن خلا قلبه من الحب، كان بعيداً عن الله وعن إرادته بسعادة الناس وسلامهم.

والعنصر الآخر الذي يرتكز عليه السلام هو العدل. فبفضل العدل الاجتماعي الذي نادى به المسيح والتزمت به الكنيسة الأولى ومارسته في حياتها، ساد السلام التام بين أعضائها وامتدت بينهم جسور المحبة والإخوة حتى غدوا أسرة واحدة، لواحدهم ما للآخر من حقوق وواجبات " **وكان كل شيء عندهم مشتركاً** " (أع 4: 32)، وبذلك

برهنت المسيحية على أن العدل هو عنصر أساس للسلام الحق، ولكن ما يؤسف له اليوم، هو فقدان التوازن الاجتماعي والاقتصادي بين الشعوب، بسبب فقدان العدل. فالكبير يحاول هضم حقوق الصغير وابتلاعه كما تفعل السمكة الكبيرة بالصغيرة، في حين أ ن الله والضمير وجميع ذوي الإرادة الحسنة يقرون بحق كل إنسان بالعيش بسلام، لأن السلام نعمة من الله يهبها لجميع البشر بدون استثناء، و لم يعد إنسان اليوم يجهل أن له حقاً في العيش بحرية وسلام كأي إنسان آخر.

ونظراً لفقدان العنصرين الأساسيين للسلام، المحبة والعدل، نرى أن السلام يسقط شهيداً ليس في (القدس وحدها) بل في معظم بقاع العالم. والانكى أنه يستشهد على أيدي أناس ينادون به كذباً وأفكاً، ينادون بالظاهر وينسفونه من الداخل، ينادون بالعدل من جهة، ويدرسونه بأقدامهم من جهة أخرى، ينادون بحق الإنسان بحياة كريمة ويسلبون هذا الحق بشتى الوسائل القذرة كالحصار مثلاً، يعقدون معاهدات سلام ومواثيق لكنهم يخترقونها متى شاءوا. إن الكتاب المقدس يحذر من نوع السلام الذي ينادي به مثل هؤلاء إذ يقول : " **لا تلتمس سلامهم ولا خيرهم** " (تث 23: 6)، لأنهم ينهشون (الناس) بأسنانهم وينادون بالسلام (ميخا 3: 5). فالسلام الحقيقي إذن لا يقوم على أساس المعاهدات والاتفاقات والمواثيق، لأنها في معظمها، لا تتعدى كونها حبراً على ورق، بل هو ذاك الذي أتى به المسيح وزرعه في ضمائر البشر، وقد صرح بأن السلام الذي نادى به هو غير سلام العالم " **سلامي أعطيكم، ليس كما يعطي العالم أعطيكم أنا** " (يو 14: 27).

باطل... يجري على الأرض

صورة واقعية مؤسفة يعيشها البشر على الأرض، يقدمها كـاتب سفر الجامعة الحكيم، وهو ينظر بعين ثاقبة ما جريات الإحداث في عالمنا، حيث يرى فيها (الباطل) مجسداً في حيـاة الشـر، يمـلأ كـل ثناياهـا وكـل زواياها. ولكن (للباطل) عنده مفهومين، الأول يذكرنا ببطلان كل شيء تحت الشـمس وزوالـه إن عـاجلاً أم آجـلاً. فكـل في الدنيـا، في نظـره، لا يتعدى قبض الريح، وكأني به بقوله هـذا ينبه المتهـالكين وراء حطام الدنيا كي يعتدلوا، ويسدي نصحه إليهـم لتكـون عيونهـم في رؤوسـهم، فلا يسلكون في الظلمة، ذلك ان كثيرين يفتقـرون إلى عيـون رؤوسـهم، لكونهم لا يمتلكون عيوناً لرؤية الحقيقة، بل فقط لبحث عن المزيد مما هو باطل وزائل. أما المفهوم الثاني (للباطل) وهو موضوع هذا الحديث، فهو نوع من الظلم واللاعدالة المتفشية على الأرض وفي مختلف المجتمعات.

فقد كان ولا يزال العديد من الطيبين والأبرار السالكين طرق الرب المستقيمة المكرسين حياتهم لله والخير ونفع الجميع، يعانون في حياتهم من جراء قساوة الظروف المحيطة بهم، يعانون من شظف العيش ومرارته، ومن البلايا المتنوعة والتجارب التي تعصر النفس عصراً. يحدث كل هذا على مرأى من الناس ومسمع، فيتساءلون، لماذا. وإزاء هذه الصورة، هناك صورة أخرى معاكسة تماماً، هي صورة عابثي الفساد في الأرض، الذين لهم في الباطل والابتزاز الباع الطويل، لا تجد الرحمة إلى قلوبهم سبيلاً، ولا تهز مشاعرهم فاجعه أليمة تحل بالآخرين على مرأى منهم، مهما كانت جسيمة وفادحة، وكأن شيئاً لم يحدث، يسرحون ويمرحون على مسرح الحياة وقلما تطالهم كارثة أو محنة، يتنعمون بالثروات الطائلة والخيرات الوفيرة، فيرى الناس ذلك ويتساءلون لماذا ؟. وصورة ثالثة مرتسمة أمام الجميع هي صورة الاعتداء والظلم. اعتداء القوي على الضعيف، المتكبر على الوديع، السيد على المسود، فيتساءل الناس أيضاً، أليس هذا باطلاً، لماذا ؟ ألا ينظر الله ما يحدث فيجري عدله ؟ أليس هو القائل أني أنتقم للمظلومين من الظالمين ؟ وكأني بالشاعر الموهوب ابن المعدني يُشير إلى هذا الواقع في قصيدته عن متناقضات الحياة إذ يقول (العالم شرير، أنه عالم المتناقضات، وضع فيه الشر أزاء الخير - فيه يمرح الغراب بين المروج والأنهار والغاب، أما العندليب ذو الصوت الرخيم فيسجن داخل القفص. فيه يوجد الشرير راحته، والبار تعاسته).

إن الله عادل ونصير العدل، وهو يرى ويسمع ويتطلع إلى أبسط الأمور والأعمال، لكنه طويل الأناة على الأشرار لقصد إلهي قد لا ندركه. وهنا يجدر بنا أن نتذكر قول أبينا إبراهيم للغني وهو في الجحيم " **أنك نلت نصيبك من الخيرات في حياتك، ونال لعازر نصيبه من البلايا وها هو الآن يتعزى هنا وأنت تتعذب** " (لو 16: 25). أن سر احتمال الأبرار يكمن في إيمانهم بأن (فاديهم حي) وهو يملأ كل حياتهم، وأنه لا يخرجهم خارجاً لطالما ربضوا في حظيرته، وأن مواعيده بالثواب العادل صادقه. وما هذا الذي ينتابهم سوى تعبير عن محبة الله لهم " **لأن من يحبه الله يؤدبه** " (عب 12: 6)، لأن هذا التأديب يزيد من صلاحهم وينقيهم مما قد تكون فيهم من شوائب كما تنقي النار الذهب.

ولعل السبب الأكثر تأثيراً على ما يجري على الأرض من باطل، هو الوهم المسيطر على عقول الغارقين في الباطل، من أن الله غائب لكونهم لا يبصرونه، وفاتهم أن الله مالئ السماء والأرض، ولو فتحوا أعين أذهانهم لنظروه، ولكن كيف ينظرون الله وبصائرهم مغمضة دونه. لذا فأنه تعالى ينزل بهم الضربة القاضية في الوقت المناسب، وقد نقل إلينا الكتاب المقدس أحداثاً يظهر فيها غضب الله ونقمته من الأشرار، ليس فقط على الصعيد الفردي، بل وعلى صعيد أمم وشعوب وبلدان أيضاً. فهذه مصر تضرب بعنف لتمردها على الله وظلمها لشعبه يومذاك، وتلك سادوم تباد عن بكرة أبيها لانغماسها في الرذيلة، ونينوى العظيمة يلحقها الدمار لهول شرورها. فالله أذن ليس بغافل عن الذين يستويهم الباطل...

بين الأمل والعمل

قرأت : أن أحدهم سأل فلاحاً شيخاً مجداً، قائلاً : هل تأمل ما هو أفضل ؟ فأجاب الفلاح كلا... أنما أنا أسعى وراء ذلك بصورة مستمرة. لقد صدق هذا الشيخ الجليل الذي لا يتنكر للأمل أو الرجاء، لكنه يرى أن السعي هو الذي يحقق الآمال ويتوج الرجاء بالنجاح، فالرجاء لا يتحقق إن لم يدعمه العمل الجاد والسعي الحثيث. فهل يمكن لامرئ أن يبلغ هدفاً وضعه نصب عينيه وهو قابع في داره لا يحرك ساكناً ؟ طبعا لا. فالرب يقول : اقرعوا، اطلبوا، اسألوا، لكي تنالوا، وهذه كلها أمور عملية، وقد يتذرع البعض في تبرير عدم تحركهم، بالمصاعب التي تعترض سبيل تحركهم، لكن هذا لا يمنع الحكيم من السعي يحدوه الأمل بتذليل تلك المصاعب، وهو مدرك أن التوقف عن

السعي هو فشل ذريع بحد ذاته. ترى متى كان جني العسل من دون أبر النحل ؟ فطريق النجاح غالباً ما يكون مليئاً بالمعوقات والمثبطات، لا بد من اجتيازها. وغير خاف أن التقدم الحضاري والازدهار العلمي والتقني الذي يشهده العالم المعاصر، لم يأتِ نتيجة لمجرد الأمل والرجاء، إنما هو ثمرة فكر عميق وسعي جاد وجهود جبارة. والمثابرة في العمل الحثيث في هذا المجال وذاك، بحيث يكمل الخلف ما بدا به السلف، وهكذا دواليك، وغالباً ما يكون الأمل حافزاً لبلوغ الهدف ولعدم الوقوع في الإحباط.

وأن نظرة سريعة نلقيها على انتشار المسيحية الهائل والمدهش والسريع دون استعمال أية وسيلة دنيوية، تتبلور أمامنا فكرة السعي والعمل، فما كانت لتنتشر بهذه السرعة الفائقة، رغم المعوقات والاضطهادات العنيفة، لمجرد أن يرجو الرسل ذلك، لكنها اكتسحت معاقل القيادات العظمى وقصور الملوك الفخمة، ونمت واتسعت رقعتها في زمن قياسي، بفضل السعي الحثيث وعمل الرسل الدؤوب وانتشارهم في كل مكان، مزودين فقط بقوة الله القدوس التي استمدوها يوم العنصرة، فلم يحملوا سيفاً أو حتى عصا عملاً بوصية معلمهم يسوع. بل آمنوا أن الله يعمل مع العاملين ويؤازر الساعين ويبارك المجدين.

ومن الملاحظ أن الكثيرين في مجتمعنا مصابون بمرض البرود عن السعي والعمل، غير مدركين أنهم والحالة هذه، أناس ضائعون، وأن من لا عمل له، لا بد للشيطان أن يجد له عملاً كما قيل، وأنه لا قيمة للإنسان الذي يعيش على هامش الحياة، أو عالة على الآخرين، إن كانت

ظروفه تسمح له بالسعي وراء عمل ولا يفعل. فهذا شاب مثلاً فارع الطول مفتول العضل، له من الصحة النصيب الأوفر، تراه وأمثاله قابعين في دورهم يمضون أوقاتهم بأمور تافهة لا طائل تحتها، أو تراهم يتسكعون في المقاهي والشوارع، في حين أنهم بأمس الحاجة، وإن كانوا أرباب عوائل، تراهم لا يعيرون كثير اهتمام إلى الحالة المزوية التي يعيشها أطفالهم، وكأن كل شيء يسير على ما يرام، وإذا نبهت أحدهم على خطئه هذا، يأتيك الجواب : أن المصير واحد بيني وبين من يكد ليل نهار فكلانا يموت على حد سواء وقد يتشبث البعض بقول الكتاب " **من يتكل على الله لا يخزى** " حيث يفسرون ذلك بالاتكالية، غير عالمين أن هذا لا يعني بأية صورة من الصور أن يقبع الإنسان في داره أو يتسكع في الحانات والمقاهي ويدعي بأنه متكل على الله الذي سيقيته كما يقيت طيور السماء، ويدثره كما يدثر زنابق الحقل بحلل براقة رائعة الجمال. ولو كان الأمر كذلك، إذن لما حث الله الإنسان على العمل، فمنذ البدء وضع الله الإنسان في الجنة ليعملها ويحفظها، (تك 2).

ترى إلا يحز هذا في النفوس ؟ والانكى، هناك من ينتظر معوقاً ما ليتذرع به ويبرر إهماله وتقاعسه عن السعي والعمل، بعكس الإنسان السوي الواعي الذي ما أعترضته عقبة قد تقعده عن العمل، ضاعف جهده من أجل التغلب عليها حتى يكتب له النصر. فالفرق أذن شاسع بين أن يعيش الإنسان بالأمل، وبين أن يكد ويسعى من أجل عيش كريم.

بين البصر والبصيرة

بين البصر والبصيرة بون شائع، إلا أنهما يعملان سوية أو على انفراد لصالح الإنسان، كل بحسب خصوصيته وفي ميادينه الخاصة، ويمدانه بالعون للتغلب على مصاعب منظورة أو غير منظورة، وجلّ ما يتعرض له من مشاكل اجتماعية أو نفسية وسواها، فلا استغناء عن أي منهما، لأن كليهما يرمزان إلى النور سواء نور العالم أم نور العقل. وليس من يجهل أهمية النور في حياته، العين نور الجسد أو سراجها (متى 6: 21)، أما سراج الروح فهو البصيرة. فمن فقد بصره عاش في ظلمة عاتمة قاسية، واستحالت حياته إلى ضنك وعناء، أما من فقد بصيرته آلت حياته إلى تعاسة وشقاء. فلا تخفى أذن أهمية البصر في حياة الناس، ففاقد البصر، فاقد الحياة بمفهومها العميق، باستثناء حالات خاصة

ونادرة، لا سيما تلك التي تقوم فيها البصيرة مقام البصر لدى غيابه، مع الاحتفاظ على خصوصيتها، علماً بأن خصوصية البصر تنحصر في رؤية الأمور الظاهرة فقط. فليس بمقدوره اختراق أي شيء لا ينظره، لا بل قد يخطئ التشخيص في كثير من الأحيان، فلا يرى الحقيقة كما هي أي في جوهرها لوجود ما يعكر صفوه.

من المعلوم أن آلية البصر هي العين، فصحته هي من صحة عينه التي بإمكانها أن تكشف ما لا يستطيع النور الطبيعي أن يكشفه، وترشد إلى السبل المستقيمة والأساليب الناجعة صوناً لصحة الإنسان الجسدية والروحية. يتحدث الإنجيل المقدس عن أعمى متسول معبّراً عن معاناته الشديدة ويأسه من جراء فقدان بصره، فإذ علم أن يسوع يجتاز من مكان تواجده، صرخ بأعلى صوته تعبيراً عن معاناته متحدياً الذين انتهروه ليسكت، رافعاً صراخه عالياً " **يا ابن داود ارحمني** " (مر 10: 48) أي أعطني بصراً. أنها أمنية غالية جداً، وليس مثل يسوع من يحقق الأماني الصالحة، فأعطاه البصر، فيسوع بعمله هذا قهر ظلمة الأعمى وبددها كما فعل مع غيره أيضاً.

والسؤال هنا، هل بإمكان الإنسان أن يقهر عوقه البصري ؟ نقول : يمكنه ذلك إذا كانت له بصيرة قوية يدرك كيف يستثمرها من جهة، ومن جهة أخرى إذا قرنها بإرادة قوية من شأنها أن تسهل لصاحبها أن يرى ما لا يمكن لأمثاله ممن ليست لهم مثل هذه الإرادة، أن يروه. ذلك أن الإرادة القوية تزيد من شدة قوة البصيرة التي تمكّن الأعمى

من تصور الحقائق المقدمة إليه بعكس الذين لهم عيون ولا يشاءون استثمار بصائرهم، فلا يعودون يرون ما تراه هذه العيون الأخرى، وقد يتعمدون أن لا يروا ما لا يريدون رؤيته، فينعت السيد المسيح مثل هذه العيون بأنها " شريرة " لا تريد أن تبصر الحقيقة، أو لا تريد أن ترى لدى الغير ما تريد أن يكون لها، فيضرب مثلاً يُستشف منه تأنيب لاذع لصاحب العين الشريرة أو الحسودة، يورد إنجيل متى أن صاحب كرم استأجر عمالاً في أوقات مختلفة من النهار، غير أنه أعطى الجميع الأجرة نفسها المتفق عليها مع الذين عملوا منذ الصباح، فظهرت العين الحاسدة باعتراض أحدهم على هذا التصرف، وكان الرد على الاعتراض " **أما يجوز لي أن أتصرف بمالي كيفما أريد أم أنت حسود لأني أنا كريم** "؟ (20: 15)

نعود إلى دور البصيرة وقوة إرادة الإنسان في التغلب على المحن وتذليل المصاعب التي يسببها فقدان نعمة البصر، لنرَ دورهما البارز في تسجيل البعض نجاحاً باهراً في مسيرة حياتهم، مستعينين بقوة بصائرهم التي أحالت شقاءهم نعيماً. فمن مشاهير من حُرم نعمة البصر الشاعر العربي المعروف أبا علاء المعري الشهير بـ " **رهين المحبسين** "، الأول، فقدان كلي للبصر، والثاني عدم تمكنه من التحرك. غير أن بصيرته كانت قوية جداً بحيث أنه يحفظ كل ما يسمعه، ويردده حيثما شاء أو طلب منه. كذلك الأديب العربي الكبير طه حسين الذي بفضل إرادته واستغلال ذكائه بشكل عقلاني استطاع ليس فقط أن يرتقي ذروة

الأدب بل أن يكون أبرز أدباء عصره في العالم العربي، لا بل ارتقى إلى سدة الوزارة في مصر، وقد قرأت عن شاب فرنسي يدعى جورج مكابيني، الذي بعد أن أنهى كلية الحقوق التحق بالجيش ففقد بصره في إحدى المعارك، إلا أنه لم ييأس بل تابع دراساته العليا، وعمل محامياً فاضت له شهرة واسعة في عالم المحاماة، وانتخب عضواً في البرلمان الفرنسي. وإلى جانب هذا فهو يكتب على الآلة الكاتبة ويركب الخيل ويسير في الطرق على دراجة هوائية. وفوق كل هذا أخذ يصنع تماثيل للبعض بمجرد تمرير يده على وجه جليسه، فاذهل الجميع باتقانه للتماثيل. وبذلك فاق الكثيرين ممن لهم عيون، مبرهناً على أن فقدان البصر ليس بشيء مقارنة بفقدان البصيرة، فإذا اعتبرت مثل هذه الأمور معجزة، فهي معجزة نعمة البصر والإرادة القوية مشتركة. وقد يكون هذا الشاب قد أصابه فشل في أي من الأعمال التي أنجزها، في بادئ الأمر، إلا أنه تغلب على الفشل كما هو شأن الكثيرين من عظام الرجال والمخترعين الذين أتوا أعمالاً جبارة، والذين لم يحالفهم الحظ سوى بعد تجارب فاشلة عدة، فاثبتوا أنهم رجال حقيقيون.

ومن سياق حديثنا عن البصر، وقفنا على بعض فاعلية البصيرة ودورها الهام في خلق أجواء سعيدة للإنسان، ويُستخلص من مجريات الحديث عن هذه الميزة الحيوية، أنها عنصر ثبته الله في الإنسان من أجل خيره وسعادته، فمن شأنها أن تفتح أمامه آفاقاً تقضي أن يحكّم عقله ويتمعن بدقة تامة كل أمر أو عمل لكي يتكلل بالنجاح. ومن هنا اقترنت هذه الميزة بالحكمة لتكون وإياها على مستوى واحد في رفع شأن

الإنسان وتقوية شخصيته وتهيئة السبل القويمة أمامه، فيتحاشى الأخطاء الجسيمة بتمييزه الطرق المعوجة فيتجاوز سلوكها فيطمئن بعيش رغيد سعيد بعيداً عن المخاوف والرعب التي هي نتيجة حتمية للسلوك في طرق منحرفة الملأى بالعثرات القاتلة.

جاء في سفر يشوع بن سيراخ " **كما يميز الذوق مختلف الأطعمة، هكذا يكشف الحكيم كلام الكذب** " (36: 19) والحكيم من كان ذا بصيرة وقادة تكشف الحقيقة فيتميز الحق عن الباطل والعدل عن الظلم وصالح الأمور عن طالحها، فيختار ما يصلح له وينفعه، ويتجنب ما يسئ إلى حياته وسمعته ويلوث كرامته. فلا يدخل مثلاً في خصومات لها نهاية غير محسود عليها، ولا يسهم في حبك مؤامرات ضد أخوته في الإنسانية، لأن مثل هذه التصرفات الشاذة لا يأتيها سوى الأحمق الذي أصاب العمى بصيرته فلم يعد يميز الخير عن الشر والنور عن الظلام، بل يتصور الشر وكأنه الخير كله. كل ذلك لأنه وضع الحكمة جانباً، فيما يشدد على أهميتها صاحب الأمثال " **اقتنِ الحكمة واقتن الفطنة** " (4: 5)، فهما الوسيلة المثلي لحفظ كرامة الإنسان وهديه إلى سواء السبيل وجادة الحق والصواب.

إن رفض الإصغاء إلى هُدى البصيرة يدعى، كما تعرّفه العامة، عمى البصيرة، والمصاب به يتخبط خبط عشواء أكثر مما يتخبط فاقد البصر، فيسقط في مآزق خطيرة قد تجرده من القيم، فيتمرد على الدين، على المذهب، على الوطن، على الكنيسة وما إلى ذلك. وهنا يصح فيه وأمثاله قول السيد المسيح له المجد " **ألكم أعين ولا تبصرون ولكم آذان ولا تسمعون ولا تذكرون** " (مر 8: 18).

العنصرية

كم من شعوب وأمم عانوا من تداعيات هذه الخلة غير الحميدة التي تعشش بين ثناياها الأحقاد القاتلة، فيذهب ضحيتها الآلاف من البشر دونما مبرر أو وازع من ضمير، بل لمجرد ثوران حقد دفين. ومن مفارقات الحياة أن نجد شخصاً أو فئة تنتقد وبشدة خلة سلبية وبالأخص العنصرية أو التعصب، وفي الوقت نفسه تكون هذه الخلة متجذرة في داخله، تظهر بقصد أو بصورة لا شعورية في مناسبة ما. أو لدى سنوح فرصة مواتية منقضة كانقضاض نسر على فريسة. وقد تلعب المجاملة غير المخلصة أو قل المشوبة بالرياء، دورها القذر في إخفاء ما تكنه نفوس هذه الفئة أو الشخص من نفور ضد فئة أخرى، لكن وكما جاء في الإنجيل المقدس " **ليس مكتوم لن يُستعلن ولا خفي لن يعرف** " (لو 12: 2)

فلا بد أن ينفض الغبار عن العنصرية إذا ما اقتضت الظروف ذلك ـ بحسب مفهوم العنصريين ـ فتشن حرب عشواء ضد هذه الفئة أو تلك، غير أنها في الواقع ضد الإنسانية جمعاء. يشهد بهذا التاريخ الذي يستعرض حياة شعوب ازدهرت ودأبت على العمل والعطاء، وإذا بها تباد عن بكرة أبيها بسبب العنصرية الغاشمة، وهذا ما حدث فعلاً في الولايات المتحدة في أواخر القرن التاسع عشر حيث مورست إبادة جماعية للسكان الأصليين على أثر إشاعات ملفقة بأنهم أناس متوحشون يأكلون لحم البشر وما إليها من إشاعات اتخذت ذريعة للفتك بأولئك المستضعفين الآمنين، والمؤمنين بوطنهم، قبل من قيل عنهم أنهم بلغوا شاواً بعيداً من الثقافة والحضارة. وهكذا قل عن العثمانيين الذين للسبب الذي خلقته عنصريتهم وليدة الجهل المطبق، فتكوا في أوائل القرن العشرين بمئات من المسيحيين الذين لا حول لهم ولا قوة، ودون أن يكون أي مبرر لإبادتهم سوى هويتهم. ولا حاجة لسرد الأحداث الأليمة التي يشيب لها الولدان نظراً لوحشيتها وقسوتها. ولازالت العنصرية تلعب دوراً بشعاً في حياة الشعوب المغلوب على أمرها خاصة، على طول أرجاء الدنيا وعرضها. ويا ما أثارت فتناً عمياء بين أخوة يستظلون تحت خيمة الوطن الواحد، ويشاركون العيش الواحد.

ومثلما أن لكل داء مسبباته، كذلك الأمر بالنسبة إلى العنصرية، فأبرز ما يثيرها هي النظرة الفوقية أو النفوذية لفئة ما نحو أخرى، سواء جاءت هذه النظرة من شعور عرقي أو طائفي أو ديني أو ثقافي أو أي

شيء آخر. فهذه الفئة مثلاً ترى نفسها أكثر ذكاء وأفضل كرامة وأعرق محتداً وأعمق أصالة، لا بل أجمل خلقة من غيرها من فئات البشر، وحتى من الفئة التي تشاركها العيش ويربطها تاريخ واحد. ففي نظرها أنها وحدها تستحق الحياة، وأما الآخرون فإلى جهنم وبئس المصير. هذه النظرة السوداء ينتقدها الأديب والشاعر العربي الكبير جبران خليل جبران، بطريقة شاعرية ذكية إذ يقول :

إذا ما اللوز ألقى زهره فوق الهشيم
لم يقل هذا حقير وأنا المولى الكريم

والمعروف أن للوز زهرة جميلة ذات رائحة فواحة، في حين أن الهشيم وبعبارة أوضح النفايات تحمل رائحة كريهة.

وقد بلغت العنصرية بعضهم إلى درجة تعاملهم مع غير المنتمين إلى عرقهم أو طائفتهم، وكأنهم بهائم ويصفونهم بكونهم وحوشاً لا تعقل ولا تعي ولا تفكر، وإن كان لهم سلطان عليهم اعتبروهم سلعة ممكن بيعها وشراؤها بحسب هواهم كما يباع ويُشرى أي حيوان أليف. وقد يدفع العنصري للحيوان ثمناً أعلى من الذي يدفعه مقابل إنسان، فتأمل رعاك الله، قيل أن شخصاً كان يتبجح بأنه من عنصر نقي دون الآخرين، ويوماً أراه صديق له عظاماً لعدد من الموتى بينهم عظام والده، وقال له : أرني أياً منها هي عظام والدك أو جدك وأياً منها عظام فئة من عرق آخر، فخجل و لم ينبس ببنت شفة.

ولعل من أبرز العنصريات كرهاً عند الله، هي العنصرية الدينية أو الطائفية التي من شأنها قلب الموازين بالنسبة إلى القيم الدينية والاخلاقية، لا بل أنها تدفع إلى المزيد من أعمال العنف والظلم، كما دفعت اليهود ليقولوا لبيلاطس عن المسيح، " **اصلبه اصلبه** ". لا شئ سوى بدافع العنصرية الدينية. لكون السيد المسيح لم يجاملهم على ممارساتهم السيئة، بل وبخ بعنف كبرياءهم واعتداءاتهم على الغير، فأدت بهم تلك العنصرية إلى أن يؤدوا شهادة زور ضد السيد المسيح لكي يدان دون أي مسوغ شرعي وقانوني. وقس على هذا العنصرية الطائفية التي تشتت بدلاً من أن توحد، تثير الفتن بدلاً من إخماد أمثالها. وبخاصة إذا كانت وراءها السياسة الخرقاء، فيكون ضحيتها آلاف من البشر الأبرياء المخلوقين على صورة الله، لا ناقة لهم فيها ولا جمل. علماً بأن الأديان كافة وبخاصة السماوية منها تدين هذه الظاهرة السلبية وتغلق المجال أمامها لمنعها من بث سمومها في المجتمعات، لكون الدين السماوي لا يدعو سوى إلى السلام والمحبة والعدالة الاجتماعية. فالله سبحانه وتعالى لا يحابي أحداً وقضاؤه عادل وبحسب تقوى الإنسان ومآتيه، فهو " **يشتت المستكبرين بفكر قلوبهم وينزل الأعزاء عن الكراسي ويرفع المتضعين ويشبع الجياع خيرات ويصرف الأغنياء فارغين** " (لو 1: 51).

ترى من شق كنيسة المسيح الواحدة ومزقها أرباً أرباً سوى العنصرية التي تدثرت بأغطية متنوعة إلى جانب الغطاء الديني الذي

وُشحت به العقيدة المسيحية. فالغربيون كانوا ومازالوا يتوهمون أنهم أرفع شأناً وأكرم محتداً من الشرقيين، لا سيما في فترات قبضهم على زمام السلطة. ومازالت الكنيسة المسيحية تعاني من جراء تلك العنصرية البغيضة مهما كانت لونها، ولولا الحركة المسكونية المباركة التي دأبت على تذويب العنصرية الغربية تجاه الشرقيين، لوصلت الكنيسة اليوم إلى شفير الهاوية. شكرا لله الذي أسبغ على قادة الكنائس والطوائف المسيحية نعمة التفكير في العودة إلى روح الإنجيل المقدس الذي لا يعرف التمييز بين أبناء آدم كافة : لدراسة وتحليل الأسباب التي أدت إلى تمزيق الكنيسة، ووضع حلول للمشكلة المسيحية العويصة التي أخذت اليوم مسيرتها نحو الحل، بفضل تقريب وجهات النظر في العقيدة والمذهب من أجل أن ترسو سفينة الكنيسة المسيحية في ميناء السلام.

وقد تدخل الحضارة البشرية ضمن دوافع العنصرية، بادعاء كل فريق بأنه أصل الحضارة وتطورها، في حين أن الحضارة ما كنت لتكون لولا تآزر الشعوب واشتراك جميعها في بنائها، كل من موقعه وقدراته الفكرية والمادية.

ويجدر بنا التطرق إلى رؤية المسيحية للعنصرية ولئن أتينا إلى ذكر بعض الشيء منها، فالمسيحية كما يعرف القاصي والداني دين محبة وتسامح لا محدودين " **أحب قريبك كنفسك** " (متى 10: 27) والقريب أو الأخ في نظرها هو كل إنسان، بعيداً عن أي اعتبار خاص " **لنا هذه الوصية منه (الله) من يحب الله يحب أخاه أيضاً** " (1 يو 4: 21).

وبالنسبة إلى التسامح يقول السيد المسيح " **أن تغفر لأخيك لا سبع مرات في اليوم، بل إلى سبعين مرة سبع مرات**" (متى 18: 21). فإذا كانت المحبة هي القاعدة الأساسية لمسلكنا في الحياة، فهي توجب بالضرورة تحاشي أي نوع من الإساءة إلى الغير، وإن بدرت أية إساءة، فالطريق سالك دوماً أمام المسئ لطلب العفو والمغفرة، فالنظرة المسيحية الإنسانية شمولية عامة لا تميز فيها ولئن تباينت العناصر واختلفت الآراء. فالسيد المسيح لم يستثن قوماً ما من نعمة الخلاص التي جاء ليسبغها على البشر كافة، فعنده " **ليس يوناني (وثني) ويهودي، ختان أو عزلة، بربري وسكيثي، عبد وحر** " (كولوسي 3: 11) فالكل واحد عنده، وهكذا يكون الفكر المسيحي خال من كل من أنواع العنصرية.

والسؤال هنا، هل يمكن التخلص من العنصرية، هل يحارب العنصري خلة قد مَلَكته ؟ نقول : أن العنصرية ليست طبيعية أو غريزة في الإنسان، فهي تكتسب في كل الأحوال حتى لو كانت موروثة، لذا فهي تخضع للمعالجة. فبمقدار ما تتأصل في نفس الإنسان، بهذا المقدار عينه ممكن معالجتها، وفي حالة إيمان المرء بالثوابت الإيجابية التي غرسها الله في ذات الإنسان، والتي بإمكانها تحطيم الأسوار ورفع الحواجز بين القلوب وخلق أجواء ملائمة، من خلال الحوار واحترام الرأي الآخر، في اللقاءات المتكررة الاجتماعية منها والدينية الهادفة إلى الخير العام وبث روح الأخوة والمحبة بين أطياف المجتمع المتعددة، إن خلصت فيها النيّة وقُدس الحق، فلا بد أن تترك بصماتها في نفوس المتحاورين فتخفف من غلواء

العنصرية. وبتكرار اللقاءات المخلصة تذبل ورقة العنصرية شيئاً فشيئاً حتى تسقط على الأرض. إلى جانب هذا، فأن القاسم المشترك لجميع البشر هو الصورة التي خص بها الله الإنسان والتي تقوم شهادة صارخة على المساواة. ومن منطلق المساواة تنطلق وتتوثق العلاقات الطيبة بين الشعوب، وبمرور الزمن تنمو وتتسع فتغيب شمس العنصرية. كما أنها تحرك روح الإنسانية لدى الجميع فتؤدي إلى التفكير بالقريب بصورة عملية جدية. فيمد الواحد يد العون للآخر. ومثل هذه الروح من شأنها توفير أجواء نقية لها قوة التطهير من أدران العنصرية.

وأخيراً أود أن أكرر الإشارة إلى أهمية الالتزام بمبدأ الأخوة البشرية والوحدة الوطنية، وطرح العنصرية جانباً.

الـغــــرور

أنا، أنا وبس، أنا الأفضل، الأعمق أصاله، الأعظـم، وقـس علـى هذا النحو ما شئت. هذا هو منطق المغـرور الـذي لا تـبرح هـذه الأمـور وأمثالها ذهنه الغارق في خضـم شـهوة العظمـة والتجبّر، وكمـا يسـميها يوحنا الرسول " **مجد الحياة** " (1 يو 2: 16)، والذي لا يعنيه شيء سوى " الذات "، فهي عنده كل شيء، يحيا ويعيش، يـأكل ويشـرب وينـام في دوامة ذاته، والانكى أن هو أعطى موهبة ما نسـبها إلى ذاتـه وتغنـى بهـا وتناسى أ ن مصدر كل موهبة صالحة هو الله عز وجل. وبين البشر أعداد هائلة ممـن ركبهـم الغـرور وبدوافـع متباينـة. فهـذا تغـره ثروتـه الوفـيرة. فلا يعود يعرف سوى لغة الدرهم والدينار أو الربـح والخسـارة، فحيثمـا وجد أي مجلس حضر، كانت المفاهيم المادية الكلمة السباقة في الانطـلاق

من لسانه، دون أن يدري أو قد يدري أنه استُعبد للمادة، والويل كل الويل لمن يتسلط عليه حب المادة. والسؤال هنا، هل أن الثروة المادية مدعاة للغرور ؟ نقول : بالنسبة إلى الجاهل : نعم. أما بالنسبة إلى الحكيم : فكلا. كان أيوب ذا ثراء كبير جداً وصفه الوحي بأنه أعظم غنى من كل بني المشرق (أيو 1: 3)، ورغم ذلك لم يأخذه الغرور و لم يتبجح بمقتنياته الغزيرة.

وهناك من غررته السلطة أو المنصب الرفيع، فيأخذ يأمر وينهي، يعاقب ويعفو من يشاء وبحسب هواه ليس إلا، فأنه وبعكس سائر الناس المعتدلين يضع " السيف موضع الندى، والندى موضع السيف "، وهذا والحق يقال، ذروة الظلم والقساوة. وقد غاب عنه وعن أمثاله المغرورين بفعل السلطة، مهما كانت طبيعتها : أن مصدرها هو الله، وهذا ما أدركه يوسف البار فتعامل بوحي من هذا المفهوم. قال يسوع لبيلاطس أثناء محاكمته إياه " **لم يكن لك علي سلطان البته، لو لم تكن قد أعطيت من فوق** " (يو 19: 11).

ولا ننسى غرور العلم الذي قد يبتلي به بعضهم فيرون أنفسهم في واد وغيرهم في واد آخر فينظرون إليهم وكأنهم يستحقون أن لا يحصوا بين الناس، وهم وحدهم يمتلكون المعرفة التامة ويمسكون بزمام شؤون البشر. في هذا الصدد يقول الرسول بولس : " **العلم ينفخ...والمحبة تبني** " (1 كو 8: 1)، فمثل هؤلاء يشعرون ولا شك بنقص في ذواتهم. فنحن نقرأ عن علماء بارزين مدنيين وكنسيين تميزوا

بمنتهى التواضع واحترام الغير مقدمين ذواتهم قدوة حسنة في هذا الشأن، سائرين على نهج يسوع القائل " **كل ما فعلتموه قولوا نحن عبيد بطالون** " (لو 17: 10). ولكن أنّى للمغرور أن يأخذ قول الرب هذا مأخذ الجد فيقول مع داوود النبي : " **أما أنا فدودة لا إنسان** " (مز 22: 6). ويرى البعض أن انحداره من محتد معيّن يعتبره أكثر أصالة من غيره، مدعاة للفخر والتباهي، فيتوهم بأن له كرامة أفضل. ولأحد الشعراء قول جميل ذهب مقولة قيمة، ألا وهو :

لا تقل أصلي وفصلي أبداً   إنما أصل الفتى ما قد حصل

وقد يتولد الغرور لدى البعض بسبب المجاملة المفرطة والثناء بلا حدود، بحق أو بغير حق والمقترن غالباً بالمحاباة والرياء، فيكبر في عين نفسه وكأنه اكتشف شيئاً هاماً في ذاته كان غافلاً عنه، وياليته لم يكتشفه ليبقى موضع محبة الناس واحترامهم، فالذي يتعاظم في عين نفسه، يسقط في عين الناس.

نلاحظ هذا في موقفين معاكسين نقرأهما في سفر أعمال الرسل. الأول : موقف بيلاطس الذي أغراه صراخ الشعب وهو جالس يتبختر على العرش يكلمهم، فهتفوا قائلين " **هذا هو صوت إله لا صوت إنسان** " (12: 23)، فتوهم أنه فعلاً إله، فضربه للحال ملاك الرب فمات ميتة شنيعة فأكله الدود. أما الموقف الآخر، فهو للرسول بولس لدى شفائه مقعداً في مدينة لسترا بقوله : " **قم على رجليك منتصباً** " (أع 14: 10)، فصرخ المشاهدون بصوت واحد قائلين " **أن**

الآلهة تشبهوا بالناس ونزلوا إلينا "، إلى درجة أن كهنة الإله زفس جاءوا بثيران ليقدموها ذبيحة لهذا الإله الجديد (بولس). فما كان من الرسول ومرافقه القديس برنابا أن مزقا ثيابهما ووبخا الجمهور قائلين : " **نحن أيضاً بشر تحت الآلام مثلكم** ". أضف إلى هذا موقف يوحنا المعمدان من رؤية الناس له بأنه هو الماسيا المنتظر، وكانت الظروف مواتية والناس على استعداد للإيمان به، غير أنه لم يسمح للغرور أن يبسط ظله عليه، ففشل أمام إيمان يوحنا بواقعه حيث قال : " **لست أهلاً أن أنحني وأحل سيور حذائه** " (مر 1: 7).

فالذات أذن، أن صبت كل ثقلها على صاحبها، تفرغ لها بكليته، وخلا لها ذهنه و لم تُبق فيه مكاناً لغيره، بل حصرت فكره كلياً بها بعكس فكر المسيح الذي حثّ الرسول بولس على التشبه به " **ليكن فيكم هذا الفكر الذي في المسيح يسوع** " (في 2: 5) وما فكر المسيح هذا سوى التنازل والبذل من أجل الآخرين، وهنا نقول : أن المغرور بنفسه يسير في الأخذ وعسير في العطاء، وهو أشبه ما يكون بالطفل الذي يريد كل شيء له فقط، فهو يبدي امتعاضه إذا ما أعطي غيره شيئاً مماثلاً لما أعطي له، وهنا نقول : ليته كان طفلاً ولكن بحسب مفهوم وتعليم السيد المسيح عن الطفل من حيث براءته وطهارة قلبه. لكان إذاً إنساناً آخر غير الذي هو عليه.

أن من يطلب كل شيء لذاته، لا يعرف إلى روح المحبة سبيلاً، الأمر الذي يضعه في دوامة من القلق، لأن المحبة لا تطلب شيئاً لذاتها (1 كو 13: 5)، والمرء إن تجرد من المحبة غدا أشقى الناس طراً، فلا يجد

من يحبه فينعزل عن الجميع وينبذ، لأن المجتمع السليم تكون المحبة فيه هي سداه ولحمته. وهي أصل الخير والسلام، باستثناء محبة الذات التي تمثل الشر والرذيلة، وليس لها من علاج سوى إنكار الذات، فمن أنكر ذاته حظي باستحقاقات السيد المسيح وتيسّر له الترديد مع الرسول بولس: " **لي الحياة هي المسيح والموت ربح** " (في 1: 21)، وغدا مثالاً حياً لنكران الذات فيكفر بنفسه ويحمل صليبه ويتبعه (لو 14: 27) متشبهاً بمعلمه يسوع وهذا حسبه بل وفخر له أن يكون كمعلمه (لو 14: 27). وما يحز بالنفس، ندرة وجود ناكري الذات، وبخاصة لدى المبتلين بداء الغرور الذين يجنحون إلى متع الحياة الدنيا، دون الحياة بالمسيح. وأن تظاهر مغرور بشيء من نكران الذات، فلا يتعدى كونه أسلوباً لتغطية غروره، ولأنه صادر عن الشفاه لا عن القلب.

أما إذا أتى شيئاً فيه بعض الصلاح حقاً، أقام الدنيا وأقعدها وسعى إلى وسائل الإعلام لتعلن للملأ ما أتى به مما لم يحلم به إنسان عبر الأجيال كزعمه، ولا يكف عن الحديث عنه بمناسبة أو بغير مناسبة ليُظهر بطلاً لم تشهد له ساحة الكون مثيلاً، أنه إنسان معجب بنفسه، لذا لا يجد من يعجب به. والحق يُقال أنه لمن الصعوبة بمكان التعامل والتفاهم مع إنسان يرى نفسه عظيماً بين صعاليك.

لقد علمنا يسوع كيف نتخلص من حب الذات من خلال الصلاة التي أملاها والملائمة لكل مناسبة فقد ربط الناس برباط الأخوة والبنوة الواحدة لأبيه السماوي، بقوله: " **أبانا الذي... أعطنا.. لا تدخلنا.. نجنا..** " وما سوى ذلك. فبهذا الأسلوب الحبي أذاب الأنانية والغرور، رافضاً الانفرادية والتفضيل بين هذا وذاك، فهذه الصلاة هي للجميع وليست للفرد.

بين الحسود والمحسود

الحسد بالحسود يضر. والمحسود لا يطاله ضر

الحسود أبداً يحتقر. فيما الإكليل للصبور يضفر

بهذين البيتين يفتتح مار أفرام السرياني ملحمته العصماء عن يوسف الصديق الذي جاءت قصته نتيجة لحسد أخوته إياه، فكانت دراما قلما نجد نظيراً لها في معترك المجتمعات البشرية، لا سيما أن الذين قاموا بأدوارهم كانوا أخوة لبطلها، والسبب الأول الذي من أجله عشش الحسد في قلوب الأخوة كان تافهاً جداً، لا يعدو كون الأب أهدى قميصاً ملوناً لابنه يوسف دون أخوته، وأخذ الحسد ينمو ويشتد حتى ظهر في أبشع صورة عندما أفصح حلم يوسف عن حب الوالدين

المتميز لـه. ولا بد أن مار أفرام أستوحى هذين البيتين من معطيات بالكتاب المقدس بهذا الصدد، فإبليس لم يتحرك نحو نصب الشراك للإنسان إلا حسداً منه إذ رآه يتمتع بمباهج الجنة، فأصطاده وغرس مخالب حسده في نفس الإنسان ورماه إلى الحضيض، ويتحدث سفر الأمثال عن الحسد ونتائجه السلبية فينعته بالسوس الذي ينخر عظام أصحابه، ومن نُخِرت عظامه كان مصيره الموت الزؤام، يؤكد هذا ما قاله الوحي على لسان اليفاز التيماني في سفر أيوب، من أن الحسد يقضي على صاحبه الذي يصفه بالأحمق، فليس الحسد والحالة هذه سوى نوع من الحماقة.

والحسد من الآفات الاجتماعية والأخلاقية التي كثيراً ما نبتلى بها نحن البشر، وفي غالب الأحيان، كما أسلفنا، لأسباب تافهة لا طائل تحتها. أو قد لا تعنينا إطلاقاً لا من قريب ولا من بعيد. فمالنا مثلاً وإنساناً منحه الله غنى وفيراً ؟؟؟ فقد يكون هذا مكافأة من الله لأعمال قد لا تكون ظاهرة للعيان، أو ما الذي يدعونا إلى حسد إنسان حاز جاهاً عظيماً ومركزاً مرموقاً سواء في الدولة أو المجتمع أو حتى في الوسط الكنسي، ألا يجدر بنا أن نفكر، بدلاً من الحسد، أن هذا الشيء تم كمحصلة لمزايا حميدة أو مآتٍ جليلة لهذا الإنسان ؟؟ أو لماذا نحسد امرءاً أنعم الله عليه بموهبة ما قد يكون أهلاً لها من حيث لا ندري ؟ أني اعتقد أن الحسد في مثل هذه الأحوال يشكل اعتراضاً على أعمال الله، والانكى أن كثيرين ممن يعشش الحسد في قلوبهم لا يكتفون بحسد الإنسان على نعمة، بل يتمنون أو يتجرد منها ويفوزون هم بها.

لا ريب أن الحسد من أعمال الشيطان، لكونه رذيلة مقيته نكراء، والشيطان هو ملك كل الرذائل التي بها يغرر بالبشر لكي يقودهم إلى المهالك، ألم يكن الشيطان هو الذي أثار الحسد في قلب قايين فقضى الأخ على أخيه بعد أن زرع في داخله الأنانية القاتلة إلى درجة الإغراق في حب الذات، فلم يعد يعرف أحداً سوى نفسه، لقد تأجج الحسد في داخل قايين وألهب نفسه عندما رذل الله تقدمته وأرتضى بتقدمة أخيه هابيل ولكن ماذا كانت نتيجة حسده هذا ؟ لقد عاقبه الله عقاباً أليماً، كان الموت أحرى له، إذ جعله موضع هزء وسخرية لكل من يراه، كما عاقب بالإذلال أخوة يوسف المظفر، إذ قالوا له فيما بعد (ها نحن عبيدك). ترى ما الذي حفز رؤساء اليهود على أن يرفعوا المسيح على الصليب. ألم يكن الحسد ؟ لتقرأ ما كتبه متى الإنجيلي عن بيلاطس من أنه علم أنهم أسلموه حسداً (متى 27)، كما جاءت كل أحكامهم على يسوع من وحي حسدهم إياه الذي كان يملأ قلوبهم، فعندما أخرج يسوع شيطاناً من إنسان أخرس مجنون وشفاه قال للذين شاهدوا المعجزة "**لم يظهر مثل هذا في إسرائيل** " (متى 9) أما رؤساء اليهود فقالوا : أنه برئيس الشياطين يخرج الشياطين، فالحسد أذن من شأنه أن يجعل من الحق باطلاً ومن الباطل حقاً.

وكثيراً ما يقترن الحسد بالخصام لا بل بالقتل أيضاً يؤكد هذا الكتاب المقدس، فإلى جانب حادثة قايين وأخيه، فأن بولس يقول عن الذين ليس لديهم معرفة الله، أن نفوسهم فاضت حسداً وقتلاً وخصوماً

ومكراً (رو 1: 29) كما أنه يضع الحسد في قائمة الكبائر التي يسميها أعمال الجسد، وينبه المؤمنين من الذين يأتون مثل هذه الكبائر لا يرثون ملكوت الله (غل 5)، كما ينصح بالابتعاد عن المناقشات والمماحكات لأنها قد تشكل مصدراً للحسد (1 تيم 6). والرسول بطرس، يربط الحسد بالمكر والرياء والخبث (1 بط 2). وفي رسالة مار يعقوب نقرأ " **من أين القتال والخصام بينكم... تحسدون وتعجزون أن تنالوا فتخاصمون وتقاتلون** " (4) بعد كل ما تقدم عن مفاعيل الحسد السلبية، يبرز أمامنا السؤال التالي : إذا كان لكل داء دواء كما يقال، فما هو علاج هذا الداء ؟ ونحن لا نجد علاجاً شافياً سوى لدى الرسول بولس الذي يقول : " **أنه المحبة التي لا تسقط أبداً، ولا تحسد ولا تطلب ما لنفسها ولا تظن السوء** " (1 كو 13)، لا بل تستأصل شافة كل الآفات الخلقية والاجتماعية، وتجعل الجميع أن يفرحوا مع الفرحين ويبكوا مع الباكين ويهتموا بعضهم ببعض (رو 12: 15).

أيــن هــو أخــوك ؟

هذا السؤال وجه إلى قايين الذي انفرد بأخيه هابيل فارداه قتيلاً وصائراً بذلك أول قاتل في تاريخ البشرية ومثالاً سيئاً للجريمة، ولم يكن يدري أن سؤالاً مثل هذا سيطرق مسامعه، ولكن سرعان ما حدث، " **أين هو أخوك** " سأل الله قايين، وأن سؤالاً مثل هذا عندما يطلقه الله، لا ينتهي بزوال الحدث، بل يمتد عبر العصور ليكون محذراً لكل من يحذو حذو قايين الذي لم يكن من العسير عليه أن يستعمل الكذب منطق أبيه إبليس، فيجيب : لا أعلم، أحارس أنا لأخي ؟ وقد رافقت عبارة " لا أعلم " مع العلم الأكيد ـ أبناء آدم عبر أجيالهم وسوف تستمر لا بل تزيد كما تُشير الدلائل، لطالما أن الكذب صار صفة ملازمة للإنسان، فلم يعد أي مجرم يعترف بجريمته سواء كانت هذه الجريمة بالسر أم علناً

وأمام جمهور الناس، كالجرائم البشعة التي ترتكبها بعض الدول الكبرى ضد الشعوب المستضعفة تحت ذرائع واهية إبليسية، وإن كان لقايين أن يصرح بجهله " **أن لا شيء خفي إلا وسيظهر...**"، غير أن هذا التعليم الإلهي هو اليوم أمام أنظار العالم بأسره، ومع ذلك يقترفون الجرائم أثر الجرائم بصورة مباشرة أو غير مباشرة ومثلما أن محاولة قايين إخفاء جريمته لم تفلح، كذلك ستفشل كل الجرائم " المتحضرة " والمتقنة في تنفيذها في البقاء على سريتها، فستعلن عاجلاً أم آجلاً، وسوف يطرح الله سؤاله على المجرمين " المتحضرين جداً " أين أخوتكم في الإنسانية، أين الملايين الذين حكمتم عليهم بالإعدام بصورة أو بأخرى أو بحجة أو أخرى، أن كلمة " الأخ " عامة شاملة مثل كلمة " قريب " التي أوردها الرب يسوع قبل أن يضرب مثل السامري الصالح، فهي لا تنحصر بالأخوة الأشقاء أم الآخرين، بل تشمل كل مخلوق على صورة الله، ولهذا ففي حالة الاعتداء على أي شخص، سيسأ ل الله المعتدي : أين هو أخوك ؟ بالإنسانية، بالدين، بالوطنية، بالقومية، بالجنس والخ، على أثر المعصية فتح أمام الإنسان طريقان، طريق الخير وطريق الشر، وأعطاه الله حرية الاختيار مع التذكير والتركيز على نتائج كل منهما المتناقضة الواحدة مع الأخرى، فاختار قايين طريق الشر والخيانة بدلاً من الخير والأمانة، فمن حيث هو أكبر سناً من أ خيه، اعتبر الله هابيل أمانة لديه، فخان الأمانة واقتاد أخاه موهماً إياه بأنهما في نزهة جميلة بين أشجار الفردوس الباسقة وجداول مياهها الرقراقة، فغدر به وقتله، وهنا يجدر

التأمل في الدوافع إلى القتل قبل التطرق إلى أنواعه سواء في حدث قايين أم ما يحدث أمثاله عبر التاريخ، في الحدث الذي نحن بصدده، يبدو واضحاً أن الحسد هو سيد الدوافع، والحسد لا يستقر إلا في القلوب المتحجرة وغير النقية كقلب قايين، غير أن الحسد ينعكس على صاحبه في معظم الأحيان، وأن أموراً كثيرة تقف وراء تحجر القلب، ومنها التفوق، كتفوق أحد الأخوة في العائلة في محبة الأبوين كما كانت الحال بالنسبة إلى يوسف، حيث أثارت محبة والديه الفائقة له، ضغينة أخوته فأحالت قلوبهم إلى صخرة صماء لا ينفذ إليها نداء الضمير الحي، الأمر الذي يسّر لهم التفكير في القضاء عليه، ولدى عودتهم إلى أبيهم سألهم ولا شك، أين هو أخوكم ؟ فيلجأون إلى الكذب، وحبل الكذب قصير مهما طال كما هو واضح من حادثة يوسف، ويدعون أنهم لايعرفون أين هو. والدافع الآخر هو محبة الذات أو الأنانية التي قد نكون نحن البشر قد ورثناها من الأبوين الأولين اللذين، بدافع حب الذات، طمحا أن يصيرا لهين، أن محبة الذات لا تدع مجالاً للقلب أن يستوعب حب الآخرين، وإذا غابت المحبة، هان الشر والجريمة، ذلك أن جميع القيم الإنسانية مبنية على أساس المحبة التي ينبغي أن تكون لها المكانة الأولى في القلب، وتكون من القوة بحيث تمكنها من طرد خصومها كالبغضاء والكراهية والحسد، وما إليها من مقومات الشر التي من شأنها قيادة المرء إلى جريمة القتل وسواها مما يرتكب بحق الإنسان والإنسانية، في كثير من الأحيان يتغلب الشر على الخير فيبلغ الشرير أهدافه فيشعر بنشوة عارمة،

ولكن هل هذا هو كل شيء، فإذا كان المجرم يفلت أحياناً من قبضة العدالة، فهل يفلت من قبضة الله الذي يستجيب للمظلوم فينتقم له من الظالم " **اقض لي يا رب... ومن إنسان غش وظلم نجني**" (مز 43: 1)، فيقول الرب " **لي الانتقام وأنا أجازي** " (عب 10: 30)، فالله أذن يتدخل ليجري العدالة بحق الأشرار المعتدين، ردعا لكل من يتمكن من التملص من ردع البشر، وأن ما أصاب قايين من رعب وخوف شديدين، يصيب كل شرير، فيقصد الاستقرار النفسي ويدخل في دوامة الشعور بالذنب، وهذا ما أكده قايين بعد أن علم أن فعلته الشنعاء غدت مكشوفة ومعروفة لدى الله الذي قال له " **صوت دم أخيك صارخ إليَّ من الأرض** " (تك 4: 10)، فيجيب " **ذنبي أعظم من أن يحتمل** " (تك 4: 13)، والشعور بالذنب حالة إيجابية في حياة الإنسان، إذ يهيء له السبيل للاعتراف بذنبه ويعود إلى جادة الصواب، ولطالما أن الحديث يدور حول القتل، فلا مندوحة من الإشارة إلى أن القتل لا ينحصر بعملية ازهاق نفس، بل يشمل أيضاً أموراً كثيرة، لا تقل هولاً أو جرماً عن القتل بالمفهوم العام، كالقتل المعنوي، والذي مثلاً يطال شخصية الإنسان وحياته الروحية عن طريق الاساءة إلى سمعته وتشويهها دون مبرر بقصد إبعاده عن المجتمع وإثارة الكراهية عليه، وأن فصل الفرد عن مجتمعه أو ذويه ومعارفه هو هدم لشخصيته لا بل قضاء عليها كلياً، فلا تعود له مكانة في المجتمع، ومن ناحية أخرى فأن إبعاد الفرد عن الله بأية وسيلة كانت هو قتل لروحه، وهذا النوع هو أشد

فتكاً من القتل الجسدي، وهذا ما يفعله إبليس ومساعدوه من بني البشر، وبالامكان أيضاً إدراج إهمال تربية الأولاد وعدم الاكتراث بهم وترك لهم الحبل على الغارب في قائمة القتل المعنوي، لا سيما وأنه يتناقض ووصية الله بتربية الأولاد وتهذيبهم، والاهتمام بصحتهم الروحية أكثر من الاهتمام بالصحة الجسدية، ليتحاشوا التشرد والانضمام إلى صفوف العصابات الشريرة الماردة، وفي هذه الحال، يسأل الله الآباء " **أين هم أبناؤكم ؟**".

مقاييس الحياة

من طبيعة الإنسان السوي، السعي وراء الحقيقة لتقوده إلى الطريق السليم والأكثر أمناً من أجل حياة مستقرة مستقيمة هادئة. إلا أنه يقف أحياناً أمام أمر ما يتأمله بقصد الوصول إلى حقيقته، فتأخذ منه الحيرة كل مأخذ لا يدري إلى أية ناحية يتجه، إذ لا تعبر ظواهر الأمور عن حقيقتها وجوهرها في معظم الأحيان، بل تعبر عن نفسها فقط.

ومن هنا اقتضت الضرورة أن تُقاس الأمور لا كما تظهر للعيان، بل بما تهدف إليه أو تتمخض عنه من إيجابيات أو سلبيات، أي بنتائجها، وبعبارة أخرى، أن حقيقتها تنكشف بالعمل لا بالقول والنظر، كما جاء في رسالة القديس يعقوب " **أنا أريك بأعمالي إيماني** " (يع 2: 18)، وهذا يعني أن الإيمان أو أي شيء كان سواء كان صالحاً أم

غير ذلك تعكسه الأعمال، ومن الأعمال الدالة على الإيمان بهذا الشيء أو بذاك هو العطاء، والعطاء الصحيح المقبول لا يُقاس بكميته، بل بكيفيته أي بإيمان المعطي وحسن نيته لأن في مثل هذه الحالة يكون نابعاً من داخل الإنسان ولمجرد رغبته وسروره به لا غير، وفي هذا الصدد قال السيد المسيح " **عندما تصنع صدقة لا تعرف شمالك ما تصنع يمينك** " (متى 6: 3)، فالكثرة أو القلة لا تشكل قياساً حقيقاً للعطاء، بل حسن النية وعمق الإيمان كما أسلفنا، وقد قدم السيد المسيح صورة واضحة واقعية لهذه الحقيقة لدى مراقبته الذين كانوا يلقون تبرعات في الخزانة، حيث ألقى الأغنياء كثيراً في حين أن امرأة أرملة فقيرة ألقت فلسين وهي أقل كمية معروفة، فعلّق الرب على هذا المشهد قائلاً لتلاميذه " **الحق أقول لكم إن هذه الأرملة الفقيرة قد ألقت أكثر من جميع الذين ألقوا في الخزانة لأن الجميع من فضلتهم ألقوا وأما هذه فمن أعوازها** " (مرقس 12: 42).

ومثلما لا يُقاس العطاء بالقلة والكثرة كذلك الأمر بالنسبة إلى فترة حياة الإنسان على الأرض، فهي لا تُقاس بالسنين التي عاشها، لأن مقياسها الحقيقي هو ما يأتيه الإنسان خلال فترة حياته، سواء قصرت أم طالت : من أعمال تفيد وتسعد الآخرين، كالتي تنقذ البشر من أن يكونوا فريسة سائغة لبعض أعدائهم كالجهل والأمراض الخبيثة التي غالباً ما تقضي عليهم، أو أي عمل آخر يؤدي إلى سلامهم وسعادتهم وتقدمهم في معارج الحضارة البشرية بصورتها الأعم التي من شأنها

تقديم كل ما هو حسن وصالح. يقول السيد المسيح " **فيخرج الذين فعلوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيئات إلى قيامة الدينونة** " (لو 5: 29)، فهو لم يقل يخرج الذين عاشوا طويلاً أو قصيراً إلى قيامة الحياة أو الدينونة، بل الذين عملوا الصالحات هم الخالدون إشارة منه إلى سلوك المرء وحسن سيرته ومآتيه الصالحة، وهذا هو المقياس الصحيح للحياة.

دونكم قصة مقتضبة جداً ومعروفة جداً لكنها معبرة تعطي مثل هذا الانطباع عن حياة الإنسان، مفادها أن شخصاً زار إحدى المقابر وقرأ الشواهد الموضوعة على القبور، فقد كتب على أحد القبور أن صاحبه عاش كذا شهر ومات، وعلى آخر أن صاحبه عاش كذا سنة ومات، وعلى غيره أن صاحبه عاش كذا أيام ومات..والخ، فسأل مستغرباً عما تعنيه هذه الأعمار القصيرة جداً، فقيل له أن ما كتب على هذه الشواهد، يعبر فقط عن المدة الحقيقية التي عاشها صاحب القبر وهي المدة التي أمضاها في عمل الخير ونشر السلام والمحبة بين أبناء البشرية. وهكذا قل عن العمل أي عمل، إذ لا يجوز أن يُقاس بناء على المدة التي استغرقها بل على اتقانه وجودته كما قال أفلاطون.

إن معظم المجتمعات تضم بين دفتيها أعضاء يختلفون ثقافة ومعرفة، وقد يعتبر أحدهم على مستوى عالٍ من الثقافة لكونه يحوز الشهادة الفلانية التي تجيز له أن يتربع على عرش المستوى الثقافي الأعلى في مجتمعه، وهنا نتساءل، هل حقاً أن الشهادة مهما كانت عالية هي

المقياس الحقيقي للثقافة ؟ نجيب وبكل صراحة، ورغم اعتزازنا بالشهادات وتقديرنا لها : كلا لأن العديد ممن يحملون شهادات رفيعة المستوى حازوا عليها من أرقى الجامعات العالمية، يأتون أعمالاً تنم عن التخلف الذي عاشوه قبل حيازتهم الشهادة، فتراهم منطوين على أنفسهم غير منفتحين، يستأنسون للأحاديث العجائزية والعقائد الخرافية، ويميلون إلى الحديث عن الماضي بكل سلبياته التي أكل عليها الدهر وشرب، مؤثرين إياها على الحديث عن حقوق الإنسان وسلام بني البشر غير آبهين لقيمة التقديم الحضاري الذي تُشير إليه شهاداتهم. فالمقياس الحقيقي لمثل هؤلاء ليس رفعة الشهادة أو شهرة الجامعة التي منحتها، إنما هو مدى تأثير ثقافتهم على حياتهم الاجتماعية أولاً ثم على المجتمع الذي يعيشونه ولطالما ظلوا متشبثين بسلبيات الماضي معتبرين إياها الأصل في حياتهم، فلا قيمة لشهادتهم من الناحيتين الاجتماعية والثقافية.

من ناحية ثانية، يلاحظ أن كفاءة الشخص قد لا تكون مقياساً يؤهله احتلال الوظيفة الفلانية، لكنه قد أحتلها بتدخل اعتبارات خاصة، كصلة القربى أو الحزبية أو العنصرية وما إلى ذلك، والتي بموجبها تُقاس كفاءة الشخص فيمنح المركز في الدولة في حين أنه لا يستحقه، وإنما هو من حق صاحب الكفاءة الحقيقية، ومن شأن هذا التصرف تدني المستوى الإداري، فيتخلف المجتمع ومن ثم البلد، وعلى مقياس الشهادة العليا دون الانفتاح الاجتماعي، يُقاس أيضاً بر الإنسان وسلوكه، فبر الإنسان لدى بعضهم يتمثل بما يظهر أمامهم من تقوى في حين لا يمتلك سوى صورتها، فمثل هؤلاء في نظر مار بولس " **غير محبين للصلاح... محبين**

للـذات دون محبـة الله، لهـم صـورة التقـوى لكنهـم منكريـن قوتهـا " (2 تس 3: 5).

في عهد السيد المسيح كـان زعمـاء اليهـود الدينيـون يتبجحـون ببرهم الذاتي، فقد اعتادوا أن يظهـروا أمـام النـاس بمظهـر التقـوى حتـى سرت عقيدة بر الفريسـيين إلى عقـول وأذهـان السـذج مـن الشـعب إلى درجة أنه قيل (إذا دخل ملكـوت الله اثنـان فـلا بـد أن يكـون أحدهمـا فريسياً)، إلا أن الرب يقـول " **ليـس كـل مـن يقـول لي يـا رب يـا رب يدخل ملكوت السموات** " (متى 7: 21)، لذلك انحـى عليهـم باللائمـة لأنهم " **يعرضون عصائبهم ويعظمون أهداب ثيـابهم** " (متـى 23: 5). " فعـيرهم مشـبهاً إيـاهم بـالقبور الـتي تظهـر مـن الخـارج جميلـة ومزخرفة " لكنها من الداخل لا تحتوي سـوى الجيفـة " **ويـل لكـم أيهـا الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تشـبهون قبـوراً مبيضـة تظهـر مـن الخارج جميلة وهـي مـن الداخـل مملوءة عظـام أمـوات وكـل نجاسـة "** (متى 23: 27)، ولكي يقيّم برهم المزيف ضـرب مثـل الفريسـي العشـار اللذين دخلا الهيكل للصلاة، حيث أخذ الفريسي يمتدح نفسـه ويظهرهـا وكأن التقوى والعطاء ملازمان لـه، بعكـس العشـار الـذي انتبـذ إحـدى زوايا الهيكل طالباً الرحمة والمغفرة، ويعقب السيد المسيح على المثل فيقول " **أقـول لكـم ان هـذا العشـار نـزل إلى بيتـه مـبرراً دون الفريسـي** " (لو 18: 13)، ومن هنا نرى أن المقياس الوحيد الذي لا يخطيء أبـداً هـو الكتاب المقدس الذي يوصـي باستعمال المقيـاس الصحيـح دون ريـاء أو محاباة لكي تظهر مصداقيتنا أمام الناس.

لكل شيء وقت

للوقت أهمية كبرى وقيمة تسمو عن التثمين، فاستغلاله بشكل عقلاني سليم لفائدة عظمى، وهدره خسارة جسيمة، ليس للهادر فحسب بل وللمجتمع أجمع، فاستوجب والحالة هذه إعطاء كل شيء وقته المناسب فللأحاديث والأعمال ذات الفائدة العامة يعطى منه مساحة أوسع، في حين يجب تضييق مساحة كل حديث تافه غير مجدي، والأفضل اللوذ بالصمت. ونظراً لهذه الأهمية فقد خصص سفر الجامعة، وبوحي من الله طبعاً، وقتاً لكل شيء في الحياة، مشيراً إلى أ ن الله جعل الوقت لخدمة الإنسان ومنفعته فقال : " **لكل شيء وقت** " لا يجوز تجاوزه أو عدم الاكتراث به وكأنه شيء عابر لا يقدم ولا يؤخر، أو كان المرء وحده سيد وقته ولا شأن لغيره به. وبعبارة أخرى، يعتبره ملكه

الخاص لا يحق للآخرين أن يستفيدوا منه، غير أن الواقع يقرّ بأن الوقت ولئن يبدو أحياناً خاصاً، إلا أنه ملك عام، ورغم هذا فهناك من يرى أن له حق التصرف بوقته كما يشاء وله ملء الحرية، أن يستغله لمصلحته أو يهدره، ولئن أضرّ مثل هذا التصرف بالآخرين.

الوقت كعقرب الساعة لا يرجع إلى الوراء، ومن هنا كان استغلاله بشكل حكيم هاماً وضرورياً، فمن سنحت له فرصة القيام بعمل صالح مرضٍ وللخير العام، ليبادر إلى إنجازه فوراً لعل الفرصة تفوته فيكون قد خسر شيئاً ثميناً لا يعوض، لأن الفرصة سوف لن تُعاد لاستعادته، علماً بأن كل عمل ناجح هبة من الله يمنحه لقصد إلهي معين لصالح البشر، ولا ريب فإن المؤمن في اتيانه عملاً صالحاً يشعر بمتعة وسعادة، لكن هذا الشعور يتحول إلى شقاء ويأس إن هو لم ينجزه على الوجه المطلوب، علماً بأن الأعمال الخيرة التي تأتي عن رغبة وطيب خاطر هي خدمة جليلة يقدمها الإنسان لله.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، كيف نتصرف بالوقت ؟ يجيب الرسول بولس، أن هذا يجب أن يتم بحكمة ودراية " **انتبهوا جيداً كيف تسيرون سيرة العقلاء لا سيرة الجهلاء... مفتدين الوقت** " (أف 5: 16)، أي لا تدعوا الوقت المؤاتي لعمل الخير يفوتكم، لأن الشر قد استشرى بين البشر، وإن مدّه أخذ بالازدياد يوماً فيوماً، فيحتم الواجب والحالة هذه، وضع حاجز مرصوص يحول دون هذا المد كالتصدي له بكل الوسائل المتاحة، وأخذ الحيطة منه قبل استفحاله :

وأن وصية مار بولس بافتداء الوقت تقودنا إلى تعدي حدود السمع أو الحفظ، إلى العمل الفعلي الجاد، يؤيد هذا القديس مار يعقوب في رسالته " **كونوا عاملين بالكلمة لا سامعين فقط خادعين أنفسكم** " (يع 1: 22)، وتحقيق العمل بوصايا الله يأتي عبر الروح القدس، وهذا ما جعل الرسول بولس، في سياق حديثه عن افتداء الوقت، أن يقول للجميع " **امتلأوا بالروح القدس** " (أف 5: 18)، لأنه أمين وقادر أن يقودنا إلى أنجع الوسائل للاستفادة من الوقت كـالعودة إلى الله، وأعمال البر ونشر السلام والخ، وخير وسيلة يستعملها الروح القدس هي مد جسور المحبة بين الله والإنسان من جهة وبين القلوب من جهة أخرى مثل هذه الجسور هي الوحيدة التي لا تهتز أو تتزعزع، لأن من شأن المحبة أن توجد أحباء وأصدقاء خلّص يركن إليهم لأن الصديق يحب في كل حين (أم 17: 17) ويحرص على صداقته، وهذا يتماشى وقول مار بولس " **المحبة تصدق كل شيء** " (1 كو 13: 11)، فحيث سرت المحبة توطدت الثقة وعاش الناس بأمان، لأن الصداقة الحميمة عامل فاعل لجعل الصديق الوفي على أتم استعداد لمد يد العون إلى صديقه مهما كانت الظروف، لأن الصداقة عنده تسمو على كل الاتجاهات والاعتبارات. ومن هنا كان اختيار الأصدقاء أمراً حاسماً يتطلب التروي والدراسة العميقة كي لا يأتي بطريقة اعتباطية فتنعكس الغاية منه.

بالرجوع إلى سفر الجامعة نقرأ كيف أن الوحي الإلهي أعطى لكل شيء تحت الشمس نصيبه من الوقت (جا 3: 1)، وما يلفت النظر

في هذا التقسيم، إعطاء الوقت الكافي للأمور التي نعرفها سلبية وهذه نماذج منها :

1- " **للهدم وقت...** " وهنا نتساءل هل أن الله يشجع على هدم ما بناه هو أو ما بناه الإنسان إلى درجة أن يخصص وقتاً للهدم ؟ هل يرتاح الله للدمار من أي نوع كان ؟ بالطبع كلا، ذلك أن الله خلق كل شيء حسناً ويريد أن يبقى كذلك إلى الأبد. ومن المعلوم أن مفهوم الهدم الشائع العام لا يخدم الإنسان لا بل يتعارض مع مخططات الله من أجل سعادة الإنسان لذا نقول : أ ن الله عندما يخصص وقتاً للهدم فبالتأكيد يقصد هدم كل ما من شأنه هدم الإنسان وسعادته لا غير.

2- ".... **للبغضاء وقت** " فنتساءل كذلك هل من المعقول أن يخصص الله وقتاً معيناً لكي يُبغض خلاله الإنسان من أخيه الإنسان ؟ فالله محبة ويوصي بها للجميع حتى الاعداء، فلا يمكن أن يفتح الباب على مصراعيه أمام البغضاء إلا إذا كانت تتمثل ببعض الأفعال الرديئة اللاإنسانية التي تناهض إرادة الله، كالتي كان يأتيها الفريسيون الذين قال عنهم يسوع " **كل ما قالوا لكم أن تحفظوه فأحفظوه ولكن حسب أعماهم لا تعملوا** " (متى 23: 3)، ذلك أن أعماهم بغيضة وهي غير أقوالهم ونضيف القول بأن هذا البغض يشبه إلى حد بعيد البغض الذي قال عنه السيد المسيح " **إن كان أحد يأتي إليَّ ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وأخوته وأخواته حتى نفسه أيضاً فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً** " (لو 14: 16).

3- " **وقت للحرب....**"، مَن يقرأ هذا يتبادر إلى ذهنه لأول وهلة، أن الله يدعو إلى إثارة حروب في حين أنه يدعو إلى السلام والحياة الهادئة، ولا مندوحة للقول : أن إثارة حرب باستثناء الحرب ضد إبليس، خطيئة جسيمة في نظر الله، ومتى كان الله يشاء بالخطيئة ويحرض عليها ؟ فالحرب المعنية هنا، هي تلك التي تثار ضد الحرب والفساد، وهذا ما يتفق تماماً وما عناه السيد المسيح بكلمة " السيف " الذي قال أنه جاء ليلقيه على الأرض (متى 10: 34).

إن حياة الإنسان لا تسير على وتيرة واحدة وفي جانب واحد، لكونه مركباً من عنصرين مختلفين لكل منهما خصوصيات تتقاطع وخصوصيات الآخر، ولكل منهما وقته الخاص، فليس كل الوقت للعنصر المادي ولا للعنصر الروحي ولئن كانت كفته مرجحة لكونه باقياً إلى الأبد، فلا يجوز لواحد سلب حق الآخر.

والمهم لدى الإنسان أن لا يخسر الوقت المخصص لكل ناحية من نواحي حياته، لا سيما وقد منحه الله حكمة تمييز الأوقات (جا 8: 5)، وتقدير قيمتها. روي عن شخص أقام مدة في أحد بلدان الشرق، ولدى عودته إلى وطنه سئل عن الحياة الراهنة في ذلك البلد، فأجاب : كل شيء على ما يرام، له كرامته وقيمته باستثناء الوقت. كل ذلك لأننا هنا في الشرق اعتدنا أن نهدر الكثير من الوقت دون أية حصيلة نافعة، لذا نصح الرسول بولس بافتداء الوقت ليكون منتجاً لا جامداً لا حياة فيه.

ومن المؤسف حقاً وجود من لا يثمّن الوقت، فلا يعير له اهتماماً فيصرف المزيد منه عبثاً دون جدوى، فنراه مثلاً يمضي وقتاً طويلاً في اللهو والعبث والمقاهي أو الثرثرة الفارغة دون أن يفكر بأن من يثرثر معه قد يكون من الذين يقدسون الوقت حتى في جزئياته، وهكذا قل عن الذي لا يتقيد بالمواعيد، ولا بد أن شخصاً من هذا النمط تعوزه الجدية بسبب ضعف شخصيته أو فقدانه ونقص في وعيه، فالرجل الجاد يتمكن بحكم جديته أن يأتي أعمالاً عظيمة خلال فترة وجيزة يمضيها في الكفاح، الأمر الذي نلمسه واضحاً لدى الرسل وآباء الكنيسة العظام. فالرسول بولس مثلاً لم يكن ليتكلل جهاده بالنجاح الباهر إلا بفضل جديته في الجهاد في سبيل إيمانه بيسوع رباً ومخلصاً، فالجاد أذن يمتلك شخصية قوية تظهرها أعماله ومنجزاته ويكون جاداً أبدا ًفي كلامه، في أعماله، في تصرفاته، في عبادته، في أمانته. فلنكن جادين في حرصنا على وقتنا وعدم الإسراف فيه، قال أحد الفضلاء " **الإسراف في الوقت أسوأ عاقبة من الإسراف في المال** ".

الصـــراحـــة...

لا شيء أحلى من الصراحة. أنا صريح جداً. أني أتكلم بكل صراحة. في الصراحة راحة.

كلمات وعبارات جميلة ورقيقة وأمثالها كثير تتداول على الألسن لدى الحديث عن أية معضلة شائكة أو حديث يتعلق بأكثر من طرف، أو مشكلة يعسر حلها نظراً للغموض الذي يكتنفها أو في حالة الدفاع عن النفس في موضوع ما، فتدور الأحاديث وكأنها الحقيقة بعينها لطالما أن كلمة " الصراحة " ومشتقاتها تتراقص على الألسن في حين أن اللسان ينطق بما يشاء ويهوى ويهدف، فينمق الكلمات ويطيبها ويلينها كي تدخل المسامع بطمانينة ومن دون استئذان، يقول (س) من الناس، أني سأتكلم بصراحة ولا أخشى لائمة لائم، ليس لي شيء أخفيه

فما أقوله هو الواقع. غير أن قلبه وليس قلب غيره يقف حائراً بل ساخراً مما ينطق به اللسان لأنه على يقين تام من أن خزينه هو غير الذي ينطق به ويسمع فحين ينطق اللسان كلمات حب متجذر في أعماق القلب حب لا نظير له، إذا بالقلب يتمعن لوحاته فلا يجد سوى الحقد والبغضاء والخداع. وإذا نطق اللسان " الصريح " بما يوحي بالجنوح نحو السلام والوفاق، إذا بالقلب يفتش في لوحاته المنقوشة فلا يجد سوى لوحة نقش عليها حب الانتقام والنفاق وهكذا دواليك.

هذا هو الواقع المرير الذي يعيشه معظم الناس وفي أغلب مجتمعات العالم، ولو تمعّنا قليلاً لوجدنا أن الأمر ليس شيئاً جديداً. فقد واكب هذا الواقع مسيرة البشر منذ البداية، مع بعض التفاوت. فهذا إبليس مثلاً يدنو من الإنسان الأول ويتحدث إليه بكل " صراحة " وبدافع من حب عميق كزعمه، فيعرض عليه رأيه " السديد " الذي يؤول إلى مصلحته ومستقبله الباهر. فينبهر الإنسان بهذه " الصراحة "، وإذا به يسقط في شباك صديقه النصوح الصريح، فيعاني ومازال يعاني من نتيجة تلك الصراحة والنصيحة " الأخوية "، وما أكثرها اليوم. غير أن الجديد في هذا الواقع المرير هو أن كيله قد طفح، وغدا صفة ملازمة للإنسان، قلّما نجد من تنزّه عنها. في الماضي كانت البساطة مستحوذة على قلوب الناس، وبالرغم من أن الكثيرين يبلغون من العمر عتيّاً، إلا أن سيرتهم تظل سيرة الأطفال البريئة، نظراً لروح البساطة التي يتحلون بها. فلم يكن مجال للخداع والمناورة بشكل واسع كما هي اليوم، لكي

يتحدث الإنسان بشيء ويضمر شيئاً آخر معاكساً تماماً. وإذا ما وجد شيء من الخداع فعلى نطاق محدود. ترى ألم يوصِ الرب يسوع بمثل هذه البساطة من أجل الدخول إلى ملكوت الله ؟. وأن ما يؤسف له حقاً، أن يرى البعض هذه البساطة جهلاً وغباءً فيسخرون منها مشيدين بالتقدم الحضاري، وبمستلزماته التي لا يرون بأساً في أن تتضمن ولو قليلاً من الغبن وظلم الآخرين ! ليس من ينكر هذا التقدم وما يأتيه من مآثر ومعطيات للإنسان ، وليس من ينكر أن الأيام تبدلت ومفاهيم الحياة تطورت من مختلف النواحي، الأمر الذي لا يتفق والبساطة التي تعني السذاجة، لكن البساطة التي نتحدث عنها هنا، لا تعني بأي شكل من الأشكال، الجهل والسذاجة، إنما هي تلك الحالة التي تحتضن المبادئ الخلقية والروحية والمُثل العُليا، وتحاول دوماً كبح جماح غرائز الإنسان التي تدكّ المبادئ الأخلاقية، أنها التعبير الصادق عن العلاقة الوثقى بين الله والإنسان، تلك العلاقة التي تفتح آفاق السلوك السوي في هذه الحياة، وتقود الإنسان إلى أن يفكر ليس بما هو لذاته فحسب، بل ما هو للآخرين أيضاً. هي تلك الحالة التي أشار إليها قداسة البابا يوحنا بولس الثاني بقوله : **أن الناس يشعرون اليوم بحاجة للرجوع إلى نمط حياة بسيطة كشرط لكي يصبح التقاسم العادل لثمار خليقة الله واقعاً،** وعلينا أن لا ننسى الأخطار الأدبية والروحية التي يتعرض لها من يستسلم لمغريات العصر التي جاءت بها المدنية المعاصرة، لا سيما في ما يخص المثل والقيم الإنسانية، كما لا ننسى أيضاً أن في غمرة هذه المدنية، زاد جوع

شعوب العالم، وسُلِبَت راحتها، واستنزفت روحانيتها، بسبب الشهوة الجامحة إلى المادة التي لم تعد ترتوي منها أبداً.

نعود إلى موضوعنا (الصراحة) الذي يبدو بأننا قد جنحنا عنه بعض الشيء فنقول : قد يمتلك البعض فعلاً يسيراً من الشجاعة الأدبية تمكّنه من التكلم بصراحة آنية وفي ظرف خاص، ولكن ليس دائماً وفي كل الظروف. فقد يصرّح المرء بأشياء ثانوية، وفي الوقت نفسه يخفي الأشياء الجوهرية، ويدّعي الصراحة. وهنا نتساءل، مَن هو الصريح ؟ والجواب : هو الإنسان الذي لا يعرف الكذب إليه سبيلاً، وقد خلا قاموس حياته من جميع مفردات هذه الكلمة اللعينة، فمثل هذا يكون حقاً في عداد القديسين، فالقديسون صريحون مع الله ومع الإنسان ومع ذواتهم. يقول الرسول بولس " **أقول الحق في المسيح لا أكذب** "، فقد كان صادقاً عندما صرّح لأهل رومية بأن له حزناً عميقاً في قلبه من أجل أنسبائه في الجسد، متمنياً لو حرم هو من المسيح لكي يحيوا هم فيه (رو 9: 1). وغالباً ما نسمع مثل هذا التصريح من هذا وذاك، غير أنه يختلف في القصد، فلا يتعدى كونه سلعة للاستهلاك ولتمرير الرغبات والمقاصد السيئة، إذ لم يعد في أفواههم صدق (خر 5: 9). سمعت قصة مفادها أن شخصاً قصد رجلاً عاقلاً طالباً نصيحة تقيه شر السقوط في المنكرات، فقال له : كن صريحاً، فلا تكذب، فوعده بذلك. وكان كلما فكّر في ارتكاب جريمة أو أتيان منكر، يتذكر وعده بأن يكون صريحاً، فيتراجع عمّا نوى عليه.

إن محنتنا نحن البشر، تكمن في الخوف الرهيب الذي يملأ كل جوارحنا، فلكي نغطي على الحقيقة التي قد تكون مرّة، نظهر بعض الشجاعة المزيفة لكي نظهر أبراراً أمام الناس وليس أمام الله طبعاً، وذلك أن أبناء هذا الجيل لم يعد يهمهم أن يكونوا أبراراً أمام الله، كما يهمهم أن يكونوا مرضيين لدى البشر، لذا تراهم يتسابقون في ميدان صياغة الكلمات المعسولة والألفاظ المنمقة تُرضي سامعيهم، سواء أرضت الله أم لا.

معـــاقـــون...

ليس العوق الحق، أن يولد المرء متخلفاً عقلياً أو أن يفقد عضـواً هاماً من أعضاء جسده، أو أن يصاب بالعُته وما إلى ذلك من الأدواء التي يعتبر المرء، في نظر الناس، معاقاً إذا ما أبتلى بأحد منها وحرم متعة الحياة. ولا ريب فأن كثيرين قد حرموا أسباب الحيـاة مـن جـراء ذلـك، ولكـن بالرغم من هذا، تراهم يصارعون الزمان ويصمدون رغم كل ما يعانون، ورغم العقبات التي تعترض سـبيل حيـاتهم. بـل أن العـوق بمعنـاه الدقيـق يكمن في تصرف الإنسان تصرفاً شاذاً منحرفاً غير مسؤول، وهـو سـليم الجسم والعقل والفكـر، وفي حديثنـا هـذا المقتضـب سـوف نركـز علـى العوق الحق الذي يختلف تماماً عــن العـوق النـاتج عـن نقـص جسـماني، لنرى أياً من هذين النوعين هو العوق الحق.

فإذا كان المعاق بالمفهوم العام يلقي تعاطفاً وعناية ورعاية، حيث تمتد إليه يد حانية ويحاط بجلبات الحب والعطف من قلوب ملأها الله بالحب الغامر، ونفوس تتدفق شعوراً إنسانياً، لكيما يجعلوا السرور يدغدغ أوتار نفس معذبة، فأن المعاق من الصنف الثاني لا يلقى سوى العزلة والنبذ والمقت.

فقد يسخِّر الله إنساناً من رجال الدين أو العلمانيين ممن يستطيبون عمل الخير والبر، فيندفعون مسوقين بروح الخدمة والمحبة مستندين في اندفاعهم لسكب محبتهم وحنوهم لأناس حرموا بعض جوانب الحياة : إلى تعليم الرب يسوع " **لأني جعت فأطعمتموني وعطشت فسقيتموني ومريضاً فزرتوني وسجيناً فجئتم أليَّ** " (متى 25)، ومن أجل هذه الغاية، دفعت العناية الإلهية بمن يحملون رسالات إنسانية إلى أن يؤسسوا جمعيات خاصة بالمعاقين وينشئوا المعاهد لتعليمهم ورعايتهم ولئن على نطاق ضيق نسبياً، ودوراً تأواهم حيث يجدون الدفء والطمأنينة، فهذه معاهد الصم والبكم، وتلك للمتخلفين عقلياً، وأخرى لمن فقدوا نعمة البصر وهكذا دواليك.

وهناك دافعان يقفان وراء مثل هذه الأعمال الإنسانية، الأول هو الدافع الديني الذي يرى أن هذه الأعمال تعبر عن عمق المحبة التي تنشدها الأديان وبخاصة السماوية منها، ذلك أن المحبة تهدم الحواجز بين الأسوياء وغير الأسوياء، وتمد جسور العطف والحنان بين القلوب لتجعل من هذا الأخ المعاق يشعر بأنه إنسان ذو كيان مخلوق على صورة الله مثل

الأسوياء تماماً ولئن قسا عليه الدهر، وأنه فرد من المجتمع ولئن كان شعوره هذا ناقصاً بعض الشيء، أما الدافع الثاني فهو الدافع الاجتماعي، وهذا ما نلاحظه في المجتمعات التي تعطي للإنسان، أي إنسان، قيمة وتصون كرامته مهما كانت حالته الصحية. ولو قارنا بعضاً من هؤلاء (المعاقين) بفئة من الناس لا يعتبرون كذلك، لوجدنا الأمر معكوساً تماماً، أي يظهر أن المعاق هو السوي، والسوي هو المعاق الحقيقي، فهذا مثلاً شاب لا يقوى على مبارحة كرسيه المتحرك، يبدو البشر دوماً في وجهه لا تفارق الابتسامة شفتيه، يغذي نفسه من دسم كتاب الله المقدس ومعطيات أفكار الآباء القديسين، فينظم الأناشيد الروحية العذبة ويلحنها ويعزفها على أرغنه الموضوع على ركبتيه ويقود أكثر من جوق ترتيل كنسية، أنه عطاء روحي ثر خليق بالاعتزاز، وذلك شاب آخر بصير، يقارع العوق ويكافح بضراوة وبشتى الوسائل مستغلاً ما حياه الله به من ذكاء للخير، وإذا به يتصدر الأدباء أو الفلاسفة أو الموسيقيين، وأمثال هؤلاء كثيرة، وبعكس ذلك نرى شباباً في قمة الصحة الجسدية وأوج العافية، مفتولي العضلات فارعي القامات، أقوياء أشداء ولكن لا عمل لهم سوى التسكع في الشوارع والطرق ومعاكسة هذا وتلك دون حياء أو خجل، لا بل يذهبون إلى أبعد من هذا فيتمرغون في حمأة الرذيلة دون خوف أو وجل، ضاربين عرض الحائط كل القيم الدينية والاجتماعية والأخلاقية، متناسين معاناة أهلهم من أجل تربيتهم وأعادتهم، أو ينسون أنهم يشكلون بأعمالهم هذه عاراً على عوائلهم، ولا يأبهون بالنصيحة أو

يرضخون إلى تأنيب الضمير ووخزه، أو حتى الإصغاء إلى صوته الصارخ في داخلهم كي يحيدوا عن طريق الشر. لا بل يقاومون آباءهم كما فعل ابشالوم بن داود النبي الذي تآمر على قتل والده (2 صم 13).

فأن أمثال هؤلاء عوضاً عن أن يضعوا لبنة في صرح المجتمع، إذا بهم يعملون فيه بمعاولهم الهدامة. ترى من المعاق هؤلاء أم أولئك الذين تغلبوا على عاهاتهم الجسدية ؟؟؟.

وهناك فريق من الناس لا يدركون أن ما بحوزتهم من خيرات هي هبة من الله وعليهم أن يقتسموا مع المحتاجين، لكنهم يحجزون عليها ويقترون حتى على أنفسهم، ولا يعرفون، أو يريدون أن يعرفوا، أن الله يفضل الرحمة على الذبيحة، هؤلاء الذين يطلق عليهم المجتمع كلمة (البخلاء)، صدقوني أني شاهدت شاباً معاقاً جسدياً، أعطي قطعة من الحلوى، وقبل أن يتذوقها إذا بضيف يزور مركزهم، فيتقدم نحوه ويقدم له تلك القطعة. ترى من هو المعاق ؟ البخيل أم ذلك الشاب الذي يعتبر معوقاً، فيما يعتبر البخيل سوياً. اللهم أبعد عنا العوق الروحي والمعنوي قبل العوق الجسدي وقُد المعوقين بالروح إلى طريق الصواب والرشاد.

غنى... وغني

من الأخطاء الشائعة لدى البعض، اعتقادهم بأن السيد المسيح يرجح في تعاليمه كفة الفقر على الغنى بمفهومه الاجتماعي كأنما هو شر يجب مكافحته، مستندين في ذلك إلى كونه عاش ومات فقيراً إلى درجة أنه لم يكن له أين يسند رأسه (مت 8: 20)، وأنه طوب الفقر، واختار معظم تلاميذه من بين صفوفهم، وندد علنا بالأغنياء، وهكذا يكون قد دعا إلى حياة الفقراء. بيد أننا لو أمعنا النظر في مواقف الرب من هذه الناحية لأدركنا مدى خطأ هذا الاعتقاد. فالمسيح يبيت عند غني (زكا العشار)، لأنه يعطي نصف أمواله للفقراء، ويختار عشاراً غنياً رسولاً له (متى)، ويشيد ببعض الآباء الأغنياء كأبينا إبراهيم، ويسمح لغني (يوسف الرامي) أن يقوم بمراسيم تجنيزه ودفنه. فمن هذه المواقف وسواها نستدل

أن الرب يسوع لا يعتبر الغنى المادي الاجتماعي شراً بحد ذاته، ولا يفضل الفقر ولئن أنتصر فعلاً للفقراء، وهذا حق فالفقير يجب أن ينتصر وبخاصة عندما يكون مظلوماً ولا ينتقص من كرامة الأغنياء الذين يدركون كيف يتحكمون بثرواتهم لتكون أداة طيعة يسخرونها لأهداف إنسانية ومبرات خيرية ومشاريع تؤول إلى خدمة البشرية، فليس أمراً غريباً الجمع بين الغنى المادي الاجتماعية وحياة البر والنبل، وخير دليل على ذلك، يوسف الذي سلطه الله على كل ثروة مصر، ولم ينحرف عن أمانته لله قيد أنملة. فالغنى المادي الاجتماعية نعمة وهبة بل مكافأة من الله، إذا ما أدرك الغني ذلك وتصرف بها بوحي من ضمير حي، ألا نقرأ في الإنجيل المقدس أن عذارى غنيات كن يخدمن رسالة يسوع بأموالهن، كما يفعل بعض الأغنياء الأتقياء في عصرنا الحاضر، عصر المادة فينفقون أموالاً طائلة لنشر كلمة الله بشكل أو آخر، ويمدون بسخاء يد العون لسد حاجة إخوانهم المعوزين، أو يمولون مشروعاً كنسياً يتمجد به اسم الرب. أن الكتاب المقدس يعتبر مثل هذا الغنى بركة "**طوبى للرجل الذي يتقي الرب ويهوى وصاياه، يكون المال والغنى في بيته**" (مز 112: 1). فالأموال التي يكون هدف مالكها مثل هذا، هي خير وفير ولا تتنافى حتى مع الغنى الروحي.

لا ريب أن الرب يسوع ندد بالأغنياء، ولكن أي أغنياء ؟ ليس كل الأغنياء كما نوهنا، بل أولئك الذين يجمعون المال من أجل المال نفسه إلى درجة أنهم يتخذونه إلهاً من دون الله، وتستبد بهم الأنانية إلى

حد التخمة حتى تغدو بطونهم آلهتهم (في 3: 19)، فيخزنون الأموال في خزائن حديدية أو خشبية أن تلفحها أشعة الشمس الحارة أو يلسعها برد الشتاء القارص، فلا يستفيدون منها ولا يفيدون، أولئك الذين لا يسمحون للرحمة أن تطرق أبواب قلوبهم، وأن تجرأت وفعلت أعادوها بخفي حنين، مثل الغني الذي لم يَجُد على لعازر حتى بالفتات الساقط من مائدته، ومثل ذاك الذي وصفه السيد المسيح بالغني قيل له " **هذه التي أعددتها لمن تكون** " (لو 12: 20).

وإزاء الغني المادي، هناك الغنى الروحي الذي رفع المسيح شأنه عالياً " **اكنزوا لكم كنوزاً في السماء** " (متى 6: 20)، أنه غنى الإيمان الذي حث المسيح على السعي وراءه بأمثال ضربها، كمثل اللؤلؤة كثيرة الثمن، وغيرها كثير، أنه غنى الفضائل الإنجيلية التي تضع الإنسان في مركز متميز وتجعله من أبناء الله، فغنى القناعة مثلاً إذا اجتمعت من الإيمان والتقوى كانت كنزاً عظيماً وتجارة رابحة (1 تيم 6: 6)، أنه الغنى الذي قال عنه الرسول بولس" **نحن فقراء (بالغنى المادي) ولكننا نغني الكثيرين بالروح** " (2 كو 6: 10) من فيض الكلمة والإيمان هذا النوع من الغنى يحث الكتاب المقدس على اقتنائه، لكونه الغني الباقي إلى الأبد...

المساومة

المساومة أصلاً نمط من أنماط التعامل التجاري، وهذا أمر مألوف لا غبار عليه، لكن في عصرنا الذي نعيشه اليوم، شئنا أم أبينا، طالت المساومة مناحي حياتية أخرى، وأحياناً حتى عواطف الإنسان، ولئن كان ذلك مناهضاً للشرائع السماوية والأدبية والاجتماعية والأخلاقية، ذلك لأن نطاق مفارقات الحياة قد اتسع إلى حد فاق الحدود، فكثرت المساومات وتعددت أهدافها ومقاصدها، لا سيما الرخيصة منها، وتكاد روح المحبة والعطاء الذاتي تتلاشى وتغيب عن مسرح الحياة والمجتمع. فالكل ينتخي ما لذاته فقط، وينسى وجود إلى جانبه من هو بحاجة إليه وإلى غيره. ولا سبيل له ليساوم على حاجة ما تمسه. أما المعطي فلم يعد يفعل إلا بمقابل، لا بل يفرض إرادته في نوع هذا المقابل، أو يساوم عليه

في أضعف الإيمان. أما القيم فقد قُرئ عليها السلام. لماذا ؟ لأن الإنسان لم يعد ينظر إلى الآخرين بمنظار الخير والعطف والحب، كما كان في الماضي، بل يراهم بمنظاره الخاص فقط الذي لا يتعدى ذاته، وما ذلك إلا لأن البشر زاغوا وفسدوا وليس من يعمل صلاحاً ولا واحد (مز 14: 3). حقاً قد زاغوا عن جادة الحق والصواب، زاغوا عن الخطط التي رسمها الله لأجل سعادة الإنسان، كل إنسان دون استثناء. لأ ن الله لا يخلق إناء للكرامة وآخر للهوان (رو 9: 21) ولا يريد أن يُسعد البعض على حساب البعض الآخر. فالبشر عنده سواسية فلا تفضيل الواحد على الآخر، إلا بما يأتيه من أعمال مرضية صالحة، وبنوع السيرة التي تتبناها المرء في حياته ولا ينحرف عنه أو يزيغ في كل الظروف والأحوال، فالمؤمن مثلاً السالك طريق الآباء والأجداد السوي، لا يغتر بما يقدم له من مال في سبيل الزيغان عن ذلك السبيل القويم، علماً منه بأن الرب يبغض الزيغان (مز 101: 3) الذي غالباً ما يكون صادراً عن قلب معوج شرير لا يرضاه تعالى.

رب سائل يقول : هل كل مساومة مهما كان نوعها غير مشروعة وهي مكرهة عند الرب ؟ كلا ولا ريب، فهناك مساومات مشروعة يكون فيها القاسم المشترك هو الرضى بين الطرفين المساوَمين ومصلحتهما ولا سيما في ميدان التجارة، أو أي شئ آخر ضمن نطاق المعقول والمقبول، لا غبن فيه لأحد ولا ظلم، ولا محاولة ابتزاز الغير وبخاصة الذين يخضعون للأمر الواقع مكرهين، نظراً لحاجتهم الملحة أو

ضعفهم. إما أن تكون المساومة لصالح طرف دون الآخر، أو لفئة دون الأخرى، أو على حساب هذا أو ذاك. فهذه مسألة فيها نظر، حيث تنتفي فيها الأخلاق وتطعن العدالة في الصميم وتضرب المحبة عرض الحائط. كل ذلك لخلو جعبة المساومين الأقوياء من كل أنواع القيم الإنسانية والأخلاقية والمبادئ السماوية التي تُعطي من أجل صيانة الكرامة الإنسانية.

وفي حالة المساومات غير المتعادلة، لا بد من وجود جهة خاسرة وبعبارة أدق مظلومة. وغالباً ما تكون من المستضعفين الذين لا حول لهم ولا قوة. وهنا يتضح انتهاك صارخ لحقوق الإنسان، وأن ضمان هذه الحقوق هي مسؤولية البشر كافة وليس فئة معينة. ففي الشؤون السياسية مثلاً تنتهك حقوق الإنسان باسم حقوق الإنسان، فالضعيف أو الفقير لم يعد إنساناً بالنسبة إلى أصحاب النفوذ والقوة، الذين يتوهمون بأنهم يمتلكون كل شيء، وأن بخسهم لحقوق الإنسان هم حق شرعي لهم. وكأننا نعيش تحت ظل قانون الغاب الذي يعطي الحق للأقوى دون مراعاة مشاعر الآخرين وحقوقهم، بل هم في نظرهم كالهوام لا حق لهم حتى في الدفاع عن أنفسهم. وهذا ما يتنافى والمبادئ المسيحية التي تعلن أن الحق والعدل مثلاً زمان دائماً بكونهما يشكلان القاعدة الراسخة التي يرتكز عليها كرسي الله (مز 89).

أما صاحب الأمثال فيرى أن القليل المقترن بالعدل خير من دخل جزيل بدون حق (16). والرسول بولس أيضاً لم يفته الحديث عن أهمية

اقتران الحق بالعدل فيقول " **أيها الأخوة كل ما هو حق، كل ما هو عادل، كل ما هو طاهر، كل ما هو مُسِر كل ما صيته حسن... ففي هذا افتكروا** " (في 4: 8-)، مؤكداً أن في هذه الحالة سيرافقهم إله السلام.

المسيح والمساومة :

إنها تعاليم جديدة تسمو بالإنسان، تلك التي أتى بها يسوع المخلص، الأمر الذي أشعل نار الحقد والكراهية ضده، ليس من إبليس عدو الإنسانية فحسب، بل بالنسبة إلى أعوانه في هذا العالم من جهة أخرى، أولئك الذين رأوا في آراء يسوع معولاً هداماً لمصالحهم الدنيوية. لا سيما الفريق منهم الذي كان يتظاهر بأنه من السعاة إلى الشؤون الروحية. والذين بذلوا كل جهدهم في سبيل عرقلة مسيرة بشرى يسوع، بشتى السبل ومنها المساومة. غير أن يسوع يرفض رفضاً قاطعاً هذا الأسلوب الرخيص. نلاحظ هذا في مواقع متعددة من الإنجيل المقدس، حيث تتغلب قوة المبدأ لدى يسوع على كل المغريات والمساومات التي لم تكن سوى مؤامرات استهدفت الانتقاص من مصداقيته وترفعه عن الصغائر " **إن كنت ابن الله فقل لهذه الحجارة أن تصير خبزاً** " (متى 4: 3)، كانت هذه أول مساومة عرضها إبليس لدى معرفته بأن المسيح قد جاع ظناً منه أن يسوع سيوافق كما فعلت الأم الأولى (حواء) في الفردوس. وقد تلقن زعماء اليهود الروحيون هذا الدرس من معلمهم

إبليس، فأخذوا يطرحون مثل هذه المساومة أو أعنف " **أية آية ترينا لكي نؤمن بك** " (يو 6: 30). والمساومة الأكثر وقاحة كانت تلك التي قدمت له على الصليب. " **إن كنت ابن الله فأنزل عن الصليب...** " (متى 27: 43)، مستغلين نقطة ضعف فيه كما توهموا، غير أنه وهو في أحرج الظروف رد كيدهم إلى نحرهم رافضاً هذه المساومة والعرض المقدم فيها والذي يتلخص بالإيمان به في حالة موافقته (...لنؤمن بك متى 27). لكنه رفض إذ رأى أن الألم هو باب الدخول إلى المجد.

فمتى ترى كان الإيمان النابع من القلب موضوعاً للمساومة ؟ غير أن الأمور اختلفت اليوم وانقلبت موازين القيم، فأخذ الإيمان ينحسر عن القلوب ليستقر على الشفاه فقط فيغدو أهلاً للمساومة بالمادة خاصة أو بعض المغريات الأخرى. فيقال لضعيف الإيمان، لك كذا من المادة، أو المنصب الفلاني، أن أنت أعلنت عقيدة جديدة أو إيماناً غير الذي عهدته ولئن كان يخالف ضميرك أن كان مازال حياً. أو الذي تستهويه شهوة المال أو أي نوع آخر من مقتنيات هذا العالم، " **أعطيك هذه كلها إن خررت وسجدت لي** " (متى 4: 9)، وقد تناسى أن المسيح رفض الملك الأرضي جملة وتفصيلاً ويرفض هذا النوع من الملك في أية فترة من الزمان كانت، لأنه ملك السماء والأرض، فكيف يرضى أن يكون ملك الأرض فقط !؟

ولكن ما يؤسف له أن يصبح الأصفر الرنان، الكلمة الفاصلة في المساومة حتى في الشؤون الإيمانية والروحية. أو ليس من باب المساومة

قتل إنسان ما من أجل دريهمات قليلة. سواء كان القتل جسدياً أم روحياً. أو ليستِ المساومة في ما يخص الزواج رخيصة وتافهة مقارنة بقدسية وسرية الزواج المسيحي والذي يتركز قبل كل شيء على المحبة ؟ لا سيما من بعض النواحي الثانوية كالمساومة على مكان وكيفية الاحتفال به. لا نشك في أن الذي يملأ الإيمان قلبه يرفض كل المساومات والمغريات كما فعل القديسون والشهداء من آباء الكنيسة، الذين لم يساوموا على الإيمان اقتداء بمعلمهم شهيد الجلجلة رفضوا المناصب العليا في البلاطات الملكية والأموال الطائلة مؤمنين بأن هذا العالم لا يتعدى كونه شهوة جسد عابرة وعظمة فارغة (1 يو 2: 16).

لِمَ التدخل ؟

التدخل بشؤون الآخرين هواية غير مرغوب فيها، يهواها فريق من الناس الذين لا يعنيهم شيء سوى الظهور أو إلحاق الأذى بالغير. ومن هنا فلا بد أن يشعر المُساء إليه بنوع من الإذلال عندما يتدخل أحد في خصوصياته متطفلاً ليس إلا، ومن البديهي أن يولّد الشعور بالإذلال نوعاً من الحقد والكراهية ومن ثم التفكير بالانتقام للإرادة المهدورة، ذلك أن التدخل في شؤون الغير بلا مبرر يعتبر مساً في الشرف وإهانة للكرامة، وبخاصة إذا كان القصد من التدخل هو الانتقاص من شخصية الفرد وتحجيم حريته ومن ثم فقدان الإنسان لشخصيته وكرامته. وهذا ما يحصل ليس فقط بالنسبة إلى الأفراد، بل إلى الشعوب أيضاً، عندما تتدخل دولة بشؤون دولة أخرى لأغراض سياسية ومطامع

نفعية، ومن دون ذلك الشعوب الضعيفة التي تحتل من دولة أو دول عظمى. فقد يتمادى المحتل في تصرفات شاذة بعيدة عن الروح الإنسانية فيشعر المحتلون انهم مسلوبو الكرامة، بل وكانهم عبيد لأسياد ظالمين.

فحب التدخل في شؤون الغير دون مسوغ أو تكليف بقصد شريف، هو خلة مقيتة غير مستحبة في نظر السماء والأرض، لكون مثل هذا التدخل لا بد أن تكون له تداعيات ضد الإنسانية. ومما يؤسف له حقاً، أن هذه الخلة شاعت اليوم بشكل رهيب في مختلف المجتمعات إلى درجة أنها أصبحت جزءاً من حياة معظم الناس، الذين يحاولون مصادرة حرية الشخص، في حين أن الله سبحانه وتعالى خلق ومنذ البدء، الإنسان حراً في اختياره وسلوكه الذي لا يرى فيه غضاضة. ولكن هي الهواية الشريرة تأبى إلا أن تنغص حياة الناس رغم أن الفعل الشرير لا يخفى على الله ولئن تم في الخفاء **" لا تقل سأختفي من و جه الله فمن سيذكرني في السماء... أن أفعال البشر أمامه كل حين فهي عن عينيه لا تخفى "** (ابن سيراخ 16: 17 و 17: 11).

فالتدخل في شؤون الآخرين أو التطفل لمعرفة ما هو لهم يتولد من خلة حب الاستطلاع أن هو إلا المرحلة الأولى للتدخل غير المرغوب فيه، لطالما أ ن الله خلق الإنسان له شؤونه الخاصة، وميوله الخاصة وأفكاره الخاصة ورؤيته الخاصة للأمور لا تعني الآخرين بشيء، بل هي خصوصيات شخصية وقد تكون له أسرار لا يود الكشف عنه، في حين أن الذي يحشر نفسه في شؤون غيره لا يروم من وراء ذلك سوى

الإضرار به أو إثارة فتنة، ومن المعلوم أن من يزرع فتنة يحصد موتاً. وهذا أمر يقره كل إنسان سوي يعرف نفسه ويحترمها، كما تقره المجتمعات التي تأسست على احترام الغير والرأي الآخر، محافظاً على كرامة الإنسان مهما كان موقعه الاجتماعي.

فليس لأي كائن بشري التدخل في شؤون غيره إلا في حدود معينة ولصالح هذا الغير، اعتماداً على مدى العلاقة بين الشخصين والدالة المتبادلة بينهما. فالأب مثلاً قد يكون له الحق في شؤون ابنه إلى حد ما لا سيما إذا كان الابن قد بلغ شأواً بعيداً من النضوج العقلي والفكري، وغدا بإمكانه التمييز بين الزين والشين، بين ما ينفعه ويصلح له وبين ما هو عكسه، ولكن ليس للأب التدخل أكثر من حد المعقول، لئلا يفهم تدخله من قبيل فرض الرأي والسيطرة وهذا ليس مقبولاً، لا سيما إذا كان الأمر يدور حول مستقبل الابن من حيث تكوينه أسرة عن طريق الزواج. بيد أن هذا لا يعني أن ليس للأب حق النصيحة والإرشاد والتوجيه السليم فيما يخص اختيار شريك الحياة، لكون الأهل أكثر خبرة من الأبناء بهذا الصدد، فلهم أن يكشفوا الخلل أو معايب الطرف الآخر إن وجدت، وبخاصة المعايب غير الظاهرة، ولهم أن يكشفوا للأبناء أموراً مستقبلية قد تحدث عن غير صالحهم ربما قد مروا بها في حياتهم ويودون أن لا تتكرر في أبنائهم، فخبرة الحياة ذات قيمة وأهمية كبرى. وإن موقفاً مثل هذا لا يدخل في نطاق التدخل السيء لطالما يعبر عن محبة الوالدين لأبنائهم.

قد يتدخل شخص في شأن الآخر بنية حسنة دون أن ينوي شراً في قلبه فيكون تدخله هذا من باب حب الاستطلاع فقط، لذا لا يعتبر بدرجة التدخل السيء النية، ولكن رغم ذلك قد يخلق بعض المشاكل غير المقصودة، ومهما كان الأمر، فالمشكل يظن مشكلاً ولكل مشكل نتائجه.

ولئن تحدثنا عن التدخل بين أفراد الأسرة الواحدة، غير أن ما يعنينا في هذه العجالة، هو التدخل غير السليم النية، علماً بأن كل عمل يأتيه الإنسان بنية شريرة غير حسنة هو مكرهة في عيني الرب " **الرب يبغض كل رذيلة والذين يخافونه لا يحبونها** " (ابن سيراخ 15: 13) ومثال عن هذا النوع من التدخل، تدخل البعض بصورة مباشرة أو غير مباشرة في شؤون عائلية لا صلة قربى تربطه بها، لا لغرض مدّ جسور المحبة والوفاق بين الطرفين، إنما لغرض زرع الفتنة وتوسيع شقة الخلاف. أما إذا كان التدخل لغرض شريف وغاية إنسانية هي التوفيق بين الفريقين وقلع بذور الفتنة للعودة إلى الحياة الزوجية المنشودة، فهذا لا يدخل ضمن التدخلات السيئة.

نقرأ في إنجيل لوقا أن واحداً من جمهور المستمعين إلى يسوع وهو يلقي تعاليمه السماوية، سأله " **يا معلم قل لأخي أن يقاسمني الميراث** "، وهو يعني السماح ليسوع التدخل في ما بينه وبين أخيه، فيرفض يسوع التدخل في شؤون لا علاقة له بها، فأجابه : " **من أقامني عليكما قاضياً أو مقسماً** " (لو 12: 14)، وكأني به يقول : أن هذا

شأنكما وليس شأني، وأراد من ذلك أن يلقنه درساً في عدم وجود أية علاقة بين الغنى الروحي والغنى المادي. فما يطلبه يسوع هو الحياة الروحية وهي الأفضل. ومن هنا لم يخل كلامه من ملامة للسائل. وما يؤسف له أن الكثيرين من المؤمنين وحتى من الموجهين يعطون أهمية أفضل للحياة المادية دون الروحية التي ينشدها الله. فكل شيء بالنسبة إليهم هو المزيد من الغنى المادي حتى لو كان على حساب الغنى الروحي. لهذا حذر يسوع السامعين من الطمع الذي قد يقود إلى ارتكاب أبشع الجرائم.

في الغالب فأن التدخل يكون خلة في طبيعة المرء في داخله، فليس بالإمكان استئصال هذه الخلة إلا من قِبَل صاحبها لكونها شأناً داخلياً، فما عليه إلا أن يصلح هذا الخلل ليعود إنساناً سوياً ومواطناً صالحاً. والمصيبة هي لدى التدخل في شؤون الغير دون أي مبرر، ودون وخز من ضمير، لاعتقاده أن سلوكه هذا مستقيم " **طريق الأحمق (الجاهل) قويم في عينيه** " (أمثال 12: 15). فمن كان هذا شأنه فمن الصعوبة بمكان تغيير ما في داخله وتقويم سلوكه. ومن نكد الدهر أن يُرى أناس يودون الوصول إلى أهداف لهم بأية وسيلة كانت حتى ولئن اقتضى الأمر سلوك الطريق المنحرف، فيحاول البعض تحقيق هدفه بإلحاق الضرر بالغير، فيظهر بمظهر المستقيم في سلوكه وأخلاقيته، لكنه يضمر سوءاً لقريبه، وقد غاب عن باله أن الله سبحانه وتعالى لا يدين أحداً بحسب الظاهر، بل بحسب النية. فإذا كانت النية سيئة أدانه الله.

ومن المضحك المبكي، وجود من يحاول التدخل ليس في شؤون الإنسان فحسب، بل وفي شؤون خالق الإنسان، كأن يقول مثلاً لماذا لم يفعل الله كذا وكذا، لماذا لا ينتقم من الظالم فوراً، لماذا لا يصنع معجزة ليقضي على العابثين وسفاكي الدماء الزكية، وقس على هذا (مئات اللماذات). يقول الكتاب في مثل هذا الموقف " **لا تجرب الرب إلهك** " (متى 4: 7). أما أن ينتقم الله من الظالم فوراً، فهذا شأنه وفكره يتسامى عن فكر البشر.

ورد في كتاب كليلة ودمنا على لسان بيدبا الحكيم الفيلسوف " **من يتدخل في أمر لا شأن له به يناله الأذى** " أن التدخل في شؤون الغير يعني مصادرة حرية الشخص، هذه النعمة التي وهبها الله للإنسان مذ أوجده في هذا الكون. وهذا ما يلاحظه كل مراقب في استعمار دولة قوية لدولة ضعيفة فتخسر الضعيفة كل مقومات حياتها الكريمة فترى نفسها ضائعة في هذا العالم، وحياتها معدومة. أبعدنا الله عن التدخل في شؤون غيرنا.

لا تعد تخطئ

بهذه الكلمات اليسرة، أعطى يسوع درساً بليغاً ليس فقط للرجل الذي أقعدته الخطيئة ثماني وثلاثين سنة، بل هو تحذير عام وشامل لكل الأجيال. محذراً إياه من العودة إلى الخطيئة بعد أن حرره منها ومن المرض الذي سببته. لأن المسيح لم يأتِ إلى عالمنا ليجسد الرحمة لبني البشر فحسب، بل جاء أيضاً منقذاً من الشر والخطيئة، وقد حذر من تكرار السقوط في الخطأ بمقولته الخالدة لذلك المقعد بعد منحه الشفاء " **هوذا قد عوفيت فلا تعد تخطئ** "، لا ترتكب الخطأ الذي أدى بك إلى التعاسة والشقاء، فعليك أن تتخذ من سقوطك عبرة لحياتك لكي تحيا بعافية وسلام وطمأنينة.

أم الحياة مدرسة، وكلما توغل فيها المرء، كلما أضاف دروساً جديدة إلى التي تلقنها في مرحلة سابقة، ومن البديهي أن تختلف مناهجها تبعا لكل مرحلة، تماماً كما هي الحال في المدارس الاعتيادية. والعبرة من المدرسة، أية مدرسة كانت، ليست في الانتساب إليها مهما فاضت شهرتها، بل في مقدار ما ينهل المرء منها من العلم والمعرفة والأخلاق. ومدرسة الحياة مليئة بعبر قد لا نجدها حتى في أرقى المدارس وأكثرها تطوراً وتقدماً، وبدروس أكثر تأثيراً في حياة الإنسان من الدروس النظرية. لكونها دروساً اختبارية عملية يعيشها الشخص مباشرة، وهنا يكمن سر فاعلية مدرسة الحياة التي ولئن يتقاسمها الخير والشر، والخطأ والصواب، إلا أنه ليس هذا ولا ذاك الذي يسيّر دفتها، إنما الإنسان هو الذي يفعل ذلك، وبالتالي عليه تقع مسؤولية سقوطه في الخطأ بالدرجة الأولى، والسقوط ليس مهما بقدر أهمية يقظته والعمل على الرجوع عنه، ومعرفة سبل النهوض من سقطته، والاستفادة من تلك السقطة واتخاذها عبرة له، لأن السقوط لا يطال البسطاء والسذج فحسب، بل أيضاً العظماء وحتى الأنبياء. ألم يسقط داود النبي ؟ نعم، لكن سرعان ما أدرك هول ما فعل فعاد بالتوبة وطلب المغفرة ولم يعد يخطئ، فعادت إليه كرامته ومكانته لدى الله، وكذلك فعل الرسول بطرس، الذي أخطأ وثم عاد ولم يعد يخطئ، ومثل هذه الحالة نجدها لدى الابن الضال الذي عاد عن ضلاله ولم يعد يخطئ. هؤلاء وأمثالهم هم نماذج حية للرجوع عن الخطأ وعدم العودة إليه.

إن تحذير الرب هذا " **لا تعد تخطئ** " موجه اليوم وعبر الأجيال لكل إنسان تزل قدمه فيسقط في خطأ فادح ويترك بصماته ليس على ذاته فقط بل وعلى الآخرين أيضاً، لا سيما الذين هم في موقع المسؤولية، الذين لا تقتصر نتائج أخطائهم على ذواتهم، بل تسري إلى من هم موكلون على قيادتهم، فالإنسان بحكم ضعفه البشري معرض لشتى أنواع الأخطاء، فإذا ما نهض، عليه أن لا يدع مجالاً للسقوط ثانية، لا سيما و أن الله وهبه حرية ودراية وإرادة قوية تمكنه من تحصين ذاته. ومما يؤسف له أن كثيرين، لا يأبهون لأخطائهم، بل لا يعترفون بها، فلا يتخذونها عبرة لهم ليتحاشوا السقوط فيها ثانية.

ونتساءل الآن عن أسباب السقوط في أخطاء رهيبة، سيما بالنسبة إلى من يحملون المسؤولية ؟ ألا ترى معي ـ أيها القارئ ـ أن التسرع في اتخاذ وتنفيذ قرار حاسم مصيري غير مدروس ودون التفكير في عواقبه الوخيمة : يكون في غالب الأحيان سبباً فاعلاً في ذلك ؟ ولكن مع ذلك نقول : أن المشكلة في السقوط في مثل هذه الأخطاء، ليست بالخطأ نفسه، أكثر مما هي في عدم الاعتراف به والاستفادة منه، وهذا عكس ما فعله صاحب المزامير الذي قال " **اعترف لك بخطيئتي ولا أكتم** " (32: 5)، أن الاعتراف بالخطأ يشكل أهم مقومات عدم العودة إليه. وهناك أيضاً الفهم الخاطئ للأمور، أو عدم إدراكها بصورة تامة صحيحة، أو الإصغاء إلى من ليسيوا كفءاً للمشورة أو في موضع الحكمة والثقة. كما ينبغي أن لا ننسى دور الجانب الروحي في حياة

الفرد، الذي من شأنه أن يقيل العثرات ويصون من الانزلاق ويخلق في داخل الإنسان ميلاً لكره الخطيئة والشر والاعتصام باليسر والخير.

قد يتساءل البعض، هل يمكن للإنسان أن يعيش خارج نطاق الخطأ ؟ نقول، بالرغم من كون كل إنسان معرض للخطأ، وقد يخطئ أكثر الناس براً وتقوى، غير أ ن الله يقول " **كل من يثبت فيّ لا يخطئ... وكل من وُلد من الله لا يخطئ** " (1 يو 3: 6)، وكمؤمنين مسيحيين نقول : أن الذي يملاءه الروح القدس لا يخطئ إذا التزم بإرشاده، وإن أخطأ عاد عن الخطأ فوراً.

ليس من يجهل أن ارتكاب الخطأ بأنواعه هو انحراف عن الاستقامة في القول والعمل والفكر التي يريد الله الإنسان أن يعيشها فلا ينحرف عنها ما دام مقيداً في هذه الحياة، فيتجنب كل ما هو باطل وغير مستقيم، لأن هذا هو ضد الحق وضد الخير وضد أي نوع من الأمراض النفسية التي قد يبتلى بها هذا أو ذاك ممن لا يسلكون مسلك الاستقامة في حياتهم، كالرياء والخبث والحقد والخداع والرغبة في إثارة الفتن.

الحي المائت

يسوعنا الحبيب، اعتاد أن يحدّث بطرق ووسائل متنوعة، ففي إنجيله حدثنا وجهاً لوجه، ثم حدثنا بلسان رسله الأطهار. وها هوذا يحدثنا بروحه القدوس عبر رسائل بعث بها حبيبه يوحنا إلى ملائكة (أساقفة) سبع من كنائس آسيا الصغرى، لا بل إلى الكنيسة جمعاء بشخص أساقفتها. فيها الكثير من التحذير والتوبيخ للذين لهم صورة التقوى فقط لكنهم منكرون قوتها (2 تيم 3: 5)، وبعبارة أخرى، للذين يعتبرون أحياء لكنهم في الواقع ومن رؤية الله، هم أموات. كما تهيب هذه الرسائل بمن أعطوا سلطاناً لكي يصيروا أبناء الله (يو 1: 12)، على فحص ضمائرهم لكي يكتشفوا نقاط الضعف لديهم فيعالجوها على ضوء معطيات التعليم الإلهية، كما أنه يدعوهم إلى التوبة من أجل حياة

أفضل فيكونوا أحياء بين الأموات، وليس أمواتاً بين الأحياء.

ففي الرسالة إلى ملاك كنيسة ساردس (رؤيا 3: 1)، توبيخ واضح لمن يسيء تقييم نفسه، فيقيمها تقييماً خاطئاً من أجل التضليل أو كسب سمعة وشهرة، لا سيما إذا كان هذا التقييم من الناحية الروحية، حيث يقول له " **أنت حي بالاسم مع أنك ميت** " لكونه أعتبر نفسه حياً بدليل انتشار سمعته، تماماً كما يعتبر اليوم كثيرون من المسيحيين هوية الأحوال المدنية التي يحملونها دليلاً على مسيحيتهم، إلا أن الواقع هو غير ذلك. وأن رضى الإنسان عن نفسه غير كاف إن لم يكن مرضياً أمام الله أولاً وأمام الناس ثانياً، ولا يكون كذلك ألا إذا اتخذ المسيح قدوة له ونبراساً في سلوكه، كما فعل الرسول بولس وأوصى المؤمنين أن يتمثلوا به " **كونوا متمثلين بي كما أنا أيضاً بالمسيح** " (1 كو 11: 1).

أما أن السمعة غير كافية، فلأنها في كثير من الأحيان لا تكون مستندة إلى الواقع أو إلى أعمال تنم عن إيمان متأصل، والتي تنبض بالحياة وتفيض بالمعطيات الحسنة، ومثل هذه الأعمال لا يقوى على أتيانها سوى الذين أمتلأوا بالروح، وليس الذين يحملون اسماً مجرداً أو يحتلون مركزاً مرموقاً دينياً كان أم اجتماعياً أن هم خلوا من الروح. وبناء على هذا فالروح يهيب بالمؤمنين أن يأتوا أعمالاً تليق بالتوبة وتشكل مؤشراً إلى كونهم أحياء حقاً، من ذلك، إنعاش الذات بنفحات روح الله القدوس، والاستعداد التام للمفاجآت غير المتوقعة بالسهر واليقظة الروحية، فقد يفاجئنا العريس (يسوع) في منتصف الليل، يقول الروح

(إن لم تسهر جثتك كاللص في ساعة لا تعرفها). وهذا يتطلب قبل كل شيء الالتزام بمعطيات تعاليم يسوع، وفي مطلعها، تركيز الفكر على شيء واحد (كلمة الله) مثلما فعلت مريم عندما جلست عند قدمي يسوع تسمع كلامه (لو 10: 39) ثم ترويض النفس وبشكل مستمر على تقوى الله، من أجل الفوز بالسباق الذي نجريه في ميدان هذه الحياة، فنحصل على الجائزة (2 تيم 4: 8)، تماماً كما يفعل الرياضيون الذين يستمرون على التمرين من أجل الفوز أو تسجيل رقم قياسي، وبذلك تسجل أسماؤنا في سفر الحياة الأبدية.

إن الروح يطلب إلى ملاك ساردس (التوبة) التي تعبر عن الأسف الشديد على الأيام والسنين التي يمضيها المؤمن بعيداً عن الله، وبعبارة أخرى تلك التي كان خلالها مائتاً ولئن أحصي بين الأحياء. فالحياة الحقة في رؤية الله ليست أكلاً وشرباً، بل براً وقداسة وفرحاً بالروح، أنه يشترط عليه الجهاد من أجل الغلبة. والجهاد لا يكون جهاداً إن لم يقترن بالثقة والإيمان ليتكلل بالنجاح، ويكون أصولياً وقانونياً كقول الرسول بولس " **إن كان أحد يجاهد لا يكلل إن لم يجاهد قانونياً** " (2 تي 2: 5)، والجهاد القانوني هو المبني على أسس إنجيلية وتعاليم رسولية. وبهذه الطريقة يكون المؤمن حياً ويبقى حياً حتى بعد رحيله عن حياة الدنيا...

الصدق والمصداقية...

يُقال أن فلاناً فقد مصداقيته، لأنه يقول شيئاً ويفعل شيئاً معاكساً تماماً، أو أنه يعد ولا ينفذ، فالصدق من أجل الخلال الحميدة التي تنتزع ثقة الآخرين وبسبب هذه الثقة يعتلي المرء مكانة مرموقة لدى الجميع فيغدو موضع احترامهم وتقديرهم، وإليه يُشار بالبنان في حل أية مشكلة أو إحلال سلام بين طرفين متنازعين. وهذه ميزة تدعو إلى الفخر والاعتزاز. ولكي يبرهن الإنسان على مصداقيته، عليه أن يكون صادقاً مع الجميع مع الله، والإنسان والضمير وألخ، صادقاً في تعامله مع الغير، وفي سلوكه اليومي وفي كل تصرف يأتيه، ومجرداً عن روح الرياء والمراوغة والتظاهر، هذه الروح التي حاربها الرب يسوع بتنديده بالفريسيين وغيرهم من فئات اليهود الذين وصفهم بالمرائين لأنهم كانوا

يتظاهرون بشيء في حين أن حقيقتهم هي شيء آخر، وبعبارة أخرى، لم يكونوا صادقين في ما كانوا يظهرون ويقولون، الأمر الذي دعاه إلى تشبيههم بالقبور المبيضة، ظاهرها جميل، وباطنها مليء بعظام الموتى وبكل فساد (متى 23). وبناء على تصرفاتهم الشاذة هذه، فقدوا مصداقيتهم لدى الناس، وأضحى الكذب خلة من خلالهم السيئة، وهيهات أن يجتمع الكذب مع الصدق، أو أن تجتمع الأمانة مع الخيانة. يقول الرب " **كنت أميناً... وكن أميناً...**" وهذا يعني كنت صادقاً. وكن صادقاً في ما تقوله أو تتعهد به، وبعكسه ستفقد مصداقيتك، ومن فقد مصداقيته فقد شخصيته في المجتمع، فلم تعد له قيمة تذكر، لأن المجتمع السليم ينبذه نبذ النواة.

والإنسان الصادق، هو واضح صريح أبداً لا لفّ له ولا دوران، بعيد عن المحاباة ولا يخطر على باله الغش والخداع، وبالنسبة إلى المسيحي فأن صدقه دليل على حقيقة مسيحيته وصدق تدينه، لأن التزام المؤمن بمبادئ دينه القويم يردعه عن الكذب والخداع، بعكس الذي يتظاهر بالتدين فقط. فمن الملاحظ في كثير من الأحيان، أن رقاعاً مقتبسة من كتب مقدسة لهذا الدين أو ذاك تزين المحال التجارية لكي تغطي انطباعاً إيجابياً عن صاحب المحل، ولكن لدى التعامل معه، وإلى جانب ما علقه على متجره، يُغلظ الإيمان على نقاء سلعته من كل غش، ولكن يتضح فيما بعد، أن تلك (الآية) وذلك القسم ليسا سوى سبيل للاعتزاز، حيث يظهر زيف السلعة وفسادها.

الحق يقال، أن أية هيئة أو مؤسسة روحية كانت أم اقتصادية أم سياسية، حتى الأسرة (المؤسسة الصغيرة)، لا تستقيم شؤونها ما لم تكن مصداقة في حياتها. الزوج مع الزوجة، الرئيس والمرؤوس، السيد والمعين وما سوى ذلك. والصدق هو أبدأ موضوع ثقة لا يجرؤ حتى خصومه على وصمه بالكذب والرياء، فقد تشاور الفريسيون يوماً على أن يصطادوا يسوع بكلمة فبعثوا بعض تلامذتهم إليه فقالوا له " **يا معلم، نعلم أنك صادق وتعلم طريق الله بالحق** " (متى 22). فرغم كل عداواتهم وكرههم ليسوع لم يستطيعوا إلا أن يعترفوا بصدقه وعدم حياده عن الحق. وقد وصف يوسف بن يعقوب (بالصديق) لأنه كان صادقاً مع الله ومع ذاته، ومن دلالات الصدق الإخلاص، وهذا ما كان ثابتاً في يوسف، فقد أخلص لأبيه وأخوته رغم كل ما ألحقوه به من ظلم وإهانة، وأخلص لربه إذ كانت مسرته في ناموسه (مز 1: 2)، وإخلاصه لسيده، فتغلب على التجربة الحمقاء.

لنعد الآن إلى كتابنا المقدس العزيز لنستطلع بعض أقواله بهذا الصدد : فهذا أشعياء النبي يصف الحالة المزرية التي وصل إليها البشر بسبب عدم مصداقيتهم، وكأني به يصف واقعنا الذي نعيشه اليوم فيقول " **تكلمنا بالظلم والمعصية، حبلنا ولهجنا من القلب بكلام الكذب، وقد أرتد الحق إلى الوراء والعدل يقف بعيداً، لأن الصدق سقط في الشارع والاستقامة لا تستطيع الدخول، وصار الصدق معدوماً والحائد عن الشر يُسلب** " (59). فإلى مثل هذه الدرجة وصل أبناء

جيلنا بسبب عدم مصداقيتهم، لا بل إلى درجة أنهم أخذوا يكرهون الذين يتكلمون بالصدق (عا 5: 10)، وقد يعتبرونهم سذجاً لا يفقهون شيئاً من شؤون الحياة (المتطورة) في حين أن صاحب المزامير يشكو من الناس الذين لم يعد الصدق يتداول في أفواههم (5: 9).

ويؤسفني أن اضطر إلى ختم هذه الكلمات بتوجيه عتاب أخوي إلى مسؤولي مجلة مسيحية تصدر في بغداد وإلى كاتب مقال فيها (السنة 3 العدد 9) ضمنه طعنا ببعض الكنائس المسيحية. كنا نتمنى أن تكون هذه المجلة صوت صارخ للوحدة المسيحية التي ننشدها جميعاً وننادي بها بأعلى أصواتنا، وليس سبباً للفرقة. فأين المصداقية لدى من يصدرون أو يديرون هذه المجلة وأمثالها ؟؟؟

أنسّ... و لا تنسّ

النظرة العامة في النسيان، هي كونه نقصاً في الإنسان وعيباً من معايبة، كما قيل فيه أيضاً أنه (آفة العلم)، وكأن الله خلق عقل الإنسان ليستوعب كل شؤون الحياة، ويخزن في تلافيفه كل كلمة يسمعها أو عبارة يقرأها أو حدث يشهده، كما هو شأن الكمبيوتر الذي لا ينسى شيئاً ولا يغيب عنه أمر اقتبله. وقد يعاتب الصديق صديقاً له لأنه لم يتعرف عليه ولئن بعد غياب طال أمده. وإذ تكرر النسيان لدى أمرئ وُصم بالـ... لا شك أن للنسيان مساوئ قد تخلق مشاكل يعسر حلها، وربما أدى ذلك إلى خصومات عنيفة لا بل إلى حروب. ولكن مثلما أن للنسيان مساوئ، له كذلك محاسنه التي لا تنسى ولا تنكر.

فمن مساوئ النسيان، أن ينسى المرء الواجبات الملقاة على عاتقه، سواء أكانت نحو ربه أو قريبه أو حتى ذاته، أو أسرته إن كان رب الأسرة. فمن أهم واجباته نحو ربه، التزامه بما تقتضيه الشريعة الإلهية، من واجب العبادة بما فيها الممارسات الروحية.

وبالنسبة إلى قريبه، وجوب محبته كالذات بحسب تعليم السيد المسيح، بمد له يد العون عند الحاجة، والدفاع عنه إذ ما ألحق به ظلم أو غبن إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، والحذر من تشويه سمعته أو العمل على الحط من كرامته، ومن واجب رب الأسرة، أن يهيئ كل مستلزمات العيش الكريم السعيد لأفراد أسرته ويخلق أجواء حب وسلام بين أفرادها حتى ولئن اقتضى الأمر التنازل، فالتنازل في مثل هذه الحالة حكمة ودليل على حسن التدبير والتعقل. ولكن ما نلمسه أحياناً هو عكس ما يجب أن يكون. فهذا رب أسرة مثلاً لا يحاول أن ينسى أدنى هفوة تصدر عن زوجته أو أحد أفراد أسرته الساخرين، فيتعالى صراخه ويكيل الشتائم جزافاً، ويوجه الإهانات وكأن أولئك (بهائم لا عقول لها ولا يحصون بين الناس)، هنا يكون رب البيت هذا قد نسي واجباته تجاه أسرته، ونسي كونه شريك حياة لزوجته، ونسي أبوته وما تستوجبه هذه الأبوة من واجبات. وما نقوله عن الزوج نقوله عن الزوجة أيضاً. ومن مساوئ النسيان أيضاً، نكران الجميل أو نسيان فضل الآخرين. فالحياة كما يقال أخذ وعطاء، فالذي يصنع معي جميلاً اليوم، قد يحتاج أليّ غداً، ومن واجبي الإنساني والاجتماعي والديني أن أرد الجميل بالجميل.

من هذه الناحية يكون النسيان نقمة على الإنسان، غير أن الأمر ليس كذلك دائماً، فقد يكون النسيان أحياناً كثيرة نعمة يسبغها الله على الإنسان لكي يتمتع بأيامه فيشعر بالراحة والسعادة. فنحن مثلاً لا نستطيع أن نتهرب من كون الإنسان (مختبر حزن) وأن الشقاء قد تمكن من حياته منذ وجد على وجه هذه البسيطة، وسيطر على المساحة الأكبر منها، فأخذت منذ ذلك الحين، التجارب المريرة والمحن والبلايا التي لا تطاق، تصب جام غضبها عليها وتلقيه في دوامة من الهم والغم فماذا عليه أن يفعل تجاه هذا الواقع ؟ هل يستسلم ويلقي بنفسه في خضمها حتى الرمق الأخير أم ماذا ؟ هنا عليه أن يستغل النسيان كنعمة، وأول خطوة في سبيل ذلك، هي تذكره مقولة صاحب المزامير" **ألقِ على الرب همك فهو يعولك** " (مز 55) وهذا يعني أن ينسى همومه فلا يجترها كما أن الرسول بولس يطلب من المؤمنين أن يكونوا بلا هم (1 كو 7)، ترى ألم يشبه الرب يسوع هموم الحياة بالأشواك التي تقضي على الزرع قبل أوان نضوجه فلا يأتي بثمر ؟ فإن شئنا الحصول على الأثمار الطيبة، علينا باستئصال الأشواك أولاً، أي بطرح الهموم جانباً وهكذا يكون النسيان في مثل هذه الحالة نعمة من الله.

والكتاب المقدس، يوجه المؤمن إلى نسيان الإساءة الموجهة إليه، ولئن تكون أحياناً قد نالت من سمعته وكرامته وقد تأصلت في أعماق ذهنه وفكره بحيث غداً يرى أن نسيانها أمر مستحيل. ولذا طلب إليه وضعها في مطاوي النسيان، تساءل : كيف يمكنني أن أنسى وها هي ذي

حياتي قد نغصت بسببها ؟ كيف أنسى ذلك الجرح العميق الذي تركته في أعماقي تلك الكلمات النابية أو ذلك العمل الشنيع ؟ ولذا قيل له : أن الإصرار على عدم النسيان خطأ جسيم، أو قيل أن تلك الإساءة ليست بأعظم من التي وجهت إلى معلمه يسوع الذي وُصم بالجنون والتجذيف على الله وبكونه زعيم الشياطين، وشتم وبُصق عليه وضُرب. ومع ذلك فأن كل تلك الإساءات الشنيعة والإهانات لم تقف حائلاً دون طلبه المغفرة لصالبيه، وقد يأتينا جوابه : أنني إنسان ولست مسيحاً، فنقول، لكنك تلميذه، " **وحسب التلميذ أن يكون كمعلمه** "، تذكر الإنسان أسطيفانوس كيف أنه حذا حذو سيده في نسيان الإساءة، وغيره من الشهداء والمعترفين الذين دللوا على تلمذتهم للمسيح بنسيانهم ما أسيئ به إليهم. فعلى ضوء ما سبق نتساءل : ألا يجدر بنا كمؤمنين مسيحيين أن ننسى ما يجب نسيانه ولا ننسى ما يجب ألا يبرح أذهاننا ؟ وبعبارة أخرى، أن ننسى السلبيات ولا ننسى الايجابيات، من أجل راحتنا وسعادتنا.

بين السماع والحقيقة

قد تكون المسافة بين ما يسمعه المرء والحقيقة ضيقة جداً أو معدومة عندما يكون المتحدث مشهوداً له بالصدق والأمانة ودماثة الخلق والاستقامة. وعندما تعبر الكلمة عن واقع ملموس لا لبس فيه ولا مهرب منه. ولكن غالباً ما تفصل السماع عن الحقيقة هوة عميقة فيكون الكلام في واد والحقيقة في واد آخر وبخاصة عندما يكون المتحدث من الثرثارين الذين أشار إليهم مار بولس "... **وهم ثرثارون نمامون أعداء الله** " (رو 1). أو يكون هاوياً للتشهير بالناس، وعدو السلام هو عدو الله لأن الله هو رئيس السلام ومن المؤسف أن لا يخلو مجتمع أي مجتمع من أمثال هؤلاء باستثناء المجتمع الذي تخيله أفلاطون في جمهوريته والذي حلم به توماس مور في (الايثوبيا) عالم الكمال أو المدينة الفاضلة التي تخيلها كل

من فرنسيس بيكون والفارابي.

والمسيحية دين القيم الروحية لا تغض الطرف عن هذه الآفة الاجتماعية بل تعالجها على ضوء الوحي الإلهي. فها هوذا يوحنا الرسول يحذر من الاستماع إلى الذين يجعلون الحق باطلاً والباطل حقاً ومن التسرع في إصدار الأحكام اعتباطياً فيقول " **لا تصدقوا كل روح بل امتحنوا الأرواح لتروا هل هي من الله** " (1 يو 4).

وفي هذا تنبيه للمرء ليتحرى عن الحقيقة من كل الجوانب فيما يسمعه من كلام من هذا وذاك فلا يأخذ الكلام مأخذ الجد ما لم يتحقق من كونه صادراً عن روح حق لا عن روح كذب وافتراء، روح الذين يصرفون ذواتهم عن الحق (2 تي 4). ومن ذا يا ترى يصرف ذاته عن الحق سوى الذي يملأ الشيطان قلبه مثل حنانيا الذي كذب على بطرس الرسول (أع 5) واليهود افتروا على السيد المسيح في أكبر جريمة عرفها تاريخ البشرية. ففي مثل هذه الحالة يكون الإنسان قد تجرد من إنسانيته فلا يعود يعير للقيم الخلقية وزناً وأهمية.

والرسول بولس يهيب بالمؤمن أن يكون يقظاً وحذراً لدى سماعه أقاويل لا طائل تحتها ولا تمت إلى الحقيقة بصلة فيتجنبها " **أما الأقوال الباطلة الدنسة فاجتنبها** " (2 تيمو 2). لا بل ويسعى وراء الحقيقة التي لا بد أن تتجلى إن آجلاً أو عاجلاً لأن حبل الكذب قصير كقول المثل : فإذا أدرك المرء الحقيقة نادى بها إن كانت تستوجب النداء ولا يعير لها اهتماماً إن كانت من الأمور الثانوية التافهة. وليحذر من أن يأخذ الكلام

الباطل على عواهنه دون تدقيق أو تمحيص لأن نتائج وخيمة تترتب عليه حتماً.

ينقل إلينا سفر التكوين عن يعقوب أبى الأسباط كيف أنه صدق كذبة أولاده بخصوص ابنه دون أن يتحرى عن الحقيقة فغاص في بحر من الآلام والأحزان، ما نغص عليه حياته وأفقده بصره. وما كان لينتهي إلى مثل هذه النتيجة لو سعى وراء الحقيقة وعرف أن ابنه حي. وقد يقول قائل : أنه صدق أولاده، نظراً لطيب قلبه.

ولكن هل يجوز أن تكون طيبة القلب سبباً لشقاء الإنسان بنشر إشاعات كاذبة تعيث في المجتمع فساداً ؟ ومسك الختام وصية الرسول بولس " **تمسك بالأقوال الصحيحة... وأثبت في الإيمان والمحبة** " (2 تيمو 1).

ولطالما نحن بصدد الحديث عن الإشاعات، فلا بد من أن نقول : أن بعض الظروف ولا سيما الأمنية ومنها السياسية، عندما لا تكون في صالح الجمهور، يلاحظ أن الإشاعات الكاذبة تنتشر بشكل هائل، وكلها محتملة. وقد تشترك بعض قنوات التلفزيون في إثارة مثل هذه الإشاعات باعتمادها كحقيقة واقعة تزيد في الطين بله، ملقية الرعب والخوف في نفوس الناس، كما حدث مثلاً في العراق بعد احتلاله من قبل الولايات المتحدة، وبعد أن انتشرت فيه قوافل الشر المتجمعة من هنا وهناك. وممن تبنوا الشر ونصبوا من ذواتهم عملاء له. وبذلك انتشرت الإشاعات بشكل منقطع النظير. وهي متعددة الأهداف : وكلها عبث

في عبث.

1- الإساءة إلى سمعة الآخرين، لا سيما أولئك الذين استفاضت لهم سمعة حسنة في مناح عدة، قد لا تروق للبعض، فتكون بالنسبة لأولئك حافزاً على نشر إشاعات ضده، وبخاصة عندما تكون الظروف ملائمة لها. فيقال مثلاً أن فلاناً أصابه السوء الفلاني، وكأنهم يودون من أعماقهم أن يصاب بذلك السوء.

2- لإلقاء الخوف والرعب في نفوس الناس كما نوهنا أعلاه بقصد إثارة السجس والقلق.

3- لمجرد هواية يستهويها البعض ربما بقصد النكته وهذا ينافي وأبسط حقوق الإنسان.

4- تنبيه البعض لإيقاع الشر بمن تثار عليه الإشاعة، وكأني بهم يقولون له دونك إياه، فهو يستحق إحالة هذه الإشاعة إلى حقيقة.

إذن نعود لنقول أسمع أولاً من أجل كشف زيف الإشاعة وإظهار الحقيقة للملأ، ومن ثم بإمكانك أن تذيعها بين الناس، وويل لمن ينقل الإشاعة دون تدقيق وتمحيص فقد اشترك، أن هو فعل، في شر مثيريها.

الاستقلالية

لا يتناول حديثنا هذا أي نوع من أنواع الاستقلال السياسي والاجتماعي كاستقلال الأبناء عن عوائلهم وبخاصة بعد الزواج أو كاستقلالية الشباب والشابات عن آبائهم في سن مبكرة كما هو الحالة في الغرب، وهي لا شك استقلالية شاذة لا تستند إلى أي مبرر ديني أو اجتماعي، لا سيما في مجتمع له تقاليده المحببة والعريقة التي تنم أخلاقية عالية وقيم رفيعة.

ولكن حديثنا هنا يتناول نوعاً من الاستقلالية الغربية لكنها مع الأسف الشديد أخذت تتفشى وتتوسع حتى في مجتمعنا ذات القيم الروحية والشرائع السماوية... أنها الاستقلالية عن الله وبعبارة أخرى البعد عن الله وهذا يعني الاستقلالية عن كل ما أعطي من شريعة لتقويم

الإنسان وتهذيبه وتوجيهه نحو الأفضل في حياته ليتميزّ عن سائر المخلوقات الأرضية ويبقى سيدها كما أراده الله منذ بدء الخليقة.

ولا ريب في أن القدوة السيئة الأولى لمثل هذه الاستقلالية هي (إبليس) الذي حاول أ ن يستقل عن الله ويقيم له مملكه خاصة وإذا به ينحدر إلى أسفل الدركات ولكي لا يظل وحده مخذولاً في عيني الرب، يحاول أن يشرك البشر في هذا الشر وقد فعل ذلك مع أبى البشرية، ولا يزال يجول كالأسد الزائر ملتمساً من يبتلعه، ويوسوس في نفس هذا وذاك ليكسب واحداً إلى ضلاله ويجعله مستحقاً، لجهنم ضعف ما هو عليه (مت 23).

يعتبر صاحب المزامير مثل هذه الاستقلالية نوعاً من التآمر على الله " **قام ملوك الأرض وتآمر الرؤساء معاً على الرب وعلى مسيحه قائلين : لنقطع قيودهما ولنطرح عنا رباطهما** " (مز 2). غير أ ن الله الساكن في العلى يضحك والرب يستهزء بهم.

ينقل إلينا عوبديا النبي صوراً رائعة جداً عن الذين تتجبر قلوبهم وتقسو ويجعلون الأعالي موطننا لهم ويقولون : من ينزل إلى الأرض ؟ فيقول الرب لهم (لو حلقت كالنسر وجعلت عشك بين كواكب لأنزلتك من هناك)، فمهما فكر الإنسان بالاستقلال والابتعاد عن الله فهو قريب منه وفي قبضة يده في كل لحظة، لقد حاول البعض الاستقلالية عن الله لكي يسرحوا ويمرحوا على مسرح الحياة بحسب هواهم دون أن يشعروا برادع من ضمير الذي يأبى الخروج عن حظيرة الله. غير أن تمرد

الإنسان يقوده إلى ضرب كل القيم عرض الحائط.

ترى هل ننسى مأساة ذلك الشاب المغرور الضال الـذي أراد أن يستقل بذاته عن والده فطالب بإرثـه وذهـب يطلـق العنـان لملذاتـه حتـى وجد نفسه صفر اليديـن وأخـذ يعـاني الأمريـن مـن فعلتـه هـذه الشـنعاء ويضرب أخماساً بأسداس، ويقارن بين تعاسته وشقائه وبين الحيـاة الهنيئـة التي يتمتع بها أولئك الذين يخدمون مائدة أبيه. لقـد شـعر بتعاسـة عندمـا استيقظ ضميره وأدرك خطأه الفاحش باستقلاله عـن بيـت أبيـه و لم يعـد يشعر بلذة الراحة حتى عاد إلى بيت أبيه تائباً. أن قصة الشاب هـي خـير مثال للذين يطلبون الاستقلالية عن الله واهمين أن بعدهم عـن الله يوفـر لهم فرصاً لإشباع نزواتهم دون أن يدركوا أ ن الله لهم بالمرصاد.

لو أمعنا النظر في موضوع استقلالية الإنسان عن الله في عصرنـا الحديث، لرأيناها تنتشر في معظم المجتمعـات انتشـاراً السـرطان في جسـد الإنسان، رغم كل التحديـات مـن مغبـة ذلـك الـتي يقدمهـا كتـاب الله المقدس والـتي تذهـب إدراج الريـاح. وكأنـه لم يعـد هنـاك آذان للسـمع كـالتي أشـار إليهـا السيد المسيح بقولـه " **مَـنْ كـانت لـه أذان للسـمع فليسمع** ".

لمنَ التحدي ؟

كثير هو تردد هذه الكلمة على المسامع وتداولها على الألسن. وقد يصيب المرء في تطبيقها أحياناً ويخطئ حيناً آخر. وهذا يعني أن هناك تحديات خاطئة وأخرى مشروعة ومنطقية وغيرها لازمة، والتحديات الخاطئة أو قل الطائشة غير مستندة إلى أصول وقواعد شرعية قانونية، بل أنها لا تتعدى حدود المهاترة وضيق التفكير وعقمه. تحتاج إلى تحكيم العقل قبل الشروع بها لأنها فاشلة لا محالة كتحدي السلطة الدينية ولا يقصد من أن هذا السلطة الدينية معصومة أو أنها تملك حقاً إلهياً، وإنما المقصود هو المس بكرامة التعاليم الدينية السماوية حقاً التي تمثلها السلطة، فالسلطة قد تخطئ لكن كلمة الله لا تسقط أبداً.

والسلطة المدنية التي يوصي الله باحترامها وطاعتها لكونها ترتيب منه تعالى من أجل إشاعة العدل والحق بين الناس (رو 13: 2) وهنا أيضاً لا نقصد طاعة السلطة المدنية طاعة عمياء. فإذا كانت هذه السلطة تعمل حقاً لصالح شعبها وهذه هي غاية الله من جعل السلطة المدنية ترتيباً منه تعالى من أجل خير وصالح الشعب. أما إذا زاغت عن المبادئ الأساسية التي جاءت من أجلها فعند ذاك نقول : لكل مقام مقال.

أو تحدي القوانين والشرائع وبخاصة السماوية منها وطرحها عرض الحائط والتصرف بما لا يليق واستبدال حق الله بالكذب بوحي من ذهن مرفوض بحسب تعبير الرسول بولس (رو 1: 28) وتحدي التقاليد الأصيلة النابعة من صميم الدين أو المجتمع أو تحدي المثل العليا الروحية والخلقية والاجتماعية والأدبية التي عليها يبني المجتمع السليم الطاهر مجتمع أبناء الله وأبناء الإنسانية، هذه المثل التي إن خلا منها أي مجتمع هبط إلى الحضيض وتفسخ، وأية جدوى منت ترجي من مجتمع متفسخ ؟

والتحديات المشروعة والأزمة تحدث عندما يحاول المرء مثلاً بلوغ هدف ما نبيل. ويجابه بمعوقات وصعوبات تحول دون تحقيق أمنيته. فما عليه في مثل هذه الحالة إلا أن يتحدى تلك المعوقات فيشحذ ذهنه ليتفق عن ابتكار وسائل توصله إلى هدفه رغم بقاء تلك الصعوبات. كما تحدي بعض المخترعين فشلهم في بلوغ هدفهم الإنساني حتى تغلبوا على

الفشل وتكللت جهودهم بنجاح باهر.

ينقل إلينا لوقا الإنجيلي مثلاً عن هذا النوع من التحدي فيدون حدث الكسيح الذي حمله إلى يسوع أربعة من زملائه وأترابه إلى الدار التي كان فيها يسوع، لكنهم فوجئوا بازدحام شديد حال دون وصولهم إلى المسيح فلم يقفوا مكتوفي الأيدي أو تراجعوا. بل تحدوا الصعوبة فصعدوا إلى السطح ونقبوه ودلوا مريضهم أمام يسوع، فبارك يسوع ذلك التحدي الذي عبر عن إيمان وتحققت أمنيتهم بشفاء زميلهم.

والإيمان هو أبداً أهم وسيلة لتحدي الباطل وازدهاره كي لا يسير المؤمن وراءه وإذا ما شعر بأن الباطل يلاحقه يطلب إلى الله أن يحول عينيه عن النظر إليه (مز 119: 37). فبالإيمان تحدى اخنوخ الموت فنقل إلى السماء، وبالإيمان تحدى نوح الطوفان الجارف الذي قضى على البشرية باستثنائه وأفراد أسرته، وبالإيمان تحدى موسى سحرة مصر فأخزاهم وتحدى يسوع إبليس في تجاربه.

هكذا يستطيع المؤمن المبتدئ أن يتحدى بإيمانه كل المعوقات ويذلل كل الصعوبات ويحل كل المشاكل ويتغلب على الظروف مهما قست، فلا يستسلم لها، فلو فعل يكون قد دق أول آسفين في نفس حياته وقضى بالموت على نفسه. ومن أهم التحديات الملزمة تحدى قوى الشر وأعمال إبليس.

الكتاب المقدس يحث على مثل هذا النوع من التحدي، ففي (1 بط 5: 9) تحريض واضح على تحدي إبليس الذي يصفه بالخصم ويشبهه بالأسد الزائر الذي يحاول افتراس كل من يلقاه. يقول " **قاوموه راسخين في الإيمان** " والقديس يعقوب يقول " **قاوموا إبليس فيهرب منكم** " (4: 7).

البكورية أم آكلة عدس

إن ما سأطرحه في هذه الكلمة، لا يعني تدخلاً في شؤون الآخر، أو التهجم على أحد، فلكل شخص ملء الحرية أن يؤمن بما يرغب، ويعتقد بما يشاء، ويعبد بالطريقة التي يحبذها. أما الغاية من هذا الحديث فهي :

1- تحذير المؤمنين البسطاء والذين لا خلفية دينية لديهم، من غريب يندس بين صفوفهم لإغرائهم واقتناصهم وإبعادهم عن حظيرة المسيح.

2- الحفاظ على شخصيتنا المسيحية الأصيلة. وهذا أحد الالتزامات الملقاة على عاتق من اختارهم الروح القدس للرعاية الروحية

" **احترزوا لأنفسكم ولجميع الرعية التي أقامكم الروح القدس أساقفة لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه** " (أع 20: 28).

لقد علمنا الرب يسوع أن نحب الجميع دون استثناء ودون أية اعتبارات، فلا نكره أحداً، بل نصلي من أجل الذين ابتعدوا عن حظيرته ليعودوا إلى طريق الصواب فيخلصوا وفي الوقت نفسه نتمثل بآبائنا الأولين في الذود عن الإيمان القويم المستلم من الرسل الأطهار وخلفائهم الأبرار.

قد يكون عنوان هذه الكلمة غريباً على القراء، وهو كذلك فعلاً، ولكن لا غرابة في ذلك لطالما نحن نعيش في عالم العجائب والغرائب. فهذا العنوان مقتبس من الكتاب المقدس. فقد جاء في سفر التكوين " **وطبخ يعقوب طبيخاً فأتى عيسو من الحقل وهو قد أعيا، فقال عيسو ليعقوب أطعمني من هذا الأحمر لأني عييت... فقال يعقوب بعني اليوم بكوريتك، فقال عيسو ها أنذا ماض إلى الموت فلماذا لي البكورية، فقال يعقوب، احلف لي، فحلف له، فباع بكوريته ليعقوب، فأعطى يعقوب عيسو خبزاً وطبيخ عدس** " (تك 25: 34).

وبالامكان استنتاج خسارة عيسو الجسيمة بعمله هذا غير المدروس، إذا ما وقفنا على امتيازات البكورية الرفيعة يومذاك :

1- كان البكر يكرّس لخدمة الرب ويقدَّم عنه قربان " **كل بكر فاتح رحم... هو لي** " (خروج 3).

2- يأخذ بكر نصيب اثنين من الإرث (تث 21).

3- ينوب البكر عن أبيه في البيت لدى غيابه.

فالبكورية هنا تعني الأصالة المسيحية الرسولية والإيمان النقي، والأصالة الرسولية بدورها هي البشرى كما تسلمها الرسل الأطهار وحملوها إلى أقطار المعمورة كافة، بما تضمنته من تعاليم إلهية سواء التي سلموها للمؤمنين خطياً كما في رسائل مار بولس وغيرها، أم شفاهاً، والأخير نسميه التقليد الرسولي الذي على ضوئه تنعكس الحقائق المسيحية وهو ظهير قوي للإنجيل المقدس، لكونه يفسر الإنجيل تفسيراً صحيحاً لا لبس فيه، ويُيَسّر فهمه للمؤمنين.

أما آكلة عدس، فهي هنا الثمن البخس الذي يتسلمه المنحرف عن الأصالة المسيحية من أجل " الثلاثين من الفضة " التي باع بها يهوذا الإسخريوطي سيده يسوع فخسر نفسه وتلمذته. وهنا يخسر أصالته الرسولية ومعموديته وخلاصه كما خسر عيسو بكوريته. واليوم بعض من ولدوا في أحضان الكنائس الرسولية الأصيلة ينحرفون عن جادة هذه الأصالة، لينتموا إلى بدع تنتشر خلافاً لما انتشرت به المسيحية في عهد الرسل وما بعده ، فتلك انتشرت بقوة الله وسيف الإيمان الروحي، أما هذه فتنتشر بقوة المادة في غالب الأحيان متدثرة بلبوس المسيحية، لكنها في وادٍ والمسيحية في وادٍ آخر.

إن هؤلاء القوم يتاجرون بآيات من الكتاب المقدس، إذ يستغلون بعضها ليؤولوها بحسب مزاجهم ليخرجوا منها تعاليم غريبة لا صلة لها بالتعاليم الإنجيلية بقصد إغواء البعض لتشكيل منهم شيعة جديدة يطلق عليها اسم فيه مسحة مسيحية. يقول الرسول بولس محذراً " **إن جاءكم ملاك وبشركم بغير ما بشرناكم به فليكن اناثيما (محروماً أو ملعوناً)** " (غل 1: 8). ومن هؤلاء شهود يهوه، وأمثالهم. فهؤلاء يظهرون التقوى، غير انهم لا يمتلكون منها غير الصورة، أما من الداخل فكلهم كراهية للمسيح والمسيحية، يعملون على هدم أركانها وزعزعة كيانها وإيمانها بالمسيح مؤسسها، وهم يشكلون اليوم تحدياً سافراً للمسيحية، فمنهم من يتحداها بأسرارها المقدسة رغم كونها من همل الروح القدس، ومنهم من يتحداها في هوية المسيح الإلهية، وغيرهم يتحدونها بتقاليدها الرسولية، علماً بأن السيد المسيح، بعد أن أسس كنيسته سلمها إلى الرسل ومَن يخلفهم ليعملوا على نشرها وإنمائها وتغذيتها بالتعاليم الإلهية.

ولا ريب فأن أعمال هؤلاء لا تخدم المسيحية بأي شكل من الأشكال، وأعمالهم هي للدمار لا للبناء، لذا كان لزاماً على الكنيسة المسيحية الحفاظ على هويتها الحقيقية الأصيلة والسعي للحفاظ على عافية أبنائها الروحية وعدم الاشتراك بخطايا الآخرين (1 تم 5: 22).

والسؤال الذي يتبادر إلى الأذهان في هذه العجالة هو : إذا كان على الكنيسة أن تحافظ على أبنائها، ترى ما هو دور الأسرة في هذا الشأن. أنه دور خطير لا يقل خطورة عن دور الكنيسة، من ذلك وضع

أولادها منذ الصغر في المسار الصحيح، وتغذيتهم روحياً كما تغذيهم جسدياً، لكي يستفيدوا من خبرتهم الإيمانية في العمل والمثابرة روحياً، وخلق جو أسري مفعم بالحب والحنان. وأخيراً نقول : عندما يحيا المؤمن في المسيح يدرك المبادئ السامية الواعية ويتخذ كتاب الله المقدس، خير دليل ومرشد في حياته، عالماً أن الرب دوماً معنا يزودنا بالنعمة لكي نتغلب على كل ما يضيقنا فتتحول المصائب إلى بركة، " **وفي هذا يعظم انتصارنا بالذي أحبنا** " (رو 8: 37).

بالحكمة

في عالم تسوده المتناقضات والمفارقات، وتستحوذ على عقول أبنائه المطامع والملذات، والاعتداد بالنفس والتباهي ببر الذات. وتكون الأنانية من أبرز المظاهر والصفات، أقول : في عالم هذا شأنه، لا يصح التعامل فيه إلا بوحي من العقل السليم والضمير الحي الذي تكمن الحكمة في زواياه وبين طياته، وإلا فلا يجني سوى المزيد من البلبلة والنزاعات ذات الثمار المرة والنتائج الوخيمة. وقد دعا الرب يسوع إلى التعامل بالحكمة " **كونوا حكماء كالحيات** " ما دمتم تعيشون في عالم يحمل الصفات المُشار إليها، وإلا فالفشل لكم بالمرصاد. كثيرون هم الذين ينحرفون عن جادة الصواب وطريق الحق من حيث يدرون أو لا يدرون ماذا يفعلون ويتوهمون أنهم في سواء السبيل سالكون وبالحق

معتصمون، والحقيقة أنهم إلى الرشاد محتاجون، وهنا يبرز أثر الحكمة في التعامل مع هذا النمط من البشر، والحكمة تؤثر استخدام الأسلوب المناسب لكل فئة أو شخص يقصد إقناعه بخطئه وبعده عن الحقيقة، وبالتالي إعادته إلى السبيل القويم دون جرح مشاعره أو عواطفه، للمثقف أسلوبه، وللجاهل آخر، للفتى أسلوبه وللبالغ غيره. هذا الأسلوب الحكيم استخدمه الرسول بولس كما يظهر جلياً في معظم رسائله، يقول " **صرت لليهودي كيهودي لأربح اليهود، وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس، وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس... لأربح الذين بلا ناموس، صرت للضعفاء ضعيفاً لأربح الضعفاء.. هذا أنا أفعله لأجل الإنجيل** " (1 كور 9: 20-23). وهذا هو الأسلوب الصحيح الذي يقدمه الرسول لكل فرد ليدرك كيف يجب أن يتصرف بروح الحكمة والتعقل، ولا سيما للذين هم في المسيح يسوع، وبالأخص أولئك الذين يعملون من أجل إنجيله، إذ لا يرى بأساً من إظهار الضعف إذا كان هذا الضعف يحل معضلة شائكة، كي لا تتطور إلى الأسوأ، أو لكي يربح نفساً. فمن أجل إنجيل المسيح، ولكي يُقنع الرسول بولس أهل اثينا بالإيمان بـالله الواحد الحي، تعامل معهم بالأسلوب الذي يستهويهم ويجذبهم إلى سماع أحاديثه التي جاءت بكلمات لطيفة عن إلههم المحبوب المجهول، مبشراً إياهم بهذا الإله نفسه والذي أعلن ذاته للعالم فلم يعد مجهولاً. ولدى نقل البشارة إلى اليهود، لكي يقودهم إلى حظيرة المسيح تحدث معهم بأسلوب آخر مغاير يميلون

إليه ويحبذونه، وهو تقديم المسيح لهم كرب ومخلص عن طريق تحقيق نبؤات أنبيائهم فيه، وهكذا نجد الحكمة والتبصر يلعبان دوراً هاماً في فكر هذا الرجل العظيم..

فمن الحكمة إذا اختيار الأسلوب الناجح والمناسب للتعامل مع الأشخاص، كل بما يتلائم وواقعه. فإذا كان ممن يفتخرون ببرهم الذاتي، يُرفع فكره إلى فوق بطريقة يشعر بأن الحديث موجه إليه ولكن بصورة غير مباشرة، فيتخذ منه عبرة فيعدل عن خطئه. ومن الغباء بمكان أن لا يتراجع المرء عن أخطائه عندما يكتشف أو تُكشف له فيشعر بذنبه، كما كانت الحال بالنسبة إلى هيرودس الذي شعر بما اقترفه بحق المعمدان، غير أن كبرياءه حالت دون اعترافه بذنبه. أما بالنسبة إلى ذوي المزاج العصبي، فإن الكلمة الطيبة الرقيقة هي خير ما يمكن أن يشعرهم بخطئهم فيرجعون عنه، فمن الخطأ أن يُجابه مثل هؤلاء بأسلوب قاس يزيدهم عصبية وعنفاً ويعكس المطلوب سلباً. فمن أجل الجمع والسلام، ومن أجل رأب الصدع وإعادة المياه إلى مجاريها الصافية، يستوجب التعامل بالحكمة والتروي، لأن التهور أو العنف يشكل خطر الخصام والانقسام. يُقال : والعهدة على النجارين، أن النجار لو طرق المسمار بقوة لانفلقت الخشبة ولم تعد تصلح لشيء، ولكن لو طرقه بهدوء وتروٍّ لأخذ مكانه الطبيعي من الخشبة. هكذا الأمر بالنسبة إلى الجاهل الذي يجب أن يعامل بحكمة ورقة بدلاً من العنف والانفعال.

يعرض سفر أعمال الرسل موقفاً كاد يطيح بالكنيسة الفتية لو لم يعالج بطريقة حكيمة، فقد اختلفت وجهات نظر الرسل بشأن المتنصرين من الأمم، فرأى بعضهم ضرورة الزامهم بممارسة بعض أعمال الناموس، في حين لم ير البعض الآخر ذلك ضرورياً، وبكلمة رقيقة حكيمة أوحاها الله إلى بطرس الرسول، حُلَّتْ المشكلة وسارت شؤون الكنيسة على أفضل ما يرام وسادت المحبة والسلام (أع 15). فمن شأن الحكمة أن تحذر من الدخول في مناقشات عقيمة لا جدوى منها، وقد حذر الرسول بولس تلميذه طيمثاوس من مثل هذه المناقشات، التي غالباً ما تنتهي إلى نتيجة غير محمودة العقبى، لكونها تؤدي إلى منازعات قد يطول أمدها وتترك وراءها ندماً عظيماً وخسائر جسيمة، ما كانت لتكون لو عولج الأمر بالحكمة التي تمتص الغضب، والغضب كما هو معروف لا يشمل سوى الإساءة ومن ثم الندم. عندما غضب العبرانيون وهم في البرية بسبب عوزهم إلى متطلبات العيش من طعام وشراب، امتص موسى النبي غضبهم ذلك بتعامله معهم بالحكمة والروية وعاد بهم إلى عبادة الله، متجنباً التعامل بالعنف وهو في موقع يسمح له بذلك.

أجل قد يلقي ذوو السياسة الهادئة في حل المعضلات، العديد من المحاربات، فقد تعزى سياستهم إلى الضعف وعدم الكفاءة وما إلى ذلك، لكنها في الواقع سياسة بناءة ناجعة تشهد لها نتائجها والأمور بمقاصدها كما يُقال. و لم يغفل الكتاب المقدس أهمية التعامل بالحكمة والمرونة في مختلف الشؤون الحياتية، وبخاصة للقضاء على المشاكل وسوء التفاهم،

ولا سيما بالنسبة إلى ذوي المواقع الحساسة في الأسرة أو المجتمع أو أية وحدة إدارية. فيقول صاحب الأمثال : " **أن الحكمة تبني البيت** " وحكمة المرأة خاصة تثبت أسسه أي تؤمن سعادة الأسرة، فبالحكمة تستطيع أن تثبت أركان أسرتها وتخلق فيها جوّاً من الفرح والمسرّة، بعكس الجهل الذي يهدم كيان الأسرة ويشرّد أفرادها ويزجهم في مصير غامض.

القناعة

لقد قيل، ويالروعة ما قيل، إن (القناعة كنز لا يفنى)، ولا شك في أن هذا القول مستمد أصلاً من روح العهد الجديد، وبخاصة قول الوحي بلسان الرسول بولس من أن القناعة المقترنة بالتقوى تجارة عظيمة (1 تم 6: 6). وكذلك من حديث الرب يسوع الذي يدور حول الكنز الذي يبقى إلى الأبد ولا يطاله ما يعبث به أو يفسده (متى 6). وإذا كان للإنسان أن يطلب كنزاً من الله فليكن مثل هذا الكنز الذي يتمثل بأعمال البر والإحسان والذي يؤمن له السعادة الداخلية التي تفشل في تأمينها كل كنوز هذا العالم المادية، هذه الكنوز التي مهما بلغت فهي أضعف من أن تسعف الإنسان وهو يتخبط في محيط هموم هذا العالم، وعاجزة عن أن تنتشله من يم اضطرابه النفسي إذا ما تمكن منه، وعند

ذاك لن يجد وسيلة لانتشاله سوى الغنى الحقيقي المتمثل بالإيمان، إذا كان إيماناً مبدئياً راسخاً متأصلاً في أعماق القلب والنفس، يؤمن مع الرسول بولس " **بأننا لم ندخل العالم بشيء وواضح أننا لا نقدر أن نخرج منه بشيء** " (1 تم 6: 7).

والحديث عن القناعة لا يعني إطلاقاً ضرورة العيش بعسر، فهذه ليست إرادة الله أبداً، فإرادة الله هي أن يعيش الإنسان بيسر مع اعتبار القناعة تجارة عظمى كما نوهنا أعلاه، لذا فقد وجد الله مجالات عديدة ووسائل متنوعة للعمل وفتح بابه على مصراعيه أمام الناس ليعملوا ويعيشوا سعداء ويشعروا بلذة الحياة عندما يتصبب العرق من الجبين. كما أن الحديث عن القناعة يهفو بالفكر إلى العدالة الاجتماعية التي فرضتها الإرادة الربانية، فحيث كانت القناعة سادت العدالة ومن ثم ساد السلام، لأن من شأن العدالة والقناعة توجيه ميول الإنسان نحو الخير وإبعاده عن سلوك سبل الشر والظلم والمطامع.. والقناعة لا تعني فقط اكتفاء المرء بما يرزقه الله، فيخطط لحياته على ضوء ذلك ليشعر بنكهة السعادة، إنما تعني أيضاً عدم الإسراف والتبذير عند المقدرة، ولكن في غياب القناعة. يحتل الإسراف المقام الأول في الحفلات التي تقام بمناسبات سارة، والتي ممكن أن تقتصر على نسبة معينة من الانفاق تفي بالغرض، إلا أن الإسراف يرفع رأيته خفاقة ليلفت الأنظار، فهناك مثلاً حفلات الزفاف التي يظهر الإسراف في بعضها بصورة غير عقلانية فيذهب كل شيء هدراً خالياً من أية غاية إنسانية، ومن دون أي محصل سوى ثناء

الذين (آلهتهم بطونهم). كما لا ننسى الحفلات الباذخة التي تقام بمناسبة التناول الاحتفالي من دون أي مبرر، والمبرر الوحيد الذي يقدمه الآباء قولهم : أن ما نفعله هو تعبير عن حبنا العميق لأطفالنا. جميل جداً أن يحب الآباء أولادهم إلى درجة كبيرة، فهذا حق وواجب، بل يمثل إرادة الله " **أيها الآباء أحبوا أبناءكم** ". ولكن أليس هناك من سبل أخرى يعبرون فيها عن حبهم العميق لأطفالهم ؟؟ أليس من المستحسن أن يكون الانفاق بنسبة تفي بالمطلوب. وتدخر النسبة الأكبر ككنز في السماء عن طريق الاقتسام مع ذوي الفاقة كما توحي تعاليم السيد المسيح، لا سيما وأن المناسبة روحية بحتة لا تستوجب الإسراف مطلقاً، أليس من المفضل أن تقدم للطفل هدية تعبر عن حب المسيح وتذكره بهذا الحب لينمو فيه ويتأصل ؟ وكذلك قل عن مآدب المآتم.

ومن المؤسف أن يقيس البعض الحياة أو حتى الإيمان بمقياس مادي فيسقط تحت إغراءات مادية بسبب عدم القناعة، بحيث يترك معتقداته المنبعثة من روح الإنجيل المقدس، لينتمي إلى طائفة لا تفهم سوى لغة المادة فلا تتعمل بسواها. وهي أدنى بكثير من مستوى طائفته تاريخاً وحضارةً وعطاء، وليس لها من الإنجيل سوى " صورة التقوى "، غير متذكر أن الغنى الحقيقي ليس بالمكاسب المادية وتخزينها حيث يطالها السوس واللصوص، إنما هو بالإيمان الطاهر الذي منه تنبعث نعمة القناعة كما أشرنا إليه، وكأني بمثل هؤلاء يفقدون بكوريتهم مقابل آكلة عدس مثل عيسو، متناسين أن الرب يسوع قد أعطى درساً بليغاً في القناعة عندما أوصى تلاميذه أن " **لا تقتنوا ذهباً ولا فضةً ولا نحاساً في**

مناطقكم ولا مزوداً للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا " (متى 10: 9). ويقدم لنا العهد القديم أمثلة حية، عن القناعة، سواء بالزهد عن أطايب الدنيا أو رفض العروض المغرية لانتزاع الإيمان من القلوب، كأبناء الشهيدة شموني البررة، ودانيال النبي الذي أُغري بأرفع المناصب وبالمقام الأسمى في ديوان الملك بلطشاصر " **تلبس الأرجوان وقلادة من ذهب في عنقك وتتسلط ثالثاً في المملكة** " (دا 5: 16)، فكان جواب دانيال " **لتكن عطاياك لنفسك وهب هباتك لغيري** " وفي عهد داريوس يتآمر بعضم على دانيال أمام الملك ليزعزعوا إيمانهم فلم يفلحوا، لأن قوة إيمانهم دعت الله ليرسل ملاكه فيسد فم الأسود الموجودة في الجب الذي ألقي فيه، فسجدت له بدلاً من إيذائه. كما لا ننسى قناعة أليشع النبي الذي رضي أن يعيش في علية بسيطة في بيت عائلة شونمية، وضع له فيها سريراً وطاولة وكرسي وقنديل فقط (2 مل 4: 8). ويطول الحديث إذا ما تطرقنا إلى ذكر زهد عظماء رجالات الكنيسة في الدنيا. وعلى ذكر القناعة يتساءل البعض لماذا نعاني من شظف العيش في بلدنا ؟ في حين يعيش الذين هاجروا إلى بلد آخر، في بحبوحة ؟ وهنا أدع القديس يعقوب يجيب على هذا التساؤل ليقول : **" احسبوه كل فرح يا إخوتي حينما تقعون في تجارب متنوعة "** (يع 1: 2)، ذلك أن التجارب هي امتحان للإيمان، وعلينا كمؤمنين أن نعيش الإيمان بكل أبعاده وبخاصة أثناء التجارب والظروف الصعبة، عالمين أن فشلنا في الحفاظ على صبرنا، دليل ضعف إيماننا.

التعصّب...

لا ريب في أنها إرادة الله أن يختلف البشر عن بعضهم في العرق والجنس والقومية واللون والشؤون الحياتية، في الفكر والدين، في المذاهب المختلفة الدينية منها والسياسية والاجتماعية وما إلى ذلك. فالأمر بالنسبة إلى الله طبيعي لا غبار عليه، لا بل حسن " **ورأى الله كل ما عمله فإذا هو حسن جداً** " (تك 1: 31). كل ذلك لكي لا تكون الحياة مملّة إذا ما كانت على نمط واحد وسارت على وتيرة واحدة، فالتنوع يعطي مذاقاً ونكهة خاصة لحياة البشر، شريطة أن لا يُستغل هذا التنوع لأغراض ومصلحة خاصة، أو للاعتداء وإيقاع الظلم بالآخرين أو لاستهانة بهذا الجنس أو ذاك، أو استعمال القوة والمغريات لتغيير معتقد الإنسان دينياً، أم مذهبياً وما سوى ذلك. فإن ممارسة مثل هذه التصرفات

هي ضد إرادة الله الذي يريد أن يتعايش الناس بسلام وأطمئنان تام مهما اختلفت آراؤهم ومشاربهم الفكرية ومبادئهم العقيدية. وقد أوجد الله في الإنسان الحب لكي يكون رابطاً قوياً بل جسراً يربط بين قلوب الجميع، ولكي يتمتع كل إنسان بما وهبه الله من الحرية ومتع الدنيا الصالحة.

غير أن واقع المجتمعات البشرية اليوم مؤسف لكونه غير ما يريده الله، وقد يلعب التعصب دوراً كبيراً في إفساد المجتمع، فقوم يتعصبون لقوميتهم ويعتبرون أنفسهم أرقى بل أذكى أجناس البشر، ولهم يجب أن تكون المكانة الأولى بين الشعوب، وأخرون يتعصبون لآرائهم ومعتقداتهم، إذ يرونها هي الحقيقة المطلقة وليس غيرها، وغيرهم يتعصبون لمذهبهم ودينهم فيرونه في القمة، والمذاهب الأخرى في الحضيض. وبذلك تخلق الحزازات وتستفحل الانشقاقات وتعشش الضغائن والأحقاد في القلوب، فتلتهب الغيرة العمياء القاتلة حباً بالاستعلاء أو الانتقام، فتقع المآسي القاسية التي ماكانت لتكون لولا التعصّب البغيض. فقد تلقت المسيحية في صدرها مقاومة عنيفة من زعماء اليهودية فأذاقتها مر العذاب ما لشيء سوى لأنهم توَهمّوا أن المسيحية هي ضد الشريعة الموسوية التي كانوا متعصبين لها شديد التعصّب، وكذلك فعلت الشعوب والدول الوثنية لما رأت أن المسيحية ستقوِّض أركان دياناتها غير المدعومة بقوة أو إرادة إلهية. وليس هذا بالأمر الغريب، لكن الغريب في الأمر أن يعمل التعصّب في نفوس قادة

الكنيسة أنفسهم وبخاصة خلال القرون الخمسة الأولى، فيقسم الكنيسة الواحدة إلى كنائس وطوائف تحارب بعضها البعض بشتى الوسائل، بالقلم واللسان والفعل الذي تمثل بالعنف والإرهاب أحياناً، حيث أثيرت اضطهادات ضد بعض الطوائف مدعومة بالسلطة المدنية، خلّفت آلافاً من الشهداء، واضطرت الآخرين إلى اعتناق دين آخر بسبب ما لحق بهم من الضغوط والعنف، لا بل أن بعض الطوائف آثرت فاتحين من غير المسيحيين نظراً للمضايقات المذهبية التي كانت تمارسها السلطات المدنية المنتسبة إلى مذهب آخر. ويحدث مثل هذا بين قبائل من أمة واحدة، عندما تنادي أحداها مثلاً بالتزعم على الأخرى، فيتمخض هذا الموقف عن قتال وسفك دماء قد يستمر فترة طويلة يستحكم خلالها العداء بين قبيلتين شقيقتين. وفي كثير من المداولات والحوارات الهادفة للسلام بين طرفين متنازعين، أو تقريب وجهات النظر في مبدأ أو عقيدة، يدلي التعصّب بدلوه فيوصل الحوار إلى طريق مسدود.

ومن أمثلة التعصّب القومي ذاك الذي تمسك به الألمان فرفعوا شعار : **ألمانيا فوق الجميع**، وقد دفعهم هذا الموقف المتزمت إلى خوض حربين عالميتين مأساويتين، كانت وبالاً على ألمانيا بالدرجة الأولى، فالتعصّب والحالة هذه لا يُخلِّف سوى الدمار والخراب والبغضاء والشقاء. إذ من شأنه أن يميز بين البشر ويجعل القوي يستعبد الضعيف في حين أن الله خلق جميع البشر سواسية وأحراراً. قرأت قصة طريفة تنم عن تعصّب مقيت، مفادها أن كاتباً كتب قصة خيالية جاء فيها أن

أصوات البشر كلها محفوظة في الفضاء ويمكن جمعها، وعبّر فيها عن رغبة الناس في سماع صوت المسيح، فجمع صوته، ولما سمع الإنكليز أحبطوا وتذمروا لأن المسيح تكلم بالآرامية وليس الإنكليزية !! وفي العهد القديم نقرأ عن تعصّب شمعي الأعمى ضد داؤد النبي، فقد كان شمعي من سبط بنيامين وداؤد من سبط يهوذا، ولما غضب الله على شاول وهو من سبط بنيامين، وأمر بنقل الملكية إلى داؤد وهذا يعني انتقال الرئاسة من سبط بنيامين إلى سبط يهوذا، غضب شمعي ولعن داؤد النبي، إلا أن داؤد سامحه. ولا يخفى تعصّب شاؤل الطرسوسي ضد الكنيسة الفتية، لكنه ضرب عرض الحائط تعصّبه القومي والديني والقبلي لدى معرفته المسيح (في 3: 5)، ثم عبّر عن رأي المسيحية المضاد للتعصّب فكتب يقول " **ليس يوناني ولا يهودي، ختان وغرلة، ولا أعجمي أو بربري، ولا عبد ولا حر، بل المسيح الذي هو كل شيء وفي كل شيء** " (كو 3: 11).

صـــداقـــــــة...

قبل فترة ليست بطويلة، زارني أحدهم بمفرده على غير العادة، فسألته عن صديقه الذي كان يلازمه دوماً، وكان يقدمه إليَّ بالمخلص الحميم الوفي، لا بل كأحد أفراد العائلة، فإذا به يئنُ بالروحِ ومن أعماقِ القلب، ويصمت قليلاً ثم يقول : كنت اعتقد بأنه كان يفهم الصداقة كما أفهمها أنا، حب وعون وتفان، ولكن ظني خاب، إذ لم أعد أراه منذ أصابتني النكبة القاسية التي تعرفها. ليس هذا فحسب، بل طرقَ مسامعي أن له أصبعاً بشكل أو آخر في النكبة التي حلت بي. وقد تأكد لي أن صداقته كانت سطحية مصلحية نفعية لا حميمية وفية، ذلك أن الصديق الصَدوق هو في وقت الضيق بحسب المقولة المعروفة، لأن

الصديق الوفي يعبر عن صداقته في أحرج الظروف، ولدى الحاجة الماسة، فيمد يد العون بكل تفان دون أن يدع رادعاً ما يحول دون ذلك.

إن الصداقة ليست مجرد تبادل أحاديث المجاملة والزيارات والابتسامات العريضة، بل هي خُلُقٌ وأمانة وإخلاص وودّ. فالصديق المخلص لا يكسب فقط ثقة صديقه أو أصدقائه، بل يكون موضع ثقة الناس الآخرين أيضاً. وغالباً ما يلجأون إليه طلباً لحل مشكلة ما تعترضهم، أو ابتغاء مشورة فيجدونها لديه نزيهة مجردة. يقول مثل دارج " **صديقك مَنْ صَدَقَكَ لا مَنْ صَدّقكَ** " واعتقد أن المعنى واضح لا لبس فيه، فالصديق الوفي هو مَنْ صدَقَكَ في كلامه وأعماله، وليس من يتظاهر بأنه يصدِّق كل ما تتحدث به ولئن لا يكون صحيحاً. فإن يُصدّقُكَ ولا يصدُقُك، فهذه ليست صداقة إطلاقاً، إنما هي مراوغة وبالتعبير الاجتماعي، مجاملة فارغة، والمجاملات الفارغة غالباً ما تؤدي إلى عواقب وخيمة لكونها تستند إلى الخداع وليس إلى الحقيقة والعقل السليم، ومهما كانت المجاملة مرغوب فيها، يجب أن لا تكون على حساب الحقيقة التي وحدها لها المقام الأول.

الصداقة الحقة هي تلك المؤسسة على ثوابت عقلانية منطقية، والتي لا تأتي بصورة اعتباطية، بل تتمخض عن دراسة من تودُّ صداقته من شتى النواحي، أخلاقه، مبادئه، مصداقيته، اتجاهاته، ميوله، موقعه الاجتماعي وما إلى ذلك. هذه الضوابط تشكل أرضية مشجعة للصداقة، إذا ما وجدها ملائمة، فبإمكانه حينذاك أن يمد يد الصداقة إلى مثل هذا

الإنسان، ولا بد أنه سوف لن يلقي سوى الخير والمشورة الحسنة. فإن الصداقة المبنية على قواعد مثل هـذه، تبقى ثابتة لا تؤثر فيها الأقاويل الكاذبة، وما أكثرها في المجتمعات البشرية، إنها كالبناء المرصوص الذي تحدّث عنه الرب يسوع، المشيّد على أساس صخري راسخ، يبقى ثابتاً متحدياً كل ما يعترضه من عواصف عاتية وزوابع هوجاء، وسواها من المؤثرات الخارجية مهما كانت شدة ضغطها، بعكس الصداقة الهشّة المبنية على الخداع والمنفعة الذاتية. وكَمْ مِن شخصٍ خُدِعَ بمثل هذه الصداقة !. ليس صديقاً من يُجالسك ويجاملك ويشاركك معاقرة الخمر والمجون، أو مَن يقودك إلى اقتراف إثم أو جريمة، لأن شخصاً مثل هذا لا يجوز أن يوصف بالصديق، فالصديق كما قلنا هو مَنْ " صَدَقَكَ " وإلا فصداقته مزيفة، يظهر زيفها لدى أي تجربة تعترض الإنسان، أو أية فرصة مواتية للاستغلال وإيقاع الضرر به في أية ناحية كانت، في المال، في العيال، في السمعة وما سوى ذلك، فكم مِن صديق " وهمي " يضرب بالصداقة عرض الحائط عندما تسنح له الفرصة لضرب ضربته كما يُقال، فيمد يده لسرقة أموال صديقه أو أحد أفراد أسرته، وقصة مثل هؤلاء الأصدقاء المزيفين، هي أشبه ما تكون بقصة ذلك الثعلب التي كنّا نقرأها في صغرنا، ومفادها : أن الثعلب ارتدى ثوب النُسّاك وأدعى بأنه ذاهب لأداء مناسك الحج، فاصطحب معه مجموعة من الدجاج، وما أن سار بها قليلاً حتى أخذ ينهش الواحدة تلو الأخرى.

الصداقة عنصر هام من عناصر حياتنا الاجتماعية، شريطة أن تقوم على أسس أخلاقية وإنسانية ثابتة، كالمحبة وصفاء النية والنفع المتبادل، وأن صديقاً يتميز بمثل هذه الخِلال لا يحظى باحترام الناس فحسب، بل ينال أيضاً بركة الله كالتي نالها أبونا ابراهيم الذي غدا خليلاً أي صديقاً لله منذ دعوته إلى آخر حياته، لقد شعر ابراهيم أن الله اختاره صديقاً له فاعتز بهذه الصداقة وتشبث بها فكان النجاح حليفه في حله وترحاله. كما كانت صداقة موسى النبي لله عميقة صميمية، نال بسببها مكانة خاصة واحتراماً متميزاً لدى الشعب، وقد تمتنت هذه الصداقة حتى أدت إلى أن يكلم الله موسى وجهاً لوجه، الأمر الذي حرّك غيرة هرون ومريم أخوي موسى، فأرادا أن يحظيا بما حظي به موسى، فقال لهما الرب " **أنا بالرؤيا أكلّم الأنبياء، أما موسى عبدي فبالعيان أتكلم معه لا بالألغاز** " كل ذلك لأن صداقة موسى لله كانت خالصة.

وأخيراً نقول، نظراً لأهمية الصداقة الصادقة، يجب أن تتوفر بين جميع عناصر المجتمع، كصداقة الآباء مع الأبناء، والأساتذة مع الطلاب، والرؤساء مع المرؤسين، والرعاة مع الرعايا. لأن صداقات مثل هذه تخلق أجواء المحبة والتفاهم والتعاون المتبادل، وتوفر المجتمع الذي يتطلع إليه كل واحد...

الـفـايـروس

كثر الحديث في الآونة الأخيرة عن هـذا المخلـوق اللعـين، الـذي يتخذ له مسـتقراً في بقـر حلـوب أو حمـل وديـع أو جسـم إنسـان. هـذا المخلوق الأضعف الأقوى الذي يقضي ولا يُقضى عليه. أنه واهن، ولكن أين من جبروته جليات ؟ لا تراه العين المجردة لكنه موجود في كل مكان، يفتك بهدوء وسكينة ولا زال العقل البشري عاجزاً عن أن يطاله، وجـل ما أرميه من ذكره هنـا، هـو الإشـارة إلى مفاعيلـه الخبيثـة الـتي تعمـل في الخفاء فتولد موتاً زؤاماً. وإذا كان الناس يخشون هذا الفايروس ويكثرون الحديث عنه، فهم قلما يتجاذبون أطراف الحديث عن فايروس مـن نـوع آخر أكثر خبثاً وأشد فتكاً وأعمق أثراً في حياتهم. أنواعه متباينة وأصنافه شتى. أنه فايروس لا مساس لـه بجسـم الإنسـان بـل يصيبـه بـالصميم، إذ

يستقر في نفسه وفكره وقلبه. لأن الإنسان هو نفسه يخلق هذا النوع من الفايروس، ويغذيه ويفتح له الأبواب على مصاريعها ليدخل آمنا، ويشرع بنخره من الداخل. وهكذا يكون الإنسان قد جرح يده بيده دون أن يحاول معالجتها حتى إذا ما عرف الدواء غض الطرف عنه. هذه مشكلتنا نحن البشر نرى الشر، نرحب به فنغني له دون أن نأخذ بمشورة القائل : (ابتعد عن الشر وغن له).

ولعل من أبرز أنواع الفايروسات التي تنخر في هياكلنا هو فايروس الانقسام المطبوع في القلوب، انقسام في البيت الواحد يؤدي إلى زعزعته وهدم أركانه وتشرد أصحابه، ويمزق حياتهم شر ممزق دون أن يعار اهتمام بتحذير الرب يسوع " **كل بيت ينقسم على ذاته يخرب**..." ويطال هذا الانقسام، الزوجين أو الآباء والأبناء أو الأخوة والأخوات ومن شأنه القضاء على روح المحبة والتعاون، والحرمان من مذاق الأبوة والأخوّة والأمومة. وأن خير علاج لهذا الفايروس الخبيث هو قول الرسول بولس " **احتملوا بعضكم بعضاً بمحبة، واجتهدوا في المحافظة على وحدة الروح برباط السلام. فأنتم جسد واحد وروح واحد**..." (أفسس 4: 2)، وكذلك انقسام الكنيسة المسيحية الواحدة، وبالرغم من التصريحات والبيانات المعلنة، مازال كل واحد يبكي على ليلاه في الخفية ويحاول سحب النار إلى رغيفه معتقداً بأنه وحده ماسك بزمام الحقيقة وعلى الآخرين اعتناقها. ترى أليس هذا فايروساً، أصاب كبد الوحدة المسيحية، وما تزال كل العلاجات المقدمة لا تتعدى المهدئات ؟

والجهل هو الآخر فايروس رهيب، ولا نعني بالجهل عدم المعرفة أو قلتها بل الحماقة وهي داء لا دواء له كقول الشاعر، أنه يفتك بالإنسان مع بقائه على قيد الحياة، ولكنها شبح الحياة وليست تلك، التي من أجلها ينصح الكتاب المقدس بترك الجهل (أم 9: 6). وأن الجاهل الأحمق يهدم نفسه بيده (أم 14: 1). ومن شأن الحماقة تقويض الأسرة بصورة أكثر بشاعة من الانقسام وإبعاد صاحبها عن معرفة الله (أر 4: 22) لا بل هي الجنون المطبق بالذات.

أما الفايروس الآخر فهو الحقد وأخواته، نقول أخواته كقولنا أن وأخواتها التي لها نفس المفعول الذي لأن، فإذا كانت هذه تنصب بالفتحة، فالحقد وإخوانه تنصب شراكاً لتوقع الإنسان فتؤدي به إلى التهلكة. وما أخوات الحقد هذه سوى الخبث، الحسد، البغضاء، النميمة، الوشاية، وسواها وما أوسع انتشارها في مجتمعنا، وهي تشكل عصابة ماردة تستهدف كرامة الإنسان وإذلاله وتشويه سمعته فأن كلمتها ترعى كالأكلة (2 تي 2: 17)، وأول عضو تنهشه هو القلب فيتعشش الفساد في الثغرات التي تتركها مخالبها إذ تنشبها فيه فتحوله من كونه مستودعاً للحب والعطف والحنان إلى مستودع لا يخرج من داخله سوى الشرور.

وقانا الله شر الفايروسات الطبيعية منها والاجتماعية والأخلاقية.

الحجر بين الدحرجة والرماية

المريمات وهنَّ في طريقهنَّ إلى حيث دفن المسيح، وقد أخذت منهن الحيرة مأخذاً وهنَّ يقلنَّ " **من ترى يدحرج الحجر ؟**" وبعبارة أخرى من يستطيع أن يدحرج الحجر لكن الحجر دحرج وبانت الحقيقة. المسيح قام. وهذا هو بيت القصيد من دحرجة الحجر. إظهار الحقيقة المخيفة في باطن الإنسان.

من هذا الحدث ننطلق في الحديث عن دحرجة الحجر أو رميه. الموضوع، كما يبدو، ذو شقين متباينين، الأول يتضمن الكشف عن حقيقة الإنسان ودواخله، والثاني يدور حول رمي الناس بحجر من دون وجه حق. أن دحرجة الحجر هنا لا تعني القدرة، بل الجرأة، أي من يجرؤ على دحرجة الحجر عن هذا الشخص أو ذاك لتنجلي الحقيقة وبخاصة

تلك الحقيقة التي تختفي وراء التظاهر. في الماضي دحرج المسيح الحجر عن الفريسيين فأزاح الستار عن حقيقتهم. فالأمر ليس من السهولة بمكان. وأن حقائق كثيرة تبقى غامضة خفية بسبب غياب الجرأة الكافية لكشفها. وعوامل غياب الجرأة كثيرة. ولعل المجاملة تقف في المرتبة الأولى من هذه العوامل، وكثيراً ما تصل إلى درجة الرياء، أن المجاملة مقبولة شريطة أن لا تكون على حساب الحق. ثم يأتي الخجل لا سيما إذا كان من هو بحاجة إلى دحرجة الحجر، أكبر سناً وأرفع شأناً وأسرع ثوراناً وغضباً. وهناك التعمد في إبقاء الحقيقة مخفية كسباً للورد أو خشية فتور العلاقات في الوقت الذي تكون الرغبة شديدة في الحفاظ على متانتها.

ومن الناس من يعرفون الحقيقة، لكنهم غير أباليين لا يعيرون لأمر اهتماماً لا يمسهم بصورة مباشرة. ومنهم من يحاول دفع الآخرين لدحرجة الحجر ليكون في مأمن من اللوم. وفريق يتوخى فعلاً المصلحة العامة، إيماناً منهم بأن الأمور لا تستقيم أن بقيت الحقيقة مطمورة في الداخل ومخفية تحت الحجر، فيرون أن لا بد من إزاحته لكشف اللثام عن الحقيقة. وقد يدحرج المرء الحجر، عن ذاته بنفسه من حيث يدري أو لا يدري، فيترجم لسانه مكنونات قلبه التي هي خير مؤشر إلى شخصيته، من خلال تعامله مع الغير وأعماله وأقواله، ألم يقل السيد المسيح " **من فيض القلب يتكلم اللسان** " (متى 12: 34). واللسان خير وسيلة للكشف عن الذات، فهو الذي يرقى بالإنسان إلى أعلى المراتب ويصنع منه شخصية متميزة مرموقة، أو يهبط به إلى أسفل الدركات إن كان

لا يصونه كما ينبغي. ولا غرابة أن نسمع عن كثيرين فقدوا احترامهم ومراكزهم وأحياناً حياتهم بسبب عدم التحكم بألسنتهم. أليس جديراً أن نقتدي بمعلمنا الأول يسوع الذي لم ينطق سوى بكلمات بركة حتى كان كلامه كله في نظر الشعب حكمة (مر 6: 2).

أما رمي الحجر فأمر آخر، يعني قذف الناس. بحجر دون مبرر. في حين ممكن التجاوز عن ذلك حتى لدى وجود مبرر، لأننا جميعاً أخطأنا وأعوزنا مجد الله (رو 3: 23) وقد انتقد السيد المسيح رمي الناس بحجر باعتبار أن الرامي قد لا يخلو غالباً مما يستوجب القذف " **من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولاً بحجر** " (يو 8: 7). ليس أمراً محبذاً أن يظهر المرء عيوب الناس لمجرد هواية أو للتسلية دون أن يُشير إلى أية معالجة للحالات السلبية. والانكى أن البعض يجسدون تلك العيوب ويضعون لها (رتوشاً) ونوعاً من البهارات (غير مستوردة من الهند) بل هي من إبداعات أفكارهم. وأخيراً أود الإشارة إلى أننا كثيراً ما نخطئ بتفسير كلمة ما مقروءة كانت أم مسموعة، تصدر عن هذا أو ذاك دون قصد مبّيت فيقودنا هذا التفسير الخاطئ إلى رمي القائل أو الكاتب بحجر...

الحضـارة والأســرة

ما وهب الله العقل للإنسان. إلا ليقوده إلى كل ما يصلح له وينفعه : وإلى ما يؤول إلى سلامه وسعادته. وهذا ما حدث حينما أخذ الإنسان يبني له حضارة تسعده، فصارت موضع فخره واعتزازه، حتى أخذت الشعوب تتبارى في الإعلان عن كونها من أمهات الشعوب التي كونت الحضارة البشرية، أو على الأقل أسهمت بشكل أو آخر، في إقامة صرحها، لطالما أنها تنشد تقدم الإنسان في معارج الحياة وتوفر له أسباب العيش الرغيد الكريم الذي يسعى إليه. وهكذا تكون الحضارة نوعاً من إبداعات عقل الإنسان الخلاق التي تنعكس على حياته إيجابياً فتحقق أمنياته وتؤمن له طموحاته. وهذا ما يلاحظ من تاريخ الحضارة البشرية التي رفعت فعلاً من قيمة الإنسان، ووضعته في مكانة مرموقة، وخلقت

مجتمعات راقية زاهـرة، ومتنت روابط الأسرة وبثّت بين أبنائها روح التعاون والتفاهم. وبذلك تكون الحضارة نعمة عظمى للإنسان.

ولكن ما يؤسف له حقاً، أن يحول إنسان اليوم الحضارة عن أهدافها الإنسانية ويغير مسارها ليبعدها عن معطياتها الحقيقية التي تهدف سعادة البشر لا تعاستهم، حتى غدت في بعض البلدان، وبالاً على الإنسان، بل عاراً على الأسرة الركن الأساسي للمجتمع إذ بددت شملها وأفسدت فيها رائحة الحنو والعطف والحب الزكية التي كانت تملأ أرجاء العش الأسري الحاني، لأنها أخذت تحلل ما حرمه الله وتحرم ما حلله. فهل يمكن أن تدعى، والحالة هذه، ظاهرة هذا شأنها بالحضارة ؟. فأية حضارة هذه التي تمسك بالمعول لتهدم بنيان أسرة مرصوصاً ؟ حتى غدت كلمة تافهة أو خطأ بسيط أو تصرف خاص قد لا يكون متعمداً، مبرراً في مفهوم الحضارة المعاصرة، لهدم أركان الأسرة بالانفصال، وكأن ذلك الرباط المقدس لم يكن، وكأن شيئاً ما لم يحدث، أليس هذا ضد إرادة الله الذي جعل من ركني الأسرة واحداً ؟ ما كان ذلك ليكون لولا البدعة التي ابتكرتها الحضارة المعاصرة المتطورة، وأعني بها (الزواج المدني) الذي لا يتعدى عقده عقد صفقة تجارية بين طرفين. ألا يشكل هذا خطراً جسيماً على الأسرة ؟. وقد يندهل القارئ إذا ما علم ـ وبحسب التقارير الدولية ـ أن كل ثلاث حالات زواج تنتهي اثنتان بالطلاق، في الدول المتحضرة جداً التي أخذت تنظر إلى الأمومة وكأنها (عبودية) وهي تفكر في السُبل الكفيلة لتحرير المرأة من هذه العبودية.

إن الأسرة هي أول صرح أقامه الله في تاريخ البشرية، وهدمه يعني محاربة الله الذي يجمع لا يفرق. ولو أن تفرق الأسرة توقف عند هذا الحد فقط، لكان الأمر (نصف مصيبة)، غير أن الأمر الأكثر خطورة هو نتائج الانفصال الوخيمة، التشرد الذي يطال الأطفال ويخلق فيهم روح العدوانية والكراهية، وكثيراً ما ينتهي إلى الإجرام أو الانتحار أو اللجوء إلى تعاطي المخدرات.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى، أخذت الشعوب (المتحضرة) تتبارى في صنع أسلحة التدمير الشامل، حتى غدت الدولة التي تسبق الأخرى، تتباهى بأن سلاحها أكثر تدميراً وأشد فتكاً بالبشر دون مراعاة مشاعر الناس، وقد تناسوا أن الإنسان لا يكون إنساناً بالمعنى الصحيح للإنسانية، إلا إذا تولد في داخله شعور بإسعاد الآخرين، لا تدميرهم كما يفعلون اليوم. أليس هذا تشويهاً لوجه الحضارة اللامع والبارع الجمال ؟

الأمين في القليل...

الأمانة هي الأمانة سواء كانت في القليل أم في الكثير، هذا ما يعكسه السيد المسيح في مثل الوزنات حيث أؤتمن الواحد على خمس وآخر على وزنتين، وكانت كلمة الثناء لكليهما واحدة " **نعماً أيها العبد الصالح كنت أميناً على القليل سأقيمك على الكثير** " والأمانة هي هي في أية ناحية كانت من نواحي الحياة، في المادة، في الإيمان في الأخلاق في أداء الرسالة. ولعلها تقف في طليعة المزايا التي تمنح الإنسان قيمة وكرامة وتضعه في مصاف المتميزين لدى الله والناس وتجلسه على منصة رفيعة وسط المجتمع.

في حديثه عن الأمانة، يجعلها السيد المسيح مقياساً للدخول إلى ملكوته " **كنت أميناً... سأقيمك على الكثير، أدخل إلى فرح**

سيدك ". وما يُقال عن الأمانة يُقال عن الخيانة، فالخيانة مهما كانت في القليل أم في الكثير هي خيانة بكل مفاهيمها حتى إذا كانت خيانة الذات كخيانة الإنسان لمبدأ قويم من أجل منفعة آنية أو نزوة عابرة. ولدى الحديث عن الأمانة أو الخيانة، فأن أول ما يتبادر إلى الذهن هو المادة، وكأن هذا هو المجال الوحيد. أجل : أن إساءة التصرف بالأموال المودعة لدى شخص ما، ومهما كان الغرض من هذا الإيداع، هي خيانة حتى ولئن كانت الحاجة هي الدافع، فهذا لا يبرر الخيانة بأي شكل من الأشكال. وليس المقصود بالوديعة ما يودعه البعض لدى هذا أو ذاك. فالقيم على الأموال العامة سواء كانت لدولة أم شركة أم لوقف، أن أساء التصرف بها فهو بحكم الضمير والقانون غير أمين أو بحسب تعبير السيد المسيح (العبد الشرير)، حتى و'ن لم يوجد رقيب أو حسيب، فالقريب هو الوجدان والحسيب هو الضمير الذي أن كان حياً فهو أشد المحاسبين فاعلية.

إن الذي يتصرف بما أؤتمن عليه بشكل غير سليم، يحاول تبرير عمله، وإقناع نفسه بأن ما يفعله هو أمر اعتيادي خال من أية لوثة أخلاقية. وذلك ليتخلص من عذاب الضمير. إلى هنا نتناول الحديث عن المادة، التي مهما كانت طائلة هي قليلة في نظر الإنجيل. فمن لا يكون أميناً في الأمور المادية لا يكون أميناً في غيرها. فلا يمكن مثلاً أن يكون أميناً في إيمانه أو معتقده، لأ ن الإيمان نعمة أودعها الله في الإنسان والكنز الأكثر قيمة وثمناً والائتمان عليه هو الأمانة في الكثير. ومن لا يكون أميناً

في إيمانه لا يكون أميناً في أخلاقه، لأن الأخلاق مرتبطة بالإيمان ارتباطاً وثيقاً، لا بل هي جزء هام منه، فأن طعنت طعن الإيمان. ولكي يدلل المرء على إيمانه، عليه أن يتحلى بمكارم الأخلاق. علماً أن عدم الأمانة يدخل الإنسان في أزمة أخلاق ومبادئ والتي قد نشاهدها اليوم بأم أعيننا ونلمسها لدى الكثيرين ممن اؤتمنوا ليس على المادة فحسب، بل وعلى أسرار ذات شأن. وهنا نتساءل هل أن ما يفعله هؤلاء يفعلونه عن دراية أم عن جهل ؟ فأن كان عن دراية فمعنى ذلك أن هذا الإنسان غير أمين على ذاته، لأن الأمين على ذاته إذا ما اكتشف خطأه، غير سلوكه وطريقته وانتحى المنحى المستقيم. وأن هو علم هذا واستمر في خطئه ألا يكون والحالة هذه، مجدفاً على الروح القدس ؟ وأن الأمين على ذاته يعمل وفق مبدأ واحد، فهو لا يعمل اليوم على مبدأ وغداً على مبدأ آخر.

إن الأمانة في نظر الله أهم من أية صفة أخرى لدى المؤتمنين، والرسول بولس في حديثه إلى الوكلاء، يطلب أن يكونوا قبل كل شيء أمناء (1 كو 4: 2). وقد دعا الرب الإنسان بلسان صاحب المزامير إلى الأمانة بقوله " **إرعَ الأمانة** " (مز 37: 3). ذلك لأن الأمين يؤدي رسالته على أكمل وجه، لكونه يدرك الحقيقة فيقدم الأهم على المهم، وزاد حذراً دائما من الانحراف والزلل خشية أن تتعثر رسالته.

بطولة أم حماقة

يُقدم البعض على إتيان أعمال منافية للمبادئ السماوية والاجتماعية والقيم الأخلاقية، ومتعارضة مع المفاهيم الإنسانية، وغالباً ما يكون الدافع إليها حب الظهور والعنجهية، أو ما يملأ القلب من حب أنتقام وضغينة وهي شر البلية، وهذه الأمور أن هي إلا وليدة الجهل والحماقة، ذلك أن الإنسان الواعي المتشرب بالثقافة الحقة، لا ينحرف نحو الظهور، بعكس الجاهل الذي ياتي بما قبح من الأعمال من أجل أن يظهر بالقول المأثور " قبِّح تعرف "، فالويل كل الويل لمن تسيطر عليه الكبرياء ويستحوذ على قلبه الحقد، لأنه في هذه الحالة يخرج عن نطاق إنسانيته ويغدو إلى الهوام أقرب، فلن يعود يرى حرجاً في إقدامه على أي عمل مهما كان مشيناً أو مخلاً بالأدب أو مسيئاً إلى الآخرين، لا بل يعتبر

نفسه بطلاً لا يضاهى، وما عمله هذا في نظره إلا عمل جبابرة عمالقة، دون أن يخطر بباله بأن عمله هذا هو عمل أقزام جبناء.

وهناك العديد ممن يفسرون البطولة تفسيراً خاطئاً، ففي الوقت الذي يراها ذوو الحكمة والدراية، في إتيان عمل متميز يهدف إلى الصالح العام وخدمة البشرية، كالبطولة التي يأتيها الجندي الباسل في دفاعه عن تربة الوطن لتظل طاهرة لا تدنسها أقدام الأعداء، أو كالبطولة التي يبديها شخص في إنقاذ حياة إنسان من موت محقق، مثل هذه البطولة يراها البعض لا شيء في حين أنه غارق في إتيان عمل خسيس مسيء إلى الغير، إما لحقد دفين في داخله أو لإظهار " عنتريات دونكيشوتية "، فهذا القوي مثلاً يشعر بنوع من البطولة والنشوة وهو يمد يده الآثمة إلى إنسان ضعيف ليكيل له الضرب المبرح، دون مبرر، فقط ليقول للناس، " إني قوي جبار "، وقد تقوده عنجهيته إلى ارتكاب الجرائم فيتفاخر بين الملأ بأنه فعل كذا وكذا، دون أن يدرك بأن الناس ينظرون إليه باستخفاف ويرونه صغيراً جداً بل حقيراً، وهناك من يرى الخيانة أو السرقة نوعاً من البطولة فلا يتورع من أن يخون أمانة سلمت إليه مهما كان نوع هذه الأمانة، أو أن يخون صديقاً له في ماله أو عرضه أو أن يخون أمته أو وطنه أو يخون مبادئه التي رضع لبانها منذ نعومة أظفاره رغم معرفته بأنه يخدع نفسه إذا ما حاول أن يبرر عمله هذا. ترى ألم يفكر الإسخريوطي يوم خان سيده ومعلمه يسوع، بأنه أتى عملاً بطولياً مربحاً، أو هكذا صوّره له المتآمرون على يسوع، ولكن بعد فوات الآوان شعر بأن ما قام به لم

يكن سوى خيانة وعمل جبان خسيس فندم ولات ساعة مندم، وآخر لا يتورع من أن يمدّ يده ليسرق أموال قريبه ثم يتباهى أمام من هم على شاكلته بأنه قام بعمل بطولي، دون أن يكون له وازع من ضمير ينبهه بأنه " أتى أمراً أدّا وعلى الشريعة تعدى "، وهناك من يزج نفسه في تهلكة لا لشيء سوى لكي يظهر للناس بأنه قام بعمل بطولي دون أن يدري أن عمله هذا إن هو سوى حماقة بكل أبعادها، كثيرون هم الذين يأتون مثل هذه " البطولات " البائسة فإذا بهم يؤدون ثمنها غالياً جداً. والانكى أن البعض لا يأتون أي عمل، ولكن لهم " بطولة " دون أن تُرى، أي إنها بطولة مجوفة لا تتعدى الشفاه، فمثل هؤلاء يصح بهم قول الكتاب " **فم البليد يفيض حماقة** " (أم 15: 2)، كما يجب أن لا ننسى أولئك الذين يحاولون معالجة الخطأ بالخطأ الأكثر فداحة، كالذين ينتقمون لإساءة بسيطة توجه إليهم عن تعمد أو غير تعمد، بأخرى أكثر قساوة وأعمق جرحاً وأكثر أذية، معتبرين ذلك بطولة فذة يعتزون بها أيما اعتزاز لأنهم لا يرون ما هو ماثل أمامهم فقط. إذ تعوزهم الرؤية البعيدة فهؤلاء في نظر الله هم ناقصو فهم لأنهم يتخذون من أعمالهم الحمقاء مبعثاً للفرح أو المسرّة يقول الكتاب " **الحماقة فرح لناقصي الفهم** " (أم 15)، وعليه لا يحاولون تقويم سلوكهم فيستمرون في السير في طرق غير آمنة تؤدي بهم إلى الهاوية، كل ذلك لأنهم يعيشون في عالم الظلام والجهل بعيدين عن كل معاني التعقل والفطنة وعن عالم النور فلا غرو أن الكتاب يصف الذين يؤثرون العيش في الظلام والجهل بالحمق

فيقول : " **أن حماقة الإنسان تعوّج طريقه** "، ثم يذهب إلى أبعد من ذلك حتى ليعتبر مثل هذه الحماقة جنوناً، حيث يقول الوحي على لسان الحكيم " **توجهت بكل قلبي إلى العلم والدرس باحثاً عن الحكمة وحقيقة الأمور وإلى معرفة الشر على أنه حماقة، والجهل على أنه جنون** " (جا 7)، ومن المؤسف أنه إذا ما قدِّم نصح لمثل هؤلاء الحمقى الذين يعتبرون الحماقة بطولة، لكي يميزوا فقط ما بين البطولة الحقّة والحماقة، ويدركوا أن الحماقة مكرهة في عيني الرب لكونها تتعارض وإرادته الإلهي، قد نسمع منهم ما قاله فرعون لموسى النبي عندما أرسله إليه الله ليحرر العبرانيين من عبوديته، حيث أبدى رعونة وحماقة بالغة إذ قال " **من هو الرب حتى أسمع لقوله** " (خر 5)، هذا هو منطق الحمقى، وقانا الله شرّ الحماقة.

الأغنياء الفقراء، والفقراء الأغنياء

ليس هذا العنوان مربكاً أو مثيراً للدهشة، أنه الواقع ولئن لا يبدو كذلك لأول وهلة، ولكن بعد التأمل في كلمتي (غنى وفقر) لا سيما على ضوء الكتاب المقدس سندرك أن الغنى لا يعني وفرة الأموال حصراً كما لا يعني الفقر عدمه حصراً، فلكل من هاتين الكلمتين مفاهيم مختلفة قد يظهر فيها الغني من ناحية فقيراً، والفقير من ناحية غنياً، ومن هنا تظهر مفارقات في المجتمع الواحد الذي يضم شرائح متباينة، ولكل شريحة خصوصيات تختلف عن الشرائح الأخرى، فهو يضم بين جنباته الغني والفقير، المتدين والملحد، الفقيه والأمي، وفي معظم الأحيان يشكل هذا التنوع ثراء إذا ما خيم الانسجام بين هذه الشرائح وتوارت روح الأنانية، أما إذا غاب الانسجام، تصارعت الاتجاهات في تفهم الأمور وتحليلها

وإسدال الستار على المجتمع الذي يسعى إليه ذوو الإرادة الصالحة، الأمر الذي يؤدي بالبعض إلى تركيز اهتمامهم وتسخير مواهبهم وطاقاتهم لجمع المال حيث يجدون فيه الوسيلة الأكثر فعالية من أجل طمأنينتهم وراحتهم وسعادتهم.

هذا ما يرونه هم، ولكن هل هذه هي الحقيقة ؟ كلا بالطبع، لأن لغيرهم نظرة أخرى في الحياة السعيدة تختلف تماماً عن نظرتهم، وهي أفضلية العيش في جو يسوده الأمن والسلام على العيش في جو يغلب عليه الثراء المادي ويسوده في الوقت نفسه القلق النفسي، لأنهم يرون السعادة في ما تكتنزه القلوب من محبة، يكون لكل فرد في المجتمع نصيب منها.

وهنا نتساءل، ترى من هم الأغنياء الفقراء ؟ والجواب : أنهم الذين ينظرون إلى الأمور من زاوية واحدة فقط ولا يأخذون بعين الاعتبار أي شيء آخر غير هذه الزاوية، يقول مار أفرام السرياني : **اقتن المال بحدود أما العلم فبدون حدود**، هم الذين لا يشعرون بشعور الآخرين، هم الذين استحوذت على قلوبهم محبة المال، وهي أصل كل الشرور (1 تم 6: 10)، وكذلك محبة الذات هي صفة بغيضة لدى الله والناس، هذه الصفة التي أسقطت إبليس إلى أدنى دركة، لكونها تقوم على الأنانية التي غدت اليوم نزعة الغالبية من أبناء بعض المجتمعات، لا سيما تلك التي تدعي بالرقي والتقدم، وتنظر إلى المجتمعات الأخرى بمنظارها الخاص المعتم لتراها متخلفة قد لا تستحق الحياة، أن الأغنياء من

هذا القبيل، قلوبهم قاسية نحو المستضعفين، أليس البشر بحاجة ماسة إلى ثورة أخلاقية تعود بنا إلى ما كنا عليه في عهود آبائنا وأجدادنا تجتث حب الذات من القلوب كي تغدو صالحة وشفافة بإمكانها سماع أنين المتالمين، وإيقاظ الضمائر الغارقة في سبات عميق، ترى ماذا يقول الكتاب المقدس في حق الأغنياء الفقراء ؟ لقد وصف السيد المسيح هؤلاء بالغباء في المثل الذي ضربه عن غني أخصبت كورته، فلم يفكر في شيء سوى كيف يوسّع مخازنه لتستوعب غلاله الفائضة، لقد كان ذلك الرجل فقيراً جداً في تفكيره الذي انحصر بالثروة المادية، وفقيراً في المحبة والرحمة والنظرة الإنسانية، إذ لم ينظر يمنة أو يسرة ليرى الكثيرين ممن هم بأمس الحاجة إلى نزر يسير من تلك الغلال، هذا ما يُقال أيضاً عن الغني الذي لم يكترث لحالة إلعازر البائس أخيه في الإنسانية، وقد أخبر الإنجيل المقدس عن مصير هذين الشخصين المأساوي، وفي مصافهما يوضع أيضاً الشاب الغني الذي فشل في بلوغ الهدف الذي من أجله جاء ليسأل المسيح عن السبيل إليه، لأن محبة المال طغت على رغبته في الحياة الأبدية، وعلى أثر ذلك قال الرب : " **أن مرور جمل من ثقب أبرة أيسر من أن يدخل غني (من صنف الفقراء) إلى ملكوت الله** " (متى 19: 24)، ومن البديهي أن الأغنياء الفقراء لا يمثلون الأغنياء كافة، فما أكثر الأغنياء الذين يسيرون في خط الله مدركين نعمته عليهم، بل يمثلون فقط الشريحة التي تهوي الأخذ دون العطاء، فتخسر صيتها في الدنيا وحياتها في الآخرة، (لأن الصيت أفضل من الغنى " المادي ") كقول الكتاب،

وهذا ما يفكر ويعمل به الحكماء، وكما فعل سليمان الحكيم عندما سأله الله في الحلم عن مطلب ما ليحققه له، فأجاب : " **يارب أعط عبدك قلباً فهيماً... لأميز بين الخير والشر** " (1 مل 13: 11)، فحسن هذا المطلب في عيني الرب لأن سليمان لم يطلب غنىً دنيوياً فاستجاب لمطلبه وأعطاه الحكمة ليحكم الشعب بالعدل وزاده غنىً مادياً أيضاً.

مما لا شك فيه أن سبب تلكؤ الغني الفقير عن العطاء، هو غياب عنصر الإيمان لديه، لأن الإيمان من شأنه أن يلين القلوب ويطلق العنان لفكر الإنسان ليحلّق في جميع الاتجاهات ولا سيما الناحية الإنسانية، ويفتح بصيرته ليرى ما لا تراه عينه، فينفتح قلبه للعطاء، أن وازع الإيمان أحياناً كثيرة يتغلب حتى على الفقر نفسه فيغنيه معنوياً وروحياً ويكسبه وجهاً مشرقاً، كما كانت الحال بالنسبة إلى الأرملة التي القت فلسين في الخزانة بدافع تقواها، فلفتت بذلك أنظار السيد المسيح الذي اعتبر هذه العطية البسيطة أثمن من كل العطايا الاخرى لكونها كل ما كانت تمتلكه تلك الأرملة من مال، فقد أعطت بسرور مؤمنة بـأن الله الذي يرى في الخفية يجازي علانية، وبعملها هذا مثلت شريحة الفقراء الأغنياء، فالفقراء الأغنياء هم الفقراء حقاً من حيث المادة، لكنهم أغنياء من حيث الإيمان والروح، هم أولئك المملوؤن من غنى مجد المسيح لأنهم يسلكون باستقامة، والفقير السالك باستقامة خير من معوج الطرق وهو غني (أم 2: 6)، فالغنى الحقيقي الباقي أذن هو الذي لا يطاله سوس أو فساد أو يد لص، هو الغنى بالروح الذي يشير عنه الكتاب المقدس فيعتبر ثواب

الله للإنسان ذي العطاء غنى وكرامة، كقول الرسول بولس الذي اختار لنفسه الفقر وهو من أسرة ثرية، وفي رسالته إلى أهل رومية صرح بما أنتابه من جوع وعطش وعري بسبب حمله صليب المسيح، ومع ذلك فهو يقول : "... **كفقراء ونحن نغني الكثيرين، كأن لا شيء لنا ونحن نملك كل شيء** " (2 كو 8: 6)، قال ذلك بدافع امتلاكه للمسيح ومن يمتلك المسيح فقد امتلك كل شيء، لأن المسيح هو الكل بالكل تحت سلطانه كل شيء يحتاجه المؤمن في مسيرة حياته، لذلك لم ير غضاضة من أن يحسب عار المسيح غنى وفيراً، حاسباً عار المسيح غنى أعظم من خزائن مصر (عب 1: 26)، وبهذا كان يبشر بين الأمم واليهود رغم أن المسيح لم يكن له أين يسند رأسه.

وبتوجيه من يسوع لم يقتن الرسل والمبشرون أموالاً سوى بقدر ما يسد الأود وهذا ما جعل بطرس أن يقول للمقعد المتسول الجالس عند باب الهيكل " **ليس لنا فضة أو ذهب** " بل نعطيك مما عندنا من غنى المسيح " **باسم يسوع قم وأمش** "، وإنطلاقاً من هذا الغنى أحال الرسل حيثما توجهوا حزن الناس إلى فرح عظيم، قال عنهم صاحب المزامير " **عابرين في وادي البكاء يصيّرونه ينبوعاً، أيضاً ببركات يغطون مورة** " (مز 84: 6)، أن غنى الإيمان يقودنا إلى التطرق إلى الغنى في الأخلاق، وهو أمر طبيعي أن يتشبع المؤمن بالقيم الروحية والمثل الإنجيلية العليا التي لا غنى عنها في تكوين مجتمع تتوفر فيه مقومات السلام والسعادة.

جاهل مع سبق الإصرار

في الشؤون العامة، يُقال أن الحدث المؤسف الفلاني جاء متعمداً مع سبق الإصرار، كما في بعض قضايا القتل المقدمة إلى القضاء، وعلى أساسها تبنى العقوبة المستوجبة. فعقوبة القتل المتعمد مثلاً تختلف عن عقوبة القتل غير المتعمد في شدتها وصرامتها، تمشياً مع روح القانون، من حيث أن الفاعل يدرك ما الذي يفعله ويدرك نتائجه الوخيمة، ومع ذلك يتجاهل الأمر فيقدم عليه. ومثل هذا التجاهل يحدث في العديد من المسائل الدينية منها والاجتماعية.

ففي الناحية الدينية ينحو الله بالأئمة على اليهود الذين يتجاهلون بمحض إرادتهم وعد السيد المسيح بمجيئه الثاني، لا سيما وقد صرّح بذلك أمامهم جهاراً (2 بط 3: 5) تماماً كما تجاهلوا مجيئه الأول،

وكما يتجاهل البعض أن الله بكلمة قدرته خلق الكون وكل ما فيه، بالرغم من حصول القناعة التامة لديهم بوجوده تعالى وبكونه سيد الكائنات، وأن كل الدلائل الطبيعية منها والكتابية تقوم صارخة ومتحدثة بقدرة الله الفائقة، فلمثل هؤلاء يقول الكتاب المقدس " **لهم عيون ولا يبصرون، وآذان ولا يسمعون** " (مز 8: 18)، وبعبارة أخرى يبصرون ويسمعون لكنهم يتجاهلون لكي يُظهروا للناس أنهم لم يروا ولم يبصروا. وفي هذا السياق يتكلم الرسول بولس عن الذين قست قلوبهم فتجاهلوا الله فاعطاهم الله عقلاً خاملاً وعيوناً لا تبصر وآذاناً لا تسمع إلى هذا اليوم (رو 11: 8)، ويضيف صاحب المزامير قوله : " **قال الجاهل في قلبه ليس إله، فسدوا ورجسوا بأفعالهم وليس من يعمل صالحاً** " (مز 14: 1)، ولعل خير دليل على تجاهل الله بإصرار، ما فعله فرعون مصر عندما تحدى الله ورفض إخراج الشعب من مصر رغم معرفته بقوة الله وقدرته، وإذا به يتكبد ضربات موجعة ما كانت لتكون لو أنه أطاع أمر الله ولم يتجاهله، لا سيما وقد أرسل الله نبيه موسى لينقل إليه رغبته تعالى في تحرير الشعب ويطلعه في الوقت نفسه على ما سيلحق به وبشعبه من نتائج وخيمة في حالة إصراره على عصيانه. كثيرون يتحدّون الله سواء بأقوالهم أو بأفعالهم أو بتعاليمهم التي من شأنها تحويل أذهان الناس إلى الشؤون المادية البحتة، وإبعاد فكرة الله عن أذهانهم، كزعمهم مثلاً أن الكون كوّن نفسه بنفسه، هؤلاء يعرفون حق المعرفة أن علمهم هذا مجرد تخيل أو فرضية لا غير، تظهر اليوم لتسقط

غداً، وما أكثر الذين يعتبرون الحقيقة وهما والخيال حقيقة، حتى ولئن قدمت لهم براهين عن الحقيقة لا نقاش فيها، ورغم قناعتهم في الداخل، إلا انهم يُصرّون على اعتبار ما هم عليه هو الحقيقة وغيره العكس. فهل من مصيبة أكثر هولاً من التجاهل المقصود ؟ أنه لمن الصعوبة بمكان أن تقنع شخصاً، غدا الجهل المتعمد عنده صفة ملازمة : بأن ما يذهب إليه ليس صحيحاً، بل مجرد وهم، وأن أية أدلة يقدمها تأييداً لنظريته، تتلاشى أمام سطوع الحقيقة، ومع ذلك ينفي الجاهل الحقيقة، وهنا الطامة العظمى.

أما من الناحية الاجتماعية، فهناك العديد ممن يظهر نفسه جاهلاً لعلّة أو لأخرى، وإذا به متجاهل مع سبق الإصرار، كم من شخص يرتكب إساءة أو ذنباً لا يخفى على أحد لكونه واضحاً وضوح الشمس، وبالرغم من ذلك يصر على جهله حقيقة فعله، أو إذا فشل في التنصل منه، حاول تبرير ذنبه وكأنه لم يأتِ شيئاً فرياً، تحاشياً لكل ملامة أو عقاب، أو قد يعتبر تنصله مظهراً من مظاهر قوة شخصيته وقدرته على التخلص من أية ورطة يقع فيها، إلا أن الموقف السليم والمقبول في كذا حالة ليس التهرب، بل الاعتراف بالذنب وهو الموقف الذي يكشف فعلاً عن شخصيته واستقامته، ويضعه موضع ثقة المجتمع أو أفراد أسرته وأصدقائه، لا سيما إذا تعامل مع كلمة (المعذرة)، التي يجب أن يوجهها إلى المُساء إليه، فهي تشكل ولا ريب بلسماً لالتحام الجرح الذي أحدثته الإساءة، وهل من كلمة أجمل من هذه الكلمة الحلوة التي تحل

مشاكل مستعصية وتخلق جواً من الارتياح والسكينة والسلام، بدلاً من الإصرار على التجاهل ؟

ومن مظاهر التجاهل المتعمد، ما يحصل لدى اهمال الواجبات المفروضة التي لا يمكن تجاوزها. بيد أن البعض يتجاهلون ويتصرفون بما تملي عليهم رغباتهم وميولهم، من ذلك على سبيل المثال لا الحصر، ما يبديه بعض الآباء من تقصير بواجباتهم تجاه أفراد أسرهم ولا سيما الأطفال منهم، لكي يشبعوا نهمهم من الرغبات التي على الأغلب تكون غير مشروعة، غير آبهين بالضرر الجسيم الذي يمنى به أطفالهم، علماً بأن أهم واجبات الآباء، درء الأخطار والأضرار عن أبنائهم، وهذا ما نلاحظه لدى الحيوانات غير الناطقة، فكم بالأحرى يجب أن يكون لدى الخلائق الناطقة، والكتاب المقدس يوصي الآباء بعدم إغاظة أبنائهم (أف 6: 4)، وهل من إغاظة أعظم من إهمال الواجبات تجاههم، وقِس على هذا غيرها من الواجبات المهملة والمتجاهلة إرادياً. ولكن أفظع أنواع الجهل الإرادي، هو الذي يصدر عن ضمير ميت، وبخاصة لدى الذين يقتلون آلافاً من الأطفال والشيوخ ويدعون ملايين من البشر يتضورون جوعاً، بصورة أو بأخرى، من غير وازع من ضمير وبصورة لا أخلاقية وكأنهم يقتلون حشرات، ويتجاهلون جرائمهم تحت ذرائع وهمية غير مبررة وهم يدرون ماذا يفعلون كما هو الأمر بالنسبة إلى حصار العراق، فعن هؤلاء وأمثالهم يقول الكتاب " **الذين يأكلون شعب الله كما يأكلون الخبز** " (مز 14: 4)، كل ذلك لأنهم لا يخافون الله ولا يخجلون من الناس، وقد قيل : **إن كنت لا تخجل فأفعل ما شئت.**

القنـــاع

على حين غرة، أنطلقت قهقهة عاليـة مـن فـم يوسـف، فسـألته عمـا يضحكـه، فأجـاب بقهقهـة متقطعـة، انظـر إلى ورائـك، فنظـرت وسألت من هذا ؟ وإذا بالرجل الذي يقف ورائي ينزع من وجهه القنـاع الذي أعطاه صورة مخالفة تماماً لصورته الحقيقية، فإذا به زميلنا أفرام.

فما أدراك ما القناع ؟ أنه ذلـك الغطـاء السـحري الـذي إذا مـا وضعه شخص على وجهه اختفت حقيقته تحت هذا الغطاء الـذي يحمـل صوراً متنوعة، تكون في معظمها مضحكة مرعبة، والقناع إمـا أن يكـون مصنوعاً من مادة ما كالذي يستعمله الأطفال أو الممثلـون والمشـعوذون، أو معنوياً غير مصنوع بأيدي. على كل حال فأن الأطفال الصغار الذيـن مـازالت مداركهـم محدودة، يرتـاحون لا بـل يعـبرون عـن غبطتهـم

وسعادتهم لدى وضعهم الأقنعة على وجوههم وهم يتمازحون مع بعضهم البعض ويعرفون حق المعرفة أن هذا ليس وجههم الحقيق، ولكن " **كما في السماء كذلك على الأرض** "، وتعبير آخر كما للأطفال أقنعتهم البريئة كذلك الكبار، فهؤلاء أيضاً يضعون على وجوههم أحياناً أقنعة لكنها من نوع آخر، منزه عن المادة وليس منزهاً عن الأغراض السيئة في معظم الأحيان، وإذا كان الأطفال يضعون القناع ثم يرمونه جانباً بعد فترة وجيزة، فأن أقنعة الكبار تبقى دائماً مرتسمة على وجوههم دون أن يراها أو يلمسها أحد طبعاً، غير أن هذا لا يخفى على أولي الألباب، الذين يشعرون بوجودها ولئن لاينظرونها بالعين المجردة، إلا أنهم يقرأونها بدلاً من الرؤية.

هذه الظاهرة يسميها المجتمع بازدواج الشخصية، ومعنى هذا أن يكون الإنسان اثنين ولكل واحد وجه وجه مكشوف معروف وآخر مخفي تحت قناع، مثل هذه الحالة يعبر عنها الكتاب المقدس بالتعرج بين فرقتين (1 مل 18: 21) وهو أمر مرفوض ومدان، وقد جاء هذا على لسان ايليا النبي وهو يخاطب بني إسرائيل الذين تظاهروا بعبادة الله لكنهم في قلوبهم كانوا يعبدون البعل، فكشف الله زيفهم عن طريق هذا النبي الجليل، وفي عهد السيد المسيح كان معظم رؤساء اليهود وزعمائهم الروحيين يضعون مثل هذه الأقنعة المزيفة على وجوههم لكي ينظرهم الناس على غير حقيقتهم، لأن حقيقتهم مشينة فلا يريدون الكشف عنها، بل أن تبقى في ظلام فلا ترى النور وهم يبغضون النور ولا يأتون إليه لئلا توبخ أعمالهم (يو 3: 20)، بل يؤثرون البقاء في ظلمة أقنعة هي صنع

أعمالهم وأفكارهم الشريرة، وقد أزاح السيد المسيح أقنعتهم هذه فأظهر حقيقتهم من خلال المثل الذي ضربه عن الفريسي والعشار (لو 18)، وهذا مايؤكد بأنه ليس بمقدور القناع، من أي نوع كان، أن يحجب سوى الظاهر وإلى حين فقط، أما داخل الإنسان، ولئن استتر، غير أن أعماله تفضحه شاء أم أبى، فعمل كل إنسان، شاهد عليه إيجابياً كان أم سلبياً خير كان أم شراً، ولا يشكل القناع إطلاقاً علامة توحي بالحقيقة المطلقة كمن يحاول أن يوحي إلى الناس بأنه يعيش حياة التقوى، في حين أنه لا يعيش سوى صورتها، وأن ما يكشف عن باطنه، هو تعامله السيئ مع البشر، واعتباره إياهم أقل شأناً منه، سواء من حيث المعرفة أو من حيث الخلق، فالتقوى لا تقررها الأقنعة المختلفة،كما كان يفعل الفريسيون الذين كانوا يعرضون عصائبهم ويعظمون أهداب ثيابهم (متى 23: 5)، لكي يعلنوا للناس أنهم أبرار، بل تقررها أعمال الإنسان، لأن الأقنعة لا تستطيع أن تطهر القلب الغارق في حمأة الشوائب، التي تنعكس على أعمال الإنسان، لأنه من فضلة القلب يتكلم الفم (متى 12: 34)، فالإنسان الذي يعتمد على وضع الأقنعة ليبرهن على كونه تقياً باراً، يفشل. وقديماً تساءل ارميا النبي " **هل يغير الكوشي جلده أو النمر رقطه** " (ارميا 13: 23)، وبالرغم من ذلك فهناك من يلبس قناع التواضع في حين أن أنفه يصل إلى السماء، وكثير من الذئاب الخاطفة يلبسون قناع حملان وديعة وما سوى ذلك. اكتشف أحدهم أن صديقاً له بكثير من استعمال الأقنعة أحدهم أن صديقاً له يكثر من استعمال الأقنعة المتباينة، فتجرأ وسأله عن علة ذلك فكان الجواب : بكل صراحة لكي أحقق أهدافي وأبلغ مراميَّ، ومن الطبيعي أن أهدافاً تحقق

عن طريق أقنعة الغش والخداع لا تكون شريفة، بل خسيسة، تماماً كالهدف الذي حققه إبليس الذي وضع على وجهه القبيح قناع المشير المخلص، وقصد الإنسان ليحقق معه هدفاً لا إنسانياً بعد أن وضع نفسه في حالة عداء مع الله والإنسان، فيوقعه في شباكه القاسية التي ظل مشتبكاً بها حتى مزق المسيح حبالها وحرره منها، ترى ألم يضع قايين قناع المحبة الأخوية حين عرض على أخيه هابيل الذهاب سوية في نزهة جميلة إلى الحقول الخضراء، دون أن يكتشف هابيل البريء بأن أخاه أخفى كل الخداع والتآمر تحت ذلك القناع، فسار معه كالحمل الوديع، وهو لا يدري أن سكين أخيه بانتظاره لينقض عليه وتمزق جسده، وفي مجتمعنا الكثيرون ممن يستعملون أقنعة الفقر، ليستدروا رأفة الآخرين ويستجدوا من هذا وذاك، ويملاوا جرارهم مما يتصدق به الناس عليهم، في الوقت الذي يبزون الآلاف ثروة وغنى، لكن هكذا يحلوهم، بل قل هي هوايتهم المحببة والمجدية، ولكن " **إن لم يبن الرب البيت فباطلاً يتعب البناؤون** " (مز 127: 1)، وبعبارة أخرى إن لم يأتِ الغنى من الرب فكل ما يجمع باطل وقبض الريح (جا 2: 26)، وأخيراً نقول لمن يستهويهم وضع الأقنعة لا بد وأن تسقط هذه الأقنعة المزيفة وتظهر الحقيقة الناصعة عاجلاً أم آجلاً، يقول الرب بهذا الشأن " **ليس مكتوم لن يستعلن ولا خفي لن يعرف** " (متى 10: 26)، من له عينان للقراءة فليقرأ.

الــخـجــل

أمور كثيرة يجب أن نخجل منها فلا نأتيها. وأخـرى، ولئـن فيهـا بعض الإحراج حيناً، إلا أن المجاهرة بهـا وعـدم إفسـاح المجـال للخجـل، أولى، لا سيما في ما يخص القضايا الإيمانية والعقائديـة، كمـا كـان شأن الرسل والآباء الميامين الذيـن لم يخجلـوا مـن انتمـائهم إلى شـخص مـات مصلوباً، متحدين السيف وغير هيابين من الطغـاة، بـل مقدمـين ذواتهـم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله (رو 12: 1)، اعتصاماً بمبادئهم. ترى أين ومتى يجب ـــن تفتح الأبواب أمام الخجـل، وأيـن ومتـى يجب أن توصد ؟، أن أول شيء ينبغي أن نخجـل بسـببه هـو، ولا شـك، الخطيئة مهما كان نوعها، التي غالباً ما نرتكبها متوهمين بأن أحداً لا ينظرنا، فإن وجد من يرانا تحاشيناها خجلاً منه، وإلا أتيناها، وبهذا الصدد يقول أحد

ملافنة الكنيسة موجهاً اللوم إلى ذاته : " **أني اتستر على خطاياي لئلا يراني أحد، لأني أخجل أمام الإنسان الذي يراني، لكني لا أخجل أمام الله الذي ينظرني وأنا ارتكب إثماً** ". يحكى أن أحد قطاع الطرق اصطحب يوماً معه ابنه الفتى وهو ذاهب لممارسة " حرفته المفضلة "، وطلب إلى ابنه ليتوقل، رابية وينظر يمنة ويسرى مراقباً، حتى إذا ما شاهد أحداً ينظره أشار إليه، وبعد فترة وجيزة سأل ابنه، هل من أحدة ينظرنا ؟ أجاب الفتى، نعم يا ابتاه، أن الله ينظرنا، وهنا خجل الأب من ابنه وللحال عاد إلى بيته دون أي فريسة، فالأعمال غير الإنسانية والمنكرات وما إلى ذلك، كلها مدعاة للخجل يقول ارميا النبي : " **نضطجع في خزينا ويغطينا خجلنا لأننا إلى الرب إلهنا أخطأنا** " (3: 25).

وقد يخجل المرء بسبب رأي يبديه بتسرع ومن دون فحص وتدقيق وتحكيم العقل، وذلك عندما يجابه بآراء سديدة تنقض رأيه وتظهر خطأه، وهنا لا بد وأن تبدو عليه أمائر الخجل شاء أم أبي، ويكون الخجل مطلوباً في حالة انتهاك الإنسان حقوق الآخرين، فقد لا يفعل ذلك إذا خجل من فعلته، ومن هذه الحقوق عدم الاعتداء أو تشويه سمعة الإنسان، باغتيابه أمام الناس، فالمغتاب يتكلم بحرية مطلقة مسيئاً إلى الذي يغتابه، مظهراً نواقصه، إن وجدت، وإلا خلقها هو، لكنه يحني رأسه خجلاً عندما يجابهه كاشفاً كذبه وزيفه، وإذ يعجز عن تبرير نفسه، ينتابه الخجل الفظيع، إن كان له شعور وإحساس، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن من واجب سامع الاغتياب، توجيه اللوم

للمغتاب من دون خجل أو تردد، وبهذا الصدد يقول ابن العبري : **لا تخجل من الذي يغتاب قريبه أمامك**، بل قل له : **اسكت أيها الأخ فأني أنا ذاتي أفعل أعظم من ذلك كل يوم**.

وهكذا وبجرعة واحدة من الدواء تشفي نفسك وقريبك، ومن الأمور التي تستوجب الخجل، كرامة الإنسان، فالذي، يشعر بأهمية كرامته يحافظ عليها ويتجنب كل ما يسيء إليها، فهذا شخص لا تسمح له كرامته فيخجل أن يستجدي المديح أو حتى المادة، فيتورع ولا يفعل في الوقت الذي يكون بأمس الحاجة إلى المادة، فهنا يكون الخجل خير صوت للكرامة، في حين أن غيره يطلب بإلحاح هذا المديح وسواه دون خجل أو تورع حتى ولئن كان على حساب كرامته، فهو لا يفكر بأن الكرامة هي فوق كل شيء وأثمن من كل ما يمكن أن يحصل عليه في حالة رضاه بهدر كرامته.

يحدثنا لوقا البشير عن وكيل أساء التصرف بأموال سيده، وإذ شعر بأن سيده سينتزع منه الوكالة قال : أني أستحي أن أستعطي لذلك فكر بطريقة يؤمن بها مستقبلة، ولئن كانت الطريقة مرفوضة اجتماعياً، غير أنه حافظ على كرامته بعدم قدومه على الاستجداء، من ناحية أخرى، يجب أن يكون الخجل رادعاً للتفوه بألفاظ نابية وكلمات جارحة، وخارجاً عن نطاق الآداب والحشمة فمثل هذه الأمور تظهر في غياب الخجل، وتختفي بوجوده، والآن نعود إلى السؤال الآخر، أين ومتى يجب أن يطرح الخجل جانباً ؟، نقول أن أول شيء ينبغي أن ينتفي معه

الخجل هو الحق، ذلك أن الحق من أهم الأمور التي لا يسكت عنها بسبب الخجل، إذ كثيراً ما يغمط أو يضيع الحق بسبب الخجل، وقد تترتب على ذلك نتائج وخيمة، مثال على ذلك : يجب على ممثل أي جهة أن يكون صريحاً في أقواله ومواقفه، فلا يوافق بسبب الخجل على أي قرار لا يكون في صالح الجهة التي يمثلها، فالحق أمر لا بديل عنه، يجب أخذ جانبه في كل الأحوال والظروف، لكي يشعر كل صاحب حق بوجوده وكيانه وشخصيته، سواء كان فرداً أم أكثر، وهنا نقول أن المؤمن الملتزم عليه أن لا يخجل من أن يصرح بحقيقة إيمانه وانتمائه المسيحي، ليس بمجرد القول فحسب، بل بالعمل أيضاً فيقدم الدلائل العملية على التزامه، كما فعل انيسيفورس الذي يستمطر الرسول بولس الرحمة له ولأهل بيته لكونه لم يخجل من أن يقدم خدماته لمتهم سجين (الرسول بولس) الذي يقول لتلميذه طيمثاوس " **لأنه (انيسيفورس) مراراً كثيرة أراحني ولم يخجل بسلسلتي** " (2 تم 1: 16)، ويوصيه في الوقت نفسه بأن لا يخجل من تقديم الشهادة للرب يسوع، ولا شك أن هذه الوصية تسري على كل مؤمن، لا سيما وأن الرب نفسه قد قال " **وتكونون لي شهوداً** " (أع 1: 8)، وهكذا يكون الخجل مطلوباً وبإلحاح من جهة، ومرفوضاً وبإصرار من جهة أخرى.

الصيد والاصطياد

الصيد متعة وفائدة، وقد أعطاه الرب يسوع بعداً جديداً روحياً هاماً، حيث جعل من صيادي السمك صيادي الناس، مستبدلاً الشباك المادية بشبكة الروح القدس التي تصطاد للحياة وليس للموت كما هو مألوف العادة، فبدلاً من أن يكون الصياد هنا هو المستفيد الأول، فأن الفائدة الأولى تنعكس على الصيد قبل الصياد، وهذا لا يعني بالطبع أنه يحرم متعة الصيد، بالعكس، فأنه يشعر في داخله وهو يعود بصيده إلى مرابع يسوع بسعادة روحية متناهية، هذا هو البعد الجديد الإيجابي الذي أضفاه يسوع على كلمة " الصيد "، ولكن لا يخفى أن هناك بعداً آخر لعملية الاصطياد، أخفاه البشر، والأشرار منهم خاصة وهو سلبي بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، كالتربص للناس ورصدهم حتى إذا مازلوا

بكلمة أو هفوة جعلوا من الحبة قبة، وشهروا سلاح التشهير وأطلقوا العنان لألسنتهم الثرثارة التي لا تهدأ ولا تكل، أنها رغبة جامحة تخالج أذهان بعض الناس، وهاجس يقلقهم حتى ينالوا ممن يرومون اصطيادهم، كما كان الأمر بالنسبة إلى الفريسيين الذين كانوا يتربصون للمسيح في مناسبة وغير مناسبة، وغالباً ما كانوا يرسلون إليه عملاءهم لكي يصطادوه بكلمة فيتخذوها ذريعة للطعن به، أو قاعدة يرسون عليها أساس اتهاماتهم الباطلة وصولاً إلى غاياتهم الشريرة طالبين أن يصطادوا شيئاً من فمه لكي يشتكوا عليه (لو 11: 54)، ويعرف هذا النوع في الوسط الاجتماعي " بالاصطياد في الماء العكر "، وما أكثر الذين يصطادون اليوم في الماء العكر والذين أشار إليهم السيد المسيح متمثلين بالكتبة والفريسيين عندما قال لهم " **الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلاً واحداً ومتى حصل تصنعونه ابناً لجهنم أكثر منكم مضاعفاً** " (مت 23)، فهؤلاء ينصبون فخاخهم في جميع الطرق ويلقون شباكهم في كل مجمع ما، وبخاصة في المجمعات الآسنة، بلوغاً إلى غاية غير محمودة هي في كل الأحوال خبيثة لكون أفكارهم شريرة والشباك التي يستعملها هؤلاء كثيرة ومتنوعة لكن جميعها تصب في مصب واحد وترمي إلى هدف واحد، ألا وهو إسقاط الإنسان فيها، فهناك مثلاً شبكة استغلال ضعف الإنسان وعدم قدرته المقاومة لتخليص نفسه فتنصب له الشراك وإذا به يسقط فيها من حيث لا يدري، فيستسلم مرغماً لذوي الإرادة السيئة

الذين إذ يروه وقد سقط في شباكهم يملون عليه إرادتهم ويجعلون منه آلة يديرونها كيفما يشاؤون وبحسب مقتضى مصالحهم وأهدافهم اللاإنسانية، يغسلون دماغه ويغيرون أفكاره وحتى مبادئه إذا استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ويحيلونه إلى إنسان غير الذي كان بالأمس، وهناك شراك الحاجة، وبالكثرة من يستغلون هذه الناحية ليوقعوا الأبرياء في شباكهم الخبيثة، فيغدوا أسرى إرادتهم لا قوة لهم ولا حول، فيشددون عليهم الخناق حتى ينالوا منهم مآربهم الخسيسة، يدنسون سمعتهم ويهددون حياتهم وكرامتهم، وإذا ما فاض كيل نهمهم، رموهم رمي النفايات، وهناك من يستغل بعض الظروف المواتية للاصطياد، فمثلاً عندما يضرب الراعي وتتبدد الخراف، أو عندما تغيب الرقابة أو السلطة، فيسقط البؤساء والمغلوب على أمرهم في قبضتهم، وقد نستعمل هنا مختلف وسائل الاصطياد، من ضغط وتهديد وترغيب وترهيب ويسهل اصطياد الفريسةَ في حالة ابتعادها عن قطيعها وراعيها بعكس ما إذا كانت ملتحمة بالقطيع وملازمة للراعي. لذا نقول " **أحذروا لأنفسكم** "، كما أننا نذكر الذين قد يسقطون في الشراك، بسبب الحاجة أو الضغط أو التهديد أو خلال سيادة الفوضى، بألا يدعوا السقوط يتحول إلى هزيمة مرة، فبإمكانهم استمداد القوة من الله، يستطيعون بها النهوض من سقطتهم والعودة إلى حظيرتهم الآمنة، يقول صاحب الأمثال " **الصديق يسقط سبع مرات ثم يقوم** " (24: 16). في معظم الأحيان يرافق الدهاء خبث الصيادين في الماء العكر، فإن وجدوا أن المراد اصطياده قوي

ووداعي أتوا إليه بثياب الحملان " **لكنهم مـن الداخـل ذئـاب خاطفـة** "، فيستعملون الغش والخداع والرياء، ويسلكون سبل التملق والمداهنة، قال الفريسيون يوماً لليسد المسيح وهم يحاولون اصطياده " **يا معلم نعلم أنك صادق وتعلم طريق الله بالحق ولا تبالي بأحد لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس** " (متى 22: 16) أن مثل هذا الأسلوب ليس سوى طعم يلقى للذين يرومون اصطيادهم،، نقرأ في بعض الكتب التقوية، أن الشياطين يستعملون هذا النوع من السلاح الخفي لمحاربة رجال الله ولا عجب فأن الشيطان مفسه يغير شكله كشبه ملاك وليس كثيراً إذا كان خدامه يغيرون شكلهم كخدام للبر (2 كو 11: 14) وهذا ما يفعله من يسيرون في ركابهم للإيقاع بالحملان الوديعة، كما هو شأن من يسمون بشهود يهوه وسواهم، فمثل هؤلاء مهما أظهروا من المحبة المزيفة فأن قلوبهم خالية تماماً من المحبة الحقة لأن من شأن المحبة البناء لا الهدم ولا يمضي طويل وقت حتى تنكشف نواياهم وبعد أن يكونوا قد حققوا ما يصبون إليه، يظهر زيف تلك المحبة، يقول الشاعر :

يريك من طرف اللسان حلاوة ويروغ منك كما يروغ الثعلب

الاستغلال الخاطئ

ليس الاستغلال بحد ذاته شراً. لأن هذه الكلمة لا تخلو من رائحة زكية عندما تعمل لخير الناس ونفعهم، كاستغلال الأرض للمزيد من الغلات، واستغلال الفرص الثمينة من أجل مكاسب نبيلة روحية كانت أم معنوية وحتى مادية، غير أن الإنسان كثيراً ما يفسد مفهوم هذه الكلمة فيسخرها لمآربه الدنيئة ومصلحته الشخصية وعلى حساب الآخرين والمبادئ. ومما يؤسف له أن يكون هذا المفهوم شائعاً، سواء على صعيد الدول أو المجتمعات أو الأفراد. فهذه دولة قوية مثلاً تستغل شعب هذه الدولة الضعيفة والصغيرة أو تلك، وتمتص دماء أبنائها بامتصاصها لموارد رزقهم ومعيشتهم، غير آبهة لما يصيب هؤلاء الناس من ضنك وفقر وصعوبة عيش، أو كما يستغل غني أناساً فقراء بؤساء من

أجل زيادة ثروته وزيادة بؤسهم وشقائهم، دون وازع من ضمير، ودون أن يعير أي اهتمام للقيم الخلقية والاجتماعية والإنسانية التي من شأنها الحفاظ على كرامة الإنسان مهما كان موقعه في المجتمع، لأن الله لم يخلق واحداً للكرامة وآخر للهون، إنما خلق الجميع من طينة واحدة وعلى حد سواء من الكرامة.

إن مثل هذا النوع من الاستغلال صار مألوفاً بين البشر، فلا غرابة منه، ولكن الغرابة من استغلال من نوع آخر قد لا يخطر على البال، أعني به استغلال كلام الله، بلوغاً إلى مقاصد غير مستحبة وممارسة أمور بعيدة عن فكر الله وشريعته. هذا ما لا يتصوره الكثيرون، إذ لا يجوز في منظورهم اتخاذ كلمة الله ذريعة للوصول إلى مآرب خسيسة، لكونها تعمل دوماً للبنيان والخير والرشاد وهي أمضى من السيف ذي حدين بالنسبة إلى الشر والضلال. ومن ذلك النصيحة التي قدمها الرسول بولس لتلميذه الحبيب تيموثاوس الذي كان يعاني من آلام مبرحة في معدته، " **لا تقتصر بعد اليوم على شرب الماء، بل أشرب قليلاً من الخمر من أجل معدتك** " (1 تيم 5: 23)، ومن يدري قد يكون وراء هذه الوصفة الطبيب لوقا البشير المرافق للرسول بولس في رحلاته التبشيرية. فالخمر الذي عناه الرسول بولس هو للعلاج وليس للسكر، وقد أشار السيد المسيح إلى هذا النوع من العلاج (لو 10)، ومن المحتمل جداً أن يكون هذا النوع مختمراً وليس مقطراً.

هذه الوصفة، يستغلها البعض كذريعة مبررة لمعاقرتهم الخمر حتى الإدمان، متناسين أن الرسول بولس نفسه يضع السكيرين في قائمة مرتكبي الكبائر الذين لا يدخلون ملكوت الله (1 كور 6: 10) وهو الذي ينهي علانية السكر بالخمر لأن فيها خلاعة (أف 5: 18)، فهل من المعقول أن ينهى عن شيء ثم ينصح به ؟ إلى جانب هذا، فأنه كان فقيها في الناموس الموسوي. فهو ولا شك قرأ في سفر اشعيا " **أن الخمر ضلالة** " (28: 7)، وعرف أنها تغدر صاحبها كما جاء في نبوة حبقوق (5: 2)، فكيف ينصح بها ؟ فاستغلال نصيحة الرسول بولس هذه، لمثل هذه الغاية، هو تحايل ليس على الله فقط، بل على الذات أيضاً. ومن المؤسف أيضاً أن يتشبث البعض بهذه الآية فيتهم المسيحية بأنها تشجع معاقرة الخمر.

ومن جهة أخرى هناك من تسوّل له نفسه فيستغل بعض آيات الكتاب المقدس فيعمد على تأويلها كما يحلو لتلائم أفكاره البعيدة عن التعاليم المسيحية فتكبر عقائد لاهوتية يثبتها الكتاب المقدس وهي واضحة وليست بحاجة إلى تأويل أو شرح. أو أنهم يشوهون بعض الآيات أو يعتمدون نصف الآية لبلوغ أغراضهم غير المسيحية، كالذين يقولون عن كلمة الله المتجسد، مجرَّب بكل شيء مثلناه وتركوا النصف الآخر من الآية (ما عدا الخطيئة)، ناكرين بذلك ألوهية السيد المسيح ومعتبرين إياه مجرد إنسان اشترك مع البشر في طبيعة خاطئة. أنه لعمري أخسّ أنواع الاستغلال.

بين الجدّ والهزل

من المساوئ الاجتماعية الفاضحة، التي تمارس في معظم المجتمعات، ذلك الأسلوب اللاأخلاقي الذي ينتهجه البعض في طرح أية قضية أو موضوع، خلال سياق حديث ما، ألا وهو أسلوب طرح الموضوع بصورة هزلية ظاهرياً، في حين أنه يَنشد الجدية باطنياً. كأن يوجه شخص ما إهانة إلى آخر أو توبيخاً من غير مسوغ بقصد الايقاع به أو إثارة الشكوك حوله، لكي يعطي انطباعاً سيئاً عنه. فإذا اكتُشف أمره ورأى نفسه مُداناً، لجأ إلى الزعم بأن الأمر لا يتعدى كونه مزاحاً. وإن لم يكتشف كان له ما أراد. ولا بد أن تكون لمثل هذا التصرف نتائج وخيمة وأبعاد غير محمودة العقبى. وما أكثر المجيدين لهذا الأسلوب المشين والتلاعب بالألفاظ والمصطلحات حتى ليخيل إلى السامعين أن حديثه

يحتمل الكثير من المزاح. وهذا أسلوب مُدان، لأن الإنسان كل إنسان، عليه أن يكون واضحاً في كل ما يقول ويعمل، إلا إذا اقتضى الأمر السرية، وأن لا يعطي فرصاً للهزل أكثر من فرص الجد، فالجدّ هو الجوهر في حياة البشر، أما الهزل أو المزاح حتى البريء منه فهو ثانوي وهامشي.

نقرأ في سفر الجامعة، أن لكل شيء زماناً، ولكل أمر تحت الأرض وقتاً.. للبكاء وقت وللضحك وقت، للنوح وقت وللرقص وقت (3)، فبإمكاننا أن نعتبر وقت الضحك والرقص مخصصاً للأفراح التي يجوز فيها المزاح والهزل إلى حد ما، ولكن في الوقت نفسه بإمكاننا أيضاً أن نقول، أن الوقت المخصص لهذا الأمر يستوجب الإطالة، ووقت ذلك الأمر يقتضي الايجاز نظراً للأهمية التي يحملها كل منهما، فإذا كان الأمر جاداً وهادفاً الخير العام يُعطى مساحة أوسع، أما إذا لم يكن ذا شأن يذكر، إنما لمجرد لهو، فلا يعطى سوى النزر اليسير من الوقت، لأن الوقت في نظر جميع المفكرين والحكماء هو ثمين جداً، وينبغي استغلاله على أكمل وأفضل صورة، لكي تُجنى منه فوائد جمة متوخاة شمولية، لأن الفوائد ذات الطابع الشمولي هي المطلوبة أولاً. فوقت الضحك أذن يحتمل بعض الهزل والمزاح البريء بمناسبة معينة، من أجل إدخال المسرة إلى القلوب، شريطة ألاّ يمسّ مشاعر أحد. أما المغالاة في الهزل فلا تخلو من سلبيات ذات أبعاد غير مستحبّة وبخاصة من الناحية الاجتماعية. لأن الإكثار من الهزل يفقد الكثير من الهيبة والاحترام، لا سيما إذا كان من

النوع الذي يخدّش المسامع بتعديه حدود الاحتشام والقيم الاجتماعية والأخلاقية السائدة، ذلك " **أن المرء يقيَّم بما يتفوّه به من كلام مثلما يقيَّم الخزف بالضرب عليه** " كما يقول العلاّمة ابن العبري الذي يعطي رأيه في المزاح البريء **ليس أمراً شائناً لكونه يرد بكلام صادق لا أثم فيه، فهو مقبول لكونه يثير الضحك الذي يأنسه الإنسان** ولا خطأ فيه، لا بل يعتبره أحياناً ضرورياً إذ يقول " **مثلما يحتاج البيت إلى أوانٍ ذهبية وفضيّة (أي الجد والعمل)، فهو بحاجة أيضاً إلى آنية من يقطين (المزاح) ولعله في هذا يُشير إلى النكتة المهذبة النظيفة التي تدخل الفرح والعزاء إلى قلب كسير نفس يصارعها القلق** ".

نعود لنذكر بأن لكلِ شيء وقت، وللهزل وقت شريطة ألاّ يتجاوزه فيستنفذ وقتاً إضافياً غير مخصص له، لأن **ما زاد عن حدّه انقلب ضدّه** بحسب المثل الشعبي. وللكتاب المقدس موقف صارم تجاه الذين يتمادون في الهزل والمزاح، ولا يتقيدون بحدود المقبول، فهو يحذر بأسلوب لطيف من مجالستهم والحديث إليهم " **طوبى للرجل الذي في مجلس المستهزئين لم يجلس** " (مز 1)، وعدم مجالستهم يعني الابتعاد عنهم، وبعبارة أرق عزلهم عن المجتمع. ويبرر الكتاب هذا الموقف لكون هؤلاء يأخذون الأمور كلها مأخذ الهزل، رافضين أية لائمة أو توبيخ وحتى النصح الهادف إلى تغيير مسلكهم في الحياة، والتمثل بعامة الناس الذين يعطون لكل شيء وقتاً، ويحترمون الغير ولا يسخرون من أحد مهما كان موقعه في المجتمع، ومن أية طبقة اجتماعية كان، ذلك أن الإنسان هو هو، سواء كان أبيضَ أم أسود أم قزماً، هزيلاً أم بديناً، مولوداً في الريف أم في المدينة، جميلاً أم دميماً بحسب مفهوم البشر، لكن

بشاعة المرء أو جماله ليس في خلقته بل في خُلُقه، فهو صورة الله مهما كان منظره لا يرضي الآخرين " القرد في عين أمّه غزال ". كما أن الناس ينظرون إلى من يأخذ الحياة دائماً مأخذ الهزل، يعني الازدراء والاستخفاف، لأن الهزل في غير محله مكرهة في أعينهم بحسب تعبير الكتاب المقدس (أمثال). وحيث أن هذا التصرف شاذ وغير لائق، فأن الكتاب المقدس يحذر من عواقبه، وينذر بأن القصاص مُعَدّ له (أم 19: 29) لكونه يخرج عن نطاق المنطق والمعقول، لا سيما في المواقف التي تستوجب الجدية التامة والتي لا تتحمل أي نوع من الهزل والمزاح لأي سبب من الأسباب، كتلك التي تخص المقدسات والممارسات الروحية أو رجا ل الله القديسين. فالمزاح محظور إطلاقاً أثناء الصلاة مثلاً، لأن الصلاة تتطلب توجه المؤمن بكليته نحو الله الذي به يليق الإجلال والتهيب، فأي تصرف شاذ أمامه يعني إلحاق الإهانة بكرامته تعالى الذي إليه ترفع العبادة وبخاصة إذا مورست في الكنيسة، فأن ممارسة خاطئة داخل الكنيسة هي استخفاف بالله سواء جاءت من عدم مراعاة الزي االلائق، أم الالتفات ذات اليمين وذات اليسار لطرح قضية على هذه وأخرى على ذاك، والجميع يعلمون أن من متطلبات الصلاة المرضية لدى الله، إيمان الإنسان بأنه ماثل أمام الله حقاً، وفي هذه الحالة لا بد أن يحضّر فكره حتماً في صلاته ويتجنب كل ما من شأنه تعكير صفوها أو إفسادها.

وعَلاّمتنا ابن العبري يحذر من الهزل غير المستساغ لأنه يكثر الضحك الذي يميت القلب ويقتل الكرامة. وقد شبه أحد الأفاضل الهزل بريح السموم يحرق الثمار في وقت الحصاد.

أحمق... حماقة

وأنا أقرأ كتاب الله المقدس شأني شأن الكثيرين الذين يشعرون بلذة روحية فائقة ونكهة خاصة لدى قراءته، لا سيما تلك التعاليم السماوية اليتيمة التي أودعها فيه معلمنا الأعظم يسوع، لا تستغرب أيها القارئ الكريم إذا قلت لك أن الآية " **من قال لأخيه احمق استوجب نار جهنم** " (متى 5)، استوقفتني وخِلتني أقرأها لأول مرة، فوضعت الإنجيل جانباً وتمعنت ملياً بمضمونها علني أستطيع سبر غور مقاصدها وأبعادها، وأدرك سر هذا التعليم السامي الذي نحن بعيدون عنه بعد الثرى عن الثريا سواء اعترفنا بذلك أم لم نعترف، فقلت في نفسي : إذا كان مجرد كلمة " أحمق "، في نظر الله تقود إلى الدينونة ومن ثم إلى العقاب الأليم في أتون نار جهنم، فإلى أين يا ترى تقود الكلمات النابية الجارحة والألفاظ

غير الأخلاقية التي تنطلق من أفواه الناس كالرصاص القاتل، والتي لا تخدش آذان من توجه إليه فقط، بل أيضاً آذان سامعيها والتي غالباً ما تؤدي إلى نتائج وخيمة قد تصل إلى درجة الجريمة، وبالرغم عن ذلك فأننا اعتدنا أن نطلقها جزافاً دون إعارة أي اهتمام لها وكأننا لم نأتِ شيئاً فرياً. في عظته الرائعة على الجبل، يحث يسوع على أن لا يزيد كلامنا عن نعم أو لا لأن ما زاد عن ذلك فهو من الشرير، ومن البديهي أن الله سبحانه بقوله هذا، لا يقصد أن يقتصر كلام البشر على هاتين الكلمتين فحسب، إنما أراد كما يفهم من سياق الحديث، أن يبعدنا عن القسم غير المبرر، والكلام الذي لا معنى له، بل نكتفي بأن نعبر عن وجهة نظرنا في أمر ما بالموجز من الكلام سواء كانت إيجابية أم سلبية، شريطة أن نكون صادقين في ما نقول، كما أن قولة الرب هذه هي تحذير صارخ من الثرثرة الفارغة التي تجد لها حقلاً خصباً لدى البعض، وأن نسبه الكلام المفرط إلى الشرير يذكرنا بآية أخرى نطق بها له المجد " **كل كلمة بطالة يتكلم بها الناس سوف يعطون عنها حساباً يوم الدين** " (متى 12)، فما هي هذه الكلمات التي يحاسبنا الله عليها ؟ لا ريب أن الثرثرة البطالة التي لا طائل تحتها ولا جدوى منها تأتي في مقدمتها لكونها مجرد هذيان لا يَعرف " كوعه من بوعه "، وبالرغم من ذلك يوجد من يمتلك مهارة فائقة في هذا المضمار، إذ يسترسل بالثرثرة التافهة دون أن يخطر على ذهنه بأن وراء ذلك حساباً عسيراً، وبين مفردات عائلة الكلمات البطالة المدانة، الكلام المبطن الذي يحذق به الكثيرون

الذين إذا ما تكلموا يخال لك أن الصدق يتجسد بين ثنايا شفاههم والحقيقة أن ما يبطنون هو عكس ذلك تماماً، وقد يحتاج المرء مزيداً من الوقت لتحليل ما يسمعونه كي يستطيع أن يكتشف المبطن من الكلام ويعريه، ومن قبيل هذا الكلام ما يسمعه المرء من مديح وثناء عند اللقاء فإذا به اغتياب وثلب في الغياب، الأمر الذي ينتقده صاحب المزامير " **كل واحد يكذب على الآخر وبلسانين وقلبين يكلمه، الرب يقطع شفاه المتملقين وألسنة المتكلمين بالرياء** " (مز 12)، وكذلك قل عن الذين يتحدثون بلباقة وبأسلوب يظهرون به أن كلامهم لا غبار عليه، غير أنهم يبطنون أمراً آخر لا يخرج عن دائرة الانتقاد اللاذع، لنعد الآن إلى كلمة " أحمق "، و" حماقة " فنتسائل، لماذا هذا الحكم الذي أصدره المسيح على " الأحمق "؟ أليست الحماقة حالة طارئة لا تعتم أن تزول كأية حالة تطرأ على الإنسان بإرادة أم بغير إرادة، ثم يعود إلى حالته الطبيعية ؟ نقول : أن الأمر يختلف تماماً، لأن الحماقة بمفهومها الذي ورد على لسان المسيح ليست حالة طارئة، بل هي صفة ملازمة، ومن هنا خطورتها فهي داء وبيل كقول الشاعر " والحمق داء ما له دواء "، لا بل هي نوع من الجنون كما يؤيد سفر الجامعة (7)، والمجنون إنسان لا يفقه للحياة معنى ولا يدرك شيئاً مما يأتيه، ولكن الفارق بينه وبين الأحمق هو، أن الأحمق يدرك ما يأتيه بخلاف المجنون، وعليه فأن الأحمق يدان والمجنون لا يدان.

ومن جهة أخرى فأن صاحب الأمثال يعتبر الحماقة خطيئة، والخطيئة لا بد وأن تدان إن لم يرتد عنها مقترفها ويتوب إلى الله وتشكل

الحماقة خطيئة عندما يتطاول الأبناء على الوالدين، وبدلاً من الاحترام والكلام المفروضين على الأبناء للآباء من قبل الله " **أكرم أباك وأمك ...**"، يسمعونهما كلام حماقة مؤذية، ومن هنا تكون الحماقة شكلاً من أ شكال كسر وصية الله وبالتالي فهي خطيئة، وكما لا يخفى أن الحماقة غالباً ما تقود الإنسان إلى الانحراف عن الطريق القويم والابتعاد عن السراط المستقيم، فيسقط آنذاك تحت عبودية الخطيئة، ومجمل القول أن الحماقة تهدم ما يبنيه العقل كما يذهب صاحب الأمثال. والمشكلة عند الأحمق أنه يرفض المشورة حتى ولئن شعر بأنه بحاجة إليها، ولكن مع ذلك لا يطلبها أو يسعى وراءها، في الوقت الذي جعل الله في هذا العالم أناساً أفاضل يتكلم بهم يفيضون حكمة وفطنة وهم على أتم استعداد لمنح مشورتهم لكل طالب، وما يؤسف له أن الأحمق لا يحاول الاستفادة من الفرص التي يعطيها الله للعودة إليه عن طريق التوبة وتحكيم العقل. ومن صفات الأحمق، التسرع وعدم التروي وهذا أمر له نتائجه السلبية بعكس العاقل الذي إذا عدنا إلى الكتاب المقدس نرى الله يوصي على لسان صاحب الأمثال أن يوقف الأحمق عند حده بالكلمة الحكيمة الصادقة لئلا يرى نفسه أنه شيء في حين أنه ليس بشيء " **جاوب الأحمق حسب حماقته لئلا يكون حكيماً في عيني نفسه** " (26)، فالله أذن يكره الإنسان الذي يرى نفسه حكيماً وهو عكس ذلك.

ما يليق وما لا يليق

بين طيات رسالة مار بولس الأولى إلى أهل كورنثوس، تصريح خطير يقول فيه " **كل الأشياء تحل لي** " فقد يأخذ البعض هذا التصريح على ظواهره فيصولون ويجولون على مسرح العبث والفساد، وهنا مشكلة أخذ الآية الواحدة أو نصف الآية إذ أن الرسول سرعان ما يردف قوله هذا بآخر " **ولكن ليس كل الأشياء توافق** " (6: 12)، وهذا تلميح بين إلى أن هناك أشياء لا تليق بالإنسان وبالمؤمن خاصة لكونها تتعارض ومعطيات الكتاب المقدس ومفاهيم المجتمع السليم، وكل شيء يتعارض مع الكتاب والمجتمع هو غير لائق، و يضرب الرسول بولس مثلاً على ذلك فيقول : لا يليق أن يستعبد الإنسان لأية رغبة أو شهوة لأن الاستسلام لرغبة لا تنسجم والأعراف الاجتماعية والتعاليم السماوية،

أمر ليس فقط أنه لا يليق بل ومرفوض جملة وتفصيلاً، غير أن هناك من يفعل ذلك ضارباً عرض الحائط الأعراف والقيم الاجتماعية، على اعتبار أن المجتمع الفلاني لا يرى غضاضة من ممارسة فعل يحاربه المجتمع الذي يعيشه، لا شك أن هذا مقياس خاطيء لأن لكل مجتمع مقاييسه الخاصة ونظرته الخاصة إلى الحياة والمجتمع، لا يمكن أن تقاس بها المجتمعات كافة فلا بد أن تكون لكل مجتمع نظرته ومقاييسه الخاصة مستمدة من بيئته والظروف المحيطة به وأحياناً من تعاليمه الدينية وهكذا يتذرع البعض بقول الرسول " **كل شيء يحل لي** " فيتصرفون بحسب هواهم، والانكى أن البعض يزيدون في الطين بلة فيدعون بأن لهم ملء الحرية أن يفعلوا ما يشاءون لأن الإنجيل يقول " **أنتم أحرار** " (يو 8: 33)، فلا يتورعون من ارتكاب أبشع الخطايا إنطلاقاً من المفهوم الخاطيء للآية، غير مميزين حرية المسيح من حرية العبث والاستهتار، ومتناسين الشق الآخر من الآية الأولى " **ليس كل شيء يوافق** " فهذا الشطر يحذر بصورة غير مباشرة من الأخطاء التي يمكن أن يسقط فيها من يعتمد على نصف الآية من الكتاب المقدس، قد يرتكب البعض أفعالاً غير لائقة بحجة عدم وجود في الكتاب المقدس ما يمنع صراحة مثل هذه الأفعال، هذا صحيح ولكن الكتاب المقدس لا يتناول كل الأمور الحياتية بصورة تفصيلية دقيقة لأنه مبادئ مركزة وعامة وتعاليم توجيهية، أنه دستور ولكل دستور شروحات وتفاسير توضح مبادءه العامة فنحن مثلاً لا نجد في الكتاب المقدس ما يحث على عدم حب الظهور لكن نجد فيه أموراً أخرى

نستشف منها أن الكتاب المقدس يعتبر هذه الخلة شاذة وغير مقبولة، وذلك عندما يتحدث مثلاً عن التواضع ويحث عليه ويضعه في مكانة لائقة في حين يحارب الكبرياء بدون هوادة ولما كان حب الظهور وليد الكبرياء ويتنافى والتواضع، فهذا يعني بالضرورة مقت الكتاب حب الظهور الذي غالباً ما يولده الشعور بالنقص، حيث يحاول المرء أن يظهر نفسه للملأ بأية وسيلة كانت بأنه شيء وشيء كبير كما فعل هيرودس الذي تظاهر بالقوة والكبرياء، فارتدى ثيابه الملوكية وجلس على العرش يخطب في الشعب فصاحوا هذا صوت إله لا صوت إنسان ولكن نتيجة هذه الخيلاء كانت ضربة قاتلة من قبل ملاك الرب (أع 12: 21)، وأمور أخرى غير لائقة نرتكبها وكأننا لم نأتِ شيئاً ادًّا، في حين أنها تترك أثراً سواء في المجتمع أو في نفوس بعض البسطاء إذ نكون قد زجيناهم بتصرفنا هذا غير اللائق في لجة من الشك والقلق، في الوقت الذي لا يضرنا تجنب هذا التصرف، يقول الرسول بولس بهذا الصدد " **فإذا أسأت إلى أخيك بما تأكله فأنت لا تسلك طريق المحبة** " (رو 14: 15)، ويقول أيضاً " **إن كان طعام يعثر أخي فلن آكل لحماً إلى الأبد لئلا أعثر أخي** " (1 كو 8: 13)، أذن أن أعثر أخي بتصرفي أمر لا يليق لا بل محظور كتابياً، ومن الأمور التي لا تليق أيضاً التفوه بكلام غير لائق في مجتمع له خصوصياته الأخلاقية الرزينة، أو أمام أناس يرون هذا الكلام مقرفاً ومخدشاً للمسامع، وتحاشياً لمثل كذا كلام فأن الرسول بولس يوصي تلميذه تيطس بألا يتكلم إلا كلاماً هادفاً رقيقاً على المسامع كلاماً يليق

بالتعليم الصحيح له معطياته الإيجابية وتأثيره الحسن في نفوس السامعين لكي يعكس صورة المسيح، ويحذره في الوقت نفسه من أن يعطي مكاناً للكلام المبتذل الجارح.

ومن الأمور اللائقة بالمؤمن تلك التي نادى بها يوحنا المعمدان " **اصنعوا ثماراً تليق بالتوبة** " (متى 3: 8)، لأن من شأن التوبة تحرير المؤمن من وثق الخطيئة حفاظاً على نعمة البنوة الإلهية، وتمشياً مع الإرادة الربانية التي تضع المؤمن في مسار يليق بالقداسة، هذا المسار الذي أوصى به مار بولس تلميذه تيطس ليوجه المؤمنين ولا سيما النساء اللواتي " **ينبغي أن يظهرن دائماً بمظهر لائق** " وبخاصة لدى تواجدهن في هيكل الرب للصلاة (1كور 11: 13) من مآثر التوبة ترويض الذات على التقوى التي تقود بالمؤمن إلى السلوك المسيحي القويم وتجنبه التعاليم المضللة، لا سيما تلك التي تطرح التعليم الإنجيلي المسيحاني القويم بصورة معاكسة فتشوه مفاهيمه الحقيقية.

بين الرِجل والبساط

ليس عبثاً إطلاق مقولات وأمثال شعبية، قد تظهر بسيطة لكنها ذات مغزى كبير، مثال على ذلك قولهم : **مد رجلك على قدر بساطك** فهذه حكمة بالغة الأهمية، لو تأملها المرء لاكتشف لها أبعاداً هامة تمس حياته، تصلح أن تكون لبنات في بنيان مستقبله وتقرير مصيره، أو تكون محذراً بارعاً إذ بإمكانها أن تكشف له عما لم يكن في حسبانه، لا سيما أن وجدت أخطاء جسيمة تؤدي إلى نتائج وخيمة، فيتراجع عن فعل ما كان يدور في خلده، فيتحاشى بذلك عواقب تجربة مرة قاسية تحدد له مصيراً لا يحسد عليه في حالة وقوعها، هذا ما يفكر به، الذي يستخدم العقل المنعم به عليه من الله، بصورة دقيقة ومنطقية، فلا يخطو خطوة أو يأتي عملاً إلا بعد تدقيق وتمحيص ودراسة وافية من مختلف النواحي،

ليتأكد من أن خطواته مجدية ولا ضير فيها، غير أن المشكلة تكمن في اختلاف الرؤية إلى الخطوة الواحدة، فقد يراها البعض مجدية فعلاً، أو على الأقل غير ضارة، في حين يراها البعض الآخر عكس ذلك تماماً، وهنا استوجب إفساح المجال للعقل أن يلعب دوره ليضع تلك الخطوة على محك التحليل لتنكشف له حقيقتها ناصعة، فلا يقدم عليها أن وجدها غير مجدية وبذلك يكون العقل قد صانه من السقوط في خطأ جسيم، والفهم نصره كقول صاحب الأمثال (2: 11) ترى ما الذي أنقذ دانيال وصحبه من سيف الملك نبوخذنصر الذي قضى على حكماء بابل بعجزهم عن تقديم الجواب على سؤاله دون أن يتصرفوا بالحكمة أمامه، وقد شمل قرار الملك دانيال وصحبه أيضاً ؟ غير منطق دانيال الذي تحدث به إلى رئيس الشرطة بوحي من العقل، فأقنعه بأن يمهله بعض الوقت، وخلال هذه المهلة استطاع دانيال أن يقدم الجواب الشافي للملك، فنجا وصحبه من الهلاك. إذن الرؤية الصائبة والتعقل والتفكير العميق منجاة للإنسان من السقوط في أخطاء فادحة وخيمة العواقب، ولأهمية تحكيم العقل في حياة المرء والمجتمع فأن الرسول بولس يضعه على مستوى واحد مع فضيلتي المحبة والقداسة لدى حديثه عن ثالوث " **المحبة والقداسة والإيمان** "، كشرط أساسي للخلاص (1 تيم 2: 15).

نعود إلى الحديث عن مفهوم العنوان المدرج أعلاه، والذي يفهم باتجاهين معاكسين، الأول يعبر عن وجهة نظر، دافعها التطفل والفضول، والثاني يعبر عن وجهة نظر دافعها الخجل أو التجاهل والمجاملة الفارغة،

ففي الاتجاه الأول يعي المرء مدى وسع بساطه في حين يجهله غـيره، فهـو لا يخطو خطوة أوسع من بساطه، أما جاره الذي يجهل وسع هذا البساط فيوجه إليه انتقاداً قد يكون لاذعاً أحياناً ويشهره في المجتمع علـى الشكل الذي يريده هو، من دون أي مبرر، فقط لأنه يجهـل مـدى بسـاط جـاره فيتوهم أن ذلك البساط لا يتحمل تلـك الخطـوة، وغـاب عـن بالـه " إن صاحب الدار أدرى بما فيها " لنأخذ مثلاً على هذا، شخص ما يبـدو أنـه ليس من اليسر ما يؤهله أن يخطو خطوة واسعة، لكنه يفعل ذلـك، وهنـا يتدخل الفضول فيقيم الجار عليه الدنيا ولا يقعدها، وكان صاحب الـدار أتى شيئاً فرياً، فيأخذ يضرب الأخماس بالأسداس ويتساءل : كيف لـه أن يتخذ مثل هذه الخطوة ؟ من أين له هذا ؟ لا بـد إنـه اختلس أو تصـرف تصرفاً غـير عقلاني، وهكـذا يقيـم نفسـه ديانـاً لجـاره في الوقـت الـذي لا يعنيه الأمر، لا من قريب ولا من بعيد، والانكى أنه لا يتوقف إلى هـذا الحد بل ينقل موقفه إلى المجتمع بسرعة خاطفة تفوق البرق وبالكيفية الـتي يتصورها ولئن كانت بعيدة عن الحقيقة، وهذا أحد أمراضنـا الاجتماعيـة التي نئن جميعاً تحت وقر وطأتها وشدتها.

ترى إلا يحق لجاره أن يقول له ولأمثالـه مـا قالـه ذلـك العـبراني لموسى النبي " **من جعلك رئيساً وقاضياً علينا** " (خر 2: 14) ، رغـم أن تصرف موسى كان حكيماً، تـرى أليـس مـن الأفضـل عـدم التدخـل في شؤون الغير لطالما أن الأمـر لا يعنينـا بشـيء " **فلمـاذا تديـن أخـالك ؟** " (رو 14: 10) ترى متى نشعر بضرورة نبذ مثل هذه الثرثرة التي لا طـائل

تحتها ومثل هذا التصرف غير المبرر ؟ أو متى نحاول أن تخرج الخشبة من أعيننا لكي نستطيع أن نرى القذى الذي في عينيّ أخينا ؟ ومتى نقدس الصمت ونطلق العنان لبصائرنا لتتكشف لنا مصائبنا ونقائصنا ؟ ألا يجدر بنا أن نضع تعليم إنجيلنا المقدس نصب أعيننا فنبتعد عن التفاهات ؟ ترى بماذا نصف من لا يهدأ له بال إلا لمثل هذه التوافه، ولا يريحه شيء مثل الثرثرة الباطلة ؟ لا يسعنا إلا أن نذكره بما جاء في سفر التثنية من إنه " **إنسان لا يفهم لسانه** "، فنسدي إليه نصيحتنا المتواضعة المستقاة من كتاب الله " **صن لسانك** " (مزمور)، كما نذكره في الوقت نفسه بقول القديس يعقوب في رسالته " **من ظن أنه متدين وهو لا يحفظ لسانه، خدع نفسه وكانت ديانته باطلة** "، لنعد الآن إلى الاتجاه الآخر وهو اتجاه من يعرف هو وغيره مدى قصر بساطه، لكنه يتجاهل معرفته، إما من باب المباهاة والاعتداد بالنفس أو من باب الخجل أمام المجتمع، فيخطو خطوة أوسع من بساطه متحملاً ما يترتب على ذلك من أعباء ثقيلة قد لا يستطيع إزاحتها عن كاهله إلا بعد جهد جهيد وزمن طويل وربما رافقته مدى الحياة، فالخطأ هنا يأتي نتيجة التخوف من لوم المجتمع إن هو لم يفعل ذلك، وهكذا يغدو ضحية التقاليد البالية، ومثالنا على ذلك ما يجري في المآتم خاصة حيث يقيم ذوو اليسر مآدب دسمة اعتقاداً منهم بأنها تعبر عن عمق محبتهم لراحلهم، وكأن دسامة الطعام مقياس لتلك المحبة، فيحاول ذوو العسر تقليدهم ولئن بنطاق أضيق لكن هذا النطاق ذاته يكون كالشعرة التي (تقصم ظهر البعير)، أليست هذه الحالة

مؤسفة، أليس جديراً أن نقول لمثل هؤلاء **يا أخي مد رجلـك على قـدر بساطك**، وهذا ما نقوله أيضـاً في الـزواج، إذ يجب أن يعـترف الطرفـان بقصر بساطهما فلا يخطو أحدهما خطوة طويلة تجتاز مدى بساطه، فـإن القناعة والاعتراف بالواقع يصونان من سقوط قـد يكـون عظيمـاً، اللهـم زدنا عقلاً.

الخمر...

سألني صديق لي : هل حقاً أن المسيحية تبيح شرب الخمر ؟ فأعطيته في حينه خلاصة الفكر المسيحي بهذا الصدد، بيد أني أحببت أن أجيب بصورة أوسع على صفحات (صدى المحبة) لكي يطلع القراء، ولا سيما أولئك الذين يتهمون المسيحية بأنها تفتح الباب على مصرعيه أمام معاقرة الخمر، على رؤية المسيحية لموضوع الخمر. لا شك أن هذه التهمة بعيدة عن الحقيقة، لكن الفكرة، مع الأسف الشديد، سائدة في مجتمعنا. وقد يكون مصدرها، إما خلو الكتاب المقدس بعهديه من نص صريح يحظر شرب الخمر، أو التهافت في شربه لدى بعض المسيحيين، وفهمهم الخاطئ لبعض آيات وردت في الكتاب المقدس حول الخمر.

فذات مرة قلت لمدمن لماذا تعاقر الخمر ؟ فأجاب للفور، وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة : ألم يقل الإنجيل " **قليل من الخمر يفرح قلب الإنسان** " وكأني به فاز بمغنم في رده هذا، إذ ها هوذا يبرر إدمانه استناداً إلى الكتاب المقدس كما توهم ويتوهم الكثيرون من عشاق الخمر الذين يرددون هذا بالرغم من خلو الكتاب المقدس من مثل هذه (الآية). وجل ما هنالك، أن هذا القول هو حصيلة عملية مونتاج فاشل، إن صح التعبير، بين آيتين، الأولى وردت في (مز 104) الذي فيه يرفع النبي داود تسابيح الحمد والشكران لله لعطياه السخية لبني البشر، من ضمنها الزيت والخمر، وقد جاء في معرض هذه التسبحة " **وخمر تفرح قلب الإنسان وزيت يجعل وجهه مشرقاً** ". أما الآية الثانية فقد وردت في رسالة مار بولس إلى تلميذه طيموثاوس الذي كان يشكو من ألم في معدته، ينصحه فيها بتناول قليل من الخمر من أجل معدته وأسقامه الكثيرة (1 تيم 5: 23)، وليس لمجرد الشرب. فالخمر هنا وصفة طبية علاجية لا أكثر، هكذا فعل السامري الصالح الذي ضمد الرجل الجريح بالزيت والخمر. غير أن المدمنين دمجوا الآيتين واستخرجوا منهما تلك (الآية) المزورة.

سأل مدمن زميلاً له عاد إلى صوابه تاركاً العادة السمجة بتأثير تعاليم الإنجيل : عن مصير الخمر الذي كان يعاقره، فأجاب : لقد استحال إلى أثاث زينت داري، وإلى لقمة في أفواه أطفالي، وكساء لعريهم، وإلى ابتسامة دائمة على شفتي زوجتي.

ولنستعرض الآن ما جاء في الكتاب المقدس بعهديه بخصوص الخمر. فقبل كل شيء أود أن أقول، أن ليس في الكتاب المقدس تحريم قاطع للخمر، كما يخلو من أية إباحة صريحة به. لكنه يحذر من مغبة الإسراف في شربه إلى حد السكر، معتبراً السكر من الكبائر. ففي الوقت الذي يحذر الرسول بولس من الخمر الذي فيه الخلاعة، يضع السكر جنباً إلى جنب مع الزنى وعبادة الأوثان وسواهما التي لا يمكن لمقترفها الدخول إلى ملكوت السموات (أف 5). والأعظم من هذا فأنه يوصي المؤمنين بتجنب السكارى " **إن كان أحد سكيراً... لا تخالطوا ولا تواكلوا مثل هذا** " (1 كور 5). وهذه الوصية هي تحذير غير مباشر من معاقرة الخمر إن لم تحمل معنى النهي الذي تعنيه وصيته للذين يقتبلون الدرجات الكهنوتية. وقد ورد في العهد القديم ما يشابه هذا التحذير بالنسبة إلى رجال الدين " **خمراً ومسكراً لا يشرب** " (لا 10: 9). ومن الأمور التي يتذرع بها البعض تبريراً لشربهم الخمر، مباركة يسوع عرس قانا الجليل وتحويله الماء إلى خمر. من البديهي أن الرب لم يفعل ذلك تشجيعاً للسكر، إنما لكي يعبر عن مسرته في ديمومة فرح الناس وعدم تعكير صفوه لطالما أن تناول الخمر كان في مناسبة معينة وفي حدود المعقول واللائق.

أما في العهد القديم فبالرغم من وصية الله للعبرانيين باستعمال شيء من الخمر لدى تناولهم الفصح، فأن التحذير من الإكثار منه يبدو واضحاً. فهو يثبت بعض الأحداث المؤسفة والتي يبدو فيها تأثير الخمر

السلبي في حياة بعض الناس الصالحين مثل نوح ولوط. وكأني بالوحي الإلهي أراد أن يضع هذه الأحداث ذات النتائج الوخيمة أمام الناس تحذيراً لهم من السكر إلى جانب هذا، فأن يوئيل النبي يحذر من السكر الذي ينتهي إلى نتائج مؤلمة يعقبها الندم الشديد، فينصحهم قائلاً " **أصحوا أيها السكارى وأبكروا وولولوا يا جميع شاربي الخمر** " (1: 5). وأنبياء آخرون ينادون بالويل والثبور وعظائم الأمور للسكيرين، مؤكدين أن السُكر يقضي إلى الفضائح. منهم حبقوق الذي يندد ليس بالسكير فقط بل بالذي يدعو إلى السكر أيضاً، يقول " **ويل لمن يسقي صاحبه من كأس الغضب إلى أن يسكر لينظر إلى خزيه** " (2).

أما أشعيا النبي فيكيل الويلات للذين يبكون في طلب السكر، والذين يمضون الليل كله ساهرين والخمر تلهيهم (5). كما أنه يعتبر السكر نوعا من الضلال (28). ويتساءل صاحب الأمثال عن الذين يستحقون الويل فيقول " **لمن الشقاء، لمن الخصام ولمن الفضيحة، لمن الكرب.... إلا للذين يدمنون الخمر** " (أش 18). كما أنه يرى السكر هزءاً ومجوناً، ولا ننسى تحذير صاحب المزامير من مجالسة المستهزئين.

بعد هذا العرض الوجيز، وكخلاصة للموضوع نقول : يجب الفصل بين السكر وشرب الخمر المعتدل في مناسبات معينة، فالسُكر محرم تماماً في المسيحية وهو خطيئة من الكبائر. أما شرب الخمر باعتدال وفي مناسبات فليس بخطيئة، ومع ذلك فأن الكتاب المقدس لا يشجع على شربه إطلاقاً، بل يحذر من الإسراف لئلا يتطور إلى درجة الخطيئة.

العشرة الرديئة

تعاليم كتابنا المقدس وآبائنا الميامين، لم تخل من الحديث عن أثر العشرة الرديئة، وما تتركه من بصمات قذرة في حياة أناس كانوا بالأمس القريب يُشار إليهم بالبنان في حسن السيرة ونقاء الطوية، ودماثة الخلق، ولكن وعلى حين غرة إذا بهم ينقلبون رأساً على عقب، فيتمردون على كل شيء. من آداب المجتمع الذي يعيشون فيه، بل وحتى على آبائهم وخلانهم الأوفياء، في حين كانوا قدوة حسنة في المحبة والطاعة واحترام الآباء. فقد تغيرت لديهم الموازين وأخذ الناس يُشيرون إليهم بأصبع المهانة والازدراء بدلاً من الإشادة والإكبار، لكونهم هبطوا إلى أسفل الدركات والانحطاط الخلقي.

لنعد إلى كتابنا العزيز ونتصفح صفحاته لنقف على بعض ما تحتويه مطاويها بهذا الشأن. ومَن لنا بأعظم من ذلك الطرسوسي البارع الذي يستقي كلامه من روح الله القدوس، فنسأله رأيه في مدى فاعلية العشرة الرديئة بالنسبة إلى أخلاق الفرد، لنسمعه يقول في سياق نصحه بالابتعاد عن المضلين من ذوي العشرة الرديئة والسمعة السيئة " **لا تضلوا فإن المعاشرات الرديئة تفسد الأخلاق الجيدة** " (1 كو 15: 33). ولكن كيف يبدأ الفساد يدب إلى الإنسان لينخر خلقه ويطيح بها ؟

للإجابة على هذا السؤال، أسرد قصة سمعتها من أحد الفضلاء من ذوي العفة والفطنة، فقد حدثني عن (س) الشاب المهذب الخلوق، الذي نشأ في عائلة كريمة المحتد يجمّل أبناءها إيمان عميق الأغوار وتعبق في أجواء حياتها رائحة المسيح الزكية، كان يستوعب قيمة نصح الوالدين النابع عن محبة فائقة الوصف، فيتقبله بكل رحابة صدر. غير أن ظروفاً ما طرأت على حياته، فألجاته إلى العيش بعيداً عن جو تلك العائلة المفعم بالسلام والمسرة، ولم يكن يعوزه شيء من أسباب المعيشة، فكل شيء متوفر لديه أكثر من المطلوب. ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى تشمم بعض رفاق السوء وجوده بين ظهرانيهم، كما تشمم الثعالب رائحة الدسم عن بعد فتتجه صوبها. وبالرغم من معرفتهم بأن مسار حياته يختلف تماماً عما هو عليه مسارهم، إلا أنهم أخذوا يتقربون منه ويتوددون إليه شيئاً فشيئاً، فيكرمه أحدهم بسيكارة فيتعذر في بادئ الأمر، لكنه، من باب الخجل والمجاملة من جهة، ومن باب مقتضيات

آداب المجتمع التي تفرض عدم رد " الكرم " من جهة أخرى، تناولها ودخنها، وتوالت زيارات الشلة أو قل العصابة، وإذا بهم يحملون إلى شقته بعض المشروبات الكحولية، وبتشجيع منهم يقتسم تناولها حتى اعتاد عليها، وأخذ ينفق عليها أكثر مما تتحمله ميزانيته حتى خلت جعبته من المال. " وبنصيحة " من هذه الشلة الفاسدة أخذ يمد يده للسرقة والاعتداء على الغير، حتى رأى نفسه ذات يوم مخفوراً وهو يساق ويزج في غياهب السجن، ومن المؤسف حقاً أن يبرر نفسه بقوله " أنه قدري".

لا يهمنا إن كانت هذه القصة واقعية أم من نسيج الخيال، المهم أنها تشكل عبرة لمن اعتبر، وتحذيراً خطيراً من معاشرة بني السوء التي ستقضي حتماً إلى أحد الأمرين : إما السجن كصاحبنا (س) أو التشرد والتخبط في حمأة المآثم مثل الابن الضال. ومن يدري هل سيلقى من يحن عليه كما هو الأمر بالنسبة إلى الابن الضال، أم سيمضي حياته عائشاً في المجهول وعلى هامش الحياة.

لقد أحسن من قال : **قل لي من تعاشر، أقول لك من أنت** مشيراً إلى تأثير الأصدقاء على حياة المرء وأخلاقه إيجابياً، إن كانوا صالحين وصادقين، وسلبياً إن كانوا أردياء سيئين مجردين من القيم الإنسانية، ولا يعرف الحي الروحي إلى قلوبهم سبيلاً. لهذا ينصح الحكيم ابن سيراخ كل شاب أن لا يتخذ صديقاً له إلا بعد اختباره (6: 7)، لأن الاختبار خير وسيلة للنجاة أو التخلص من أصحاب السوء الذين نراهم هائمين في عالم المنكرات والموبقات دون وازع من ضمير لا شأن لهم

سوى سلوك سبيل الشر والايقاع بهذا أو ذاك، ومن دون أن يفكروا بالنتائج الوخيمة التي تنتظرهم في هذا العالم وفي الآتي، وإذا ما أفلت هؤلاء من قبضة القانون، فهم لا يفلتون من قبضة العدل الإلهي الذي " يمهل ولا يهمل ". الرسول بولس كعادته في النصح والإرشاد يناشد المؤمنين كي لا يشاكلوا أهل هذا الدهر أي الذين يسلمون المشيئة لرئيس هذا العالم (الشيطان) متجاهلين مشيئة الله، فلا يميزون ما هو صالح ومرضي عند الرب عما هو عكس ذلك، ولأنهم يتجاهلون مشيئة الله، فهم يسلكون مسالك منحرفة منساقين وراء الأهواء، بعكس من يسلمون المشيئة لله ويسلكون بمقتضاها، وإذا كان لا بد من العشرة ــ وهذه غريزة في الإنسان ــ فعلى المؤمن أن يبحث عنها لدى أصدقاء مستقيمين صالحين لأن يكونوا قدوة حسنة، والذين يشاركونه أفراحه وأحزانه على حد سواء، يريدون له ما يريدون لأنفسهم.

ومجمل القول : أن هناك مؤثرات رئيسية خارجية تمهد الطريق أمام الشباب وبخاصة المراهقين، للعشرة الرديئة من ذلك :

1- الإعلام الرخيص بأشكاله المتنوعة المشوهة لجمال الإنسان الممنوح له من الله، بتقديمه ما يدغدغ عواطف الشباب ويتلاعب بمشاعرهم فيقلدوا ما يشاهدونه أو يسمعونه.

2- العوامل الاجتماعية وضغوطها الفاعلة كأصدقاء السوء أو المجتمع الذي اقتحمه الفساد.

3- عدم تحصين الشبيبة منذ الصغر ضد مسببات الانحراف والفساد، فالحصانة ضمانة للصمود من هذه المؤثرات.

4- توقف النمو الإيماني لدى الشبيبة بسبب الإهمال سواء من جانب الأهل أم الكنيسة والحكمة تقول : لا تسرِ مع المتهاملين ولا تلاعب من ساء أدبه.

الزائد أخو الناقص

هذه مقولة شائعة، الغاية منها، الاعتدال في كل شيء وعدم المبالغة أو التطرف، وهي تحمل بين طياتها عبرة وعظة، تهدف إلى إعطاء لكل ذي حق ما يستحقه دون زيادة أو نقصان، فقد تكون الزيادة على حساب الآخرين ويكون النقصان بخساً للحق. كأن ينتقص حق إنسان في مآتيه، فلا يشار مثلاً من قريب أو بعيد إلى إنجازاته وأعماله المبرورة، وما قدمه من خدمات على مختلف الصعد، وما بذله من جهد في سبيل السلام وبث روح المحبة والأخوة، أو ما سجله على صفحات التاريخ والعلم من بنات أفكار لها شأنها في تطور الحضارة والمجتمع : أقول، أن ينتقص حق إنسان مثل هذا، فلا يذكر بمستوى ما تستحقه إنجازاته، فهذا اعتداء سافر وضد إرادة الله " **لأن العامل مستحق أجرته** "، فالحق يجب

أن يوضع على المنارة ليراه الداخل والخارج، ولا يجوز وضعه تحت المكيال بقصد إخفاء نوره عن الناس. بل يجب أن يظهر دائماً وفي كل الأحوال والظروف، فإخفاء الحق أو بخسه جريمة لا تغتفر، لأن من دون الالتزام بالحق لا تستقيم الحياة التي ينشدها كل واحد، ذلك أن الإنسان المستقيم يلتزم بالحق ولا يميل إلى الباطل ولا ينحرف عن السلوك السوي، ولا يتطرف فيما يقوله أو يفعله، وينصح صاحب الأمثال بعدم الإفراط في الحق، ويحث أشعيا النبي على السعي وراءه والاحتفاظ به.

ولكن هل يأخذ الناس بهذه الفكرة ؟ هل ينتصرون للحق أو أنهم ينحرفون عنه سواء تحت ضغط أم بمحض الحرية ؟ وهل أنهم يمنحون الحق لمستحقه أو لمن لهم اعتباراتهم الخاصة، شخصية كانت أم عنصرية أم مذهبية وما إلى ذلك ؟ أنها لمأساة حقاً يعيشها إنسان اليوم، ليس في مجتمعنا فحسب، بل وفي العديد من المجتمعات الأخرى التي في دول العالم الثالث. فحق هذا الإنسان يبخس لا لشيء سوى لكونه ملوناً مثلاً، وحق ذاك يبخس لمجرد أنه إنسان ضعيف فقير لا حول له ولا قوة. ترى ماذا يقول كتابنا المقدس عن بخس حق الآخرين ؟ يقول، أن حق الإنسان، أي إنسان كان، هو من الله (أمثال) فلا يجوز أن يحرف حق المسكين (خروج 23: 6) بل ينبغي إنصاف المظلوم المبخوس حقه (أشعيا 1: 17) إذن كلمة الحق يجب أن تُقال لمن يستحقها حتى ولئن كان أقل الناس شأناً في نظر الآخرين.

لنأتِ الآن إلى الناحية الثانية، وبتعبير آخر إلى " الزائد " وما تحمله هذه الكلمة من مبالغة وتطرف وكيل المديح لهذا أو ذاك جزافاً، خلافاً للواقع، وما كان كذلك فهو رياء، وكثيراً ما يتظاهر المبالغ بالمحبة والدالة، لكنه يبطن عكس ما يظهر كما كان أمر دليلة بالنسبة إلى شمشون الجبار أو الشيطان بالنسبة إلى المرأة الأولى. ولكن إذا كان الشخص مستقيماً في حياته، عند ذاك يكون قلبه وضميره على نفس المشاعر التي بعير عنها في كلامه. وكم وبخ السيد المسيح الفريسيين واصفاً إياهم بالمرائين لأنهم يبطنون خلاف ما يظهرون مشبهاً إياهم بالقبور المكلسة التي تظهر جذابة من الخارج ولكنها من الداخل ملاءى بالجيفة. أن من يبالغ خلافاً للحقيقة يخسر ثقة الناس به سواء كانت المبالغة بالكلام أم بالوصف. نعم، قد تأخذ العاطفة شخصاً فيكيل المديح بلا حد أو قياس لمن يحبه، وهو لأمر جيد أن يبث المرء مشاعره تجاه من يحب فيتحدث عما يحمله من صفات إنسانية، أو ما وهبه الله من هبات متنوعة، ولكن يجب أن يكون ذلك بحدود الواقع لا غير.

وقد اعتاد البعض أن يبالغوا في سرد مزايا إنسان ما إلى درجة تجعل الممدوح يخجل من نفسه، لأنه لا يرى في نفسه المزايا التي يوصف بها، والانكى أن البعض يتطرفون في الثناء بلا حساب ولا حدود إلى درجة التأليه، معاذ الله.

إن الغلو في الشيء دون مبررات هو نوع من الكذب لأنه لا يعطي الصورة الصحيحة للواقع، والكل يعلم أن هذه المزية هي عدوة

الحق، وأنها مكرهة بالنسبة إلى الله والمجتمع، لأنها تخفي الحقيقة ولا تدعها تظهر نقية ناصعة كما يجب أن تظهر، ومن هنا كانت المغالاة في الإطراء والثناء أحد عيوب الناس. وتأتي المبالغة على أنماط متعددة، فهناك من يبالغ في حب الظهور فيحاول الجلوس في أول المتكآت أو يحشر نفسه في قضايا لا شأن له بها، وهناك من يبالغ في الزينة والحلي إلى درجة أن الأنظار تلتفت إليه، الأمر الذي يتنافى وتعاليم الكتاب المقدس الذي يوصي بالاعتدال. يقول الرسول بطرس للنساء " **لا تكن زينتكن الزينة الخارجية من ضفر الشعر... والتحلي بالذهب...بل زينة الروح الوديع الهادئ الذي هو قدام الله كثير الثمن** " (1 بط 3) وكأني به يحذر المرأة من أن تصب كل همها على مظهرها الخارجي، بل عليها أن لا تنسى إنسانيتها وما تتطلب هذه الإنسانية من صفات حميدة تعقد تاجاً على رأسها، كالحكمة والفطنة وحسن التدبير... أن مزايا مثل هذه هي التي تكوّن الشخصية الحقيقية للمرأة.

ومن أشكال المبالغة، التفجع الزائد من ظروف صعبة قد يمر بها الإنسان، فيصفها بأن لا نظير لبشاعتها في التاريخ، أو أن الحياة لم تعد تطاق، وسواها من التعابير التي تنم عن التفجع غير الموزون. وتلعب المبالغة دورها في الرثاء والتأبين، فقد لا يكون الفقيد سوى إنسان عادي، أو قد يكون قد أتى بعمل نافع بسيط، وإذا به يوصف بالمصلح الكبير أو العالم النحرير أو المجاهد الذي لم يبزّه أحد في أي ميدان من ميادين الحياة، ويسترسل الراثي في سرد صفات ما كان للفقيد ليرضاها لو قيلت في حياته. فالزائد إذن أخو الناقص.

داء الشــهـرة

لا بأس أن نمهد لهذا الحديث بقصة واقعية معاصرة تصلح لأن تكون نموذجاً للسعي الخاطئ وراء الشهرة، بطلها شاب يبحث عن الشهرة بأي ثمن كان. وبعد لأي وتفكير عميق تمخضت قريحته عن فكرة محاولة اغتيال رئيس بلاده ـ الولايات المتحدة الامريكية ـ معتقداً أن هذا أسهل وأسرع ما يوفر له الشهرة التي يسعى وراءها. فينفذ ما في ذهنه دون أن يفكر أن وراء عمله هذا جريمة شنعاء، فأطلق النار على رئيس بلاده (ريجن) لكنه أخطأ الهدف. ولما سئل عن الدافع إلى هذا العمل الإجرامي. أجاب، ليس من دافع سوى رغبتي الشديدة في الشهرة ترى ما هذه الشهرة المزيفة، وكيف يرضى عاقل أن تنتشر له شهرة في القتل أو الأعمال الإجرامية اللاإنسانية ؟ أليس هذا نوعاً من الجنون ؟ والجنون

فنون كما يُقال... فالشهرة المقبولة تأتي طواعية، لا تغتصب. هذه الحادثة تذكرنا بالقول الشعبي المأثور " قبح تعرف ". ولكن متى كانت القبائح سلماً للارتقاء إلى المجد ؟ اللهم إلا إذا كان المجد المتوخى نوعاً من الأمجاد الباطلة التي يحاربها الكتاب المقدس بضراوة " **من يتكلم عن نفسه يطلب مجد نفسه** " (يو 7: 18).

ومجد الذات هذا، اعتاد عليه الفريسيون الذين ما كان يطيب لهم سوى أن يصلوا في الطرقات والشوارع لكي ينظرهم الناس ويمجدوهم، أنهم، والحق يُقال، طلاب شهرة جوفاء فقط، لا رجال صوم وصلاة. فقد كانت هذه الفرائض مجرد ممارسات جوفاء لكي يظهروا أنهم أبرار، وليسوا كذلك سوى عند ذواتهم، وكيف يكون باراً من كانت أعماله شريرة ؟ (يو 3: 19). لهذا شبههم الرب يسوع بالقبور المكلسة المزينة التي تظهر جميلة من الخارج، لكنها لا تضم سوى الجيفة، وقد زاد فنعتهم بالمرائين لكونهم أناساً لا يحلو لهم سوى الجلوس في صدر المتكآت لكي يُشار إليهم بالبنان، ولذا حذر الرب من التشبه بهم، ومن التطبيل لأي عمل يأتيه المرء (متى 6: 1-2). أن شعور الإنسان بأفضليته على الآخرين، يقوده، ولا شك إلى الكبرياء والتعالي، كما كان الحال مع الفريسيين ومن يتشبه بهم وهذا ليس جديراً بالمؤمن لأنه يعيق نموه الروحي والإيماني. في حين أن المؤمن الملتزم يسعى دوماً لتنمية وتقوية إيمانه عبر سلوك طرق الله المستقيمة فتأتيه الشهرة طواعية دون أن ينشدها، ومثل هذه الشهرة هي موهبة من عند الله صالحة.

لقد تميز عصرنا بالدعاية بمختلف وسائلها، والدعاية إن كانت من أجل خير عام وخدمة إنسانية، لا باس بها، كالدعاية عن إنجاز ما يخفف معاناة الناس، أو يقلص فترة آلامهم أو يساعدهم في مسيرة حياتهم، ولكن العار كل العار إذا استخدمها المرء لمجرد مصلحته وإظهار شخصيته لكسب الشهرة ليس إلا، ففي ذلك فضح سافر لروح الأنانية والكبرياء التي في داخله والتي تتستر وراء الدعاية والإعلام، ولا ريب في أن الإلحاح في طلب الشهرة بأي ثمن كان يسيء إلى السمعة فتتدنى الأرصدة الاجتماعية لدى الساعي إليها. والشهرة كظل الإنسان، أن حاول اللحاق بها ابتعدت عنه، وأن حاول الهروب منها لحقت به. والتاريخ مفعم بالأحداث التي تؤكد هذا.

يخبرنا المؤلف مار ميخائيل الكبير السرياني عن انتخاب بعض البطاركة وكيف أنهم هربوا تواضعاً وتهيباً لهذا المقام الرفيع، غير أن عناية الله كانت وراء ذلك الاختيار، فهذا البطريرك اثناسيوس الجمال اختير وهو راهب للجلوس على السدة البطرسية، وكم اعتذر ولكن بدون جدوى، ولكي يوافق اشترط أن يسمح له بمواصلة نقله الملح للدير على الجمال حتى انتهاء نوبته، فكان له ما أراد. والبطريرك يوحنا بن عبدون الذي أنعم الله عليه بصنع المعجزات، لما اشتهر اسمه كإنسان يليق بالمقام البطريركي هرب وسكن أحد كهوف الجبل الأسود، لكنه لم ينجح من مصيدة الروح القدس. وهكذا قل عن ابن أخيه البطريرك يوحنا أيضاً الذي ما أن سمع بانتخابه حتى غادر المكان خلسة متجهاً إلى

مكان مجهول لئلا يكتشف، فما أن كان من أعضاء المجمع إلا أن يرسلوا من يبحثون عنه، وبعد بحث طويل، وبعناية ربانية، اكتشفوه مختبئاً بين الأدغال فاصطحبوه وأقاموه بطريركاً. وأن ننس لا ننسى أفرامنا السرياني العظيم، الذي طبقت شهرته اأافاق دينياً وقداسة وعلماً وثقافة، وكشاعر موهوب بزّ شعراء عصره دون استثناء، فلم يأتِ هذا الرجل شيئاً ينم عن رغبته في انتشار شهرته التي استفاضت في أرجاء الدنيا قاطبة رغم أنه لم يقتبل سوى درجة الشماسية والتي جاءت نتيجة تواضعه الجم، فقد صرح بأنه لا يستحق موهبة الكهنوت الشريف رغم أنه صال وجال في مجمع نيقية المسكوني سنة /325/ حين رافق معلمه مار يعقوب النصيبيني فقد كان وصفوه مار اثناسيوس الرسولي صوت صارخ في ساحة الحق، وهل من وصل إلى قمة الشهرة كأفرام العظيم.

هناك نماذج أخرى استفاضت لهم شهرة دون أن ينشدوها كالنبي داود الذي بمنازلته لجليات الجبار فاضت له شهرة واسعة، وبخاصة بعد أن رتلت الفتيات قائلات : ضرب شاول الوفا وداود ربوات، واتسعت آفاق شهرته أكثر لدى تصريحه بأن نصره ثم بقوة الله وليس بقوته.

وفي عصرنا الحديث حاز الكثيرون على شهرة واسعة دون أن يقصدوها بما يقدمونه من خدمة للبشرية أو بالسيرة الصالحة وبمآت إنسانية جليلة، وتراهم يستهجنون كل وسائل الدعاية والإعلام ويرفضون الوقوف أمام الكاميرات، إلا أن شهرتهم تألقت في أرجاء

المعمورة، هؤلاء انتهجوا في حياتهم نهج المعلم يسوع وساروا على خطاه في محبة الإنسان والإنسانية، منكرين ذواتهم من أجل رسالة حملوها بمحض إرادتهم رغم صعوبتها.

نظرة واحدة عابرة نلقيها على أعمال وسيرة مخلصنا يسوع، لنجد أن أياً من أعماله ومعجزاته كان كافياً لكسب شهرة عالية بين الجماهير، غير أنه كان يتهرب منها. ولنتذكر مثلاً، أن أول معجزة صنعها يسوع في أعقاب الشروع بنشر بشرى الخلاص، تمت في قرية صغيرة نائية في الجليل تدعى قانا، هناك ذهب ليكشف بعض هويته أمام جمهور من البسطاء وعدد من تلاميذه، وأحياناً كثيرة كان يوصي المستفيد من معجزته، ألا يقول لأحد أو يعلن أمام الجماهير ما صنع به يسوع. وعلى أثر معجزة إكثار الخبز وإشباع الآلاف من خبزات يسيرة وسمكتين، شعر بأن الجمهور يستعد لاختطافه وإقامته ملكاً عليهم، فابتعد عنهم ورجع وحده إلى الجبل. والرسول بولس ينسج على منوال سيرة يسوع. فقد كان يتمتع بامتيازات خاصة تشكل أرضية قوية للتفاخر والتباهي، لكنه لم يعبأ لها كونها من معطيات هذا العالم، من ذلك كونه من سبط بنيامين، وفريسي يلتزم بالشريعة ويجاهد من أجلها بغيرة نادرة إلى درجة أنه اضطهد الكنيسة المسيحية الفتية، إلا أنه اعتبرها نفاية تجاه ربحه المسيح، وهكذا يكون قد قدم نفسه قدوة في نبذ الأنانية والاعتلاء أو التفاخر بأعمال زائلة، بعكس ما هو عليه الكثيرون الذين همهم الوحيد اكتساب الشهرة.

وبعد كل هذا، ونظراً للتكالب غير المبرر وراء الشهرة غير المقبولة، والتي يسعى إليها بعضهم "حلالاً أو حراماً "، وصفت بأنها داء اجتماعي وليد الشعور بالنقص عند الذين يجدون الغير وقد تألق نجمهم في حين أنهم مجردون من كل موهبة صالحة.

الإيمان... وإيمان المناسبات

من الأقوال المأثورة **يا جبل ما هزتك ريح**، فالريح مهما كانت عاتية، والعاصفة قوية، تعجز عن تحريك الجبل ولئن قيد أنملة، في الوقت الذي تطيح بالمباني العالية وتستأصل أضخم الأشجار الغاصة جذورها في أعماق الأرض. ذلك أن حجارة الجبل مرصوصة وملتحمة ومحمية من كل الجوانب، بحيث تتراجع أمامها الريح الصرصر لدى اصطدامها بها. هذا واقع ملموس غني عن الدليل والبرهان، هكذا يريد الرب يسوع أن يكون إيماننا، مثل الجبل الشامخ والمتجذر في أغوار الأرض، ونرسي قواعد بنيان هياكل ذواتنا على صخرة الإيمان الصلدة المتأصلة والتي أشار إليها الرب واصفاً بالحكمة من يضع أساس إيمانه على مثل تلك الصخرة (متى 7)، وهذا ما فعله الأوائل الذين لم يكتفوا بإرساء أسس إيمانهم

على صخرة يسوع، بل وصانوه من الخارج وحصنوه من الداخل، فغدا في مأمن من العبث والفساد، وفي منجاة من كل تأثير وطارئ خارجي، لقد كان إيماناً لا تزعزعه ريح الضلال، لأنه قد ملأ كل زاوية من زوايا حياتهم.

لكن من الملاحظ أن هناك نوعاً من الإيمان يمكن تسميته بـ : **إيمان المناسبات**، بنيانه هش وسريع العطب إذ ليس له عمق أرض، وغالباً يأتي نتيجة لتأثر وقتي سرعان ما يتبخر بزوال ذلك المؤثر، أو أن ضيقاً ما يفرزه كما يحدث لدى البعض الذين ليس للممارسات الروحية في حياتهم موضع، فإذا وقعوا في ضيق أو محنة، تراهم يسرعون إلى الكنائس كأنهم مؤمنون حقيقيون. روى لي أحدهم، وكان من الذين لا ينكرون عدم معرفتهم طريق الكنيسة، قال : عندما حلت أزمة خطيرة في مدينتي، كنت تراني وأفراد عائلتي رافعين أكف الذراع للصلاة طالبين لطف الله لرفع تلك الأزمة القاسية. ولكن ما أن زالت الأزمة حتى عادت حليمة على عادتها القديمة. أنه إيمان المناسبات فقط. وهناك من لا يرى وجه الكنيسة سوى في مناسبات كبرى لا تتعدى الثلاث أو الأربع في السنة. ومن أمثلة هذا الإيمان، " إيمان الذين يتأثرون بعض الوقت بحديث أو عظة لأحد الآباء الكهنة عن أهمية الإيمان وفاعليته، فيتعظون ولكن إلى حين، فعندما يعظْ الكاهن مثلاً عن أهمية الحشمة في حياة المرأة المسيحية، لا سيما لدى تواجدها في حضرة الله (في الكنيسة)، مؤيداً كلامه بآيات من الكتاب المقدس، تلتزم العديد من النساء بهذا

التوجيه، ولكن لفترة وجيزة وإلى حين تلاشي تأثير حديثه فيهنَّ، فيعودنَّ إلى ما كنَّ عليه، كل ذلك لأن الإيمان غير متأصل. فالمهم أن يكون التزام المؤمن بالتعاليم المسيحية بوحي من إيمان حي، لأن الممارسات الآنية غير مجدية لطالما أن المرء لا يحاول إصلاح ذاته من الداخل أولاً وبعبارة أخرى، صيانة ذاته من كل ما من شأنه هدم بنيان حياته المسيحية التي أرسى حجر أساسها يسوع المخلص، " **وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي** " ترى أية صخرة هذه التي جعلها يسوع قاعدة لكنيسته، غير الإيمان الحي الذي يعشش في النفوس الطاهرة.

حقاً إن الإيمان الثابت الحي لا يأتي من الخارج، بل ينبع من صميم الذات، ويستمر ثابتاً راسخاً كلما تعمقت جذور العلاقة ما بين الله والإنسان. أن الذي يبني ذاته من الداخل على أسس إيمانية راسخة وتعاليم إنجيلية قويمة لا يخشى شيئاً يأتيه من الخارج، ولا تستهويه أفكار مستوردة، ولئن كانت السلعة المستوردة هي المفضلة اليوم، هذا بالنسبة إلى السلع التي تخضع للبيع والشراء سواء غلى ثمنها أم بخس، لكن ليس الأمر كذلك بالنسبة إلى المبادئ الإيمانية الجوهرية والقيم الروحية المثلى. فمثل هذه الأمور لا يمكن استيرادها من الخارج لطالما أن الله غرس أصولها في داخل الإنسان وكيانه. يقول الرسول بولس " **أنتم بناء الله** " (1كور 3: 9) فأن كنا نؤمن حقاً بأننا بناء الله، أستوجب علينا رفض كل حجر أو لبنة غريبة لا تمت إلى هذا البناء بصلة، بل تقحم فيه إقحاماً، ولئن بدت فيه نشازاً وتشويهاً لجماله. فمثل هذه اللبنات يجب

أن تنبذ، وأن لم تنبذ قد يضاف إليها أخرى وأخرى وهكذا دواليك حتى يتشوه البنيان بأكمله.

بين آونة وأخرى، نلاحظ مثل هذه اللبنات توضع في أمكنة استراتيجية في بنيان إيماننا المسيحي، ويحاول واضعوها إيهام الناس بأنها توضع من أجل جمال البناء ليظهر بمظهر يستهوي الإنسان المعاصر الذي يريد كل شيء جديداً، غير أن الواقع عكس ذلك تماماً، فقبل أن تقدم لنا أية لبنة لتوضع في بنيان إيماننا المسيحي الأصيل، يجب تمريرها في مختبر الإنجيل لفحصها بدقة ومعرفة فيما إذا كانت صالحة أم غير صالحة، إلا يقول الرسول بولس : " **امتحنوا كل شيء وتمسكوا بالحسن** " (1 تس 5: 21) و" **لأنه ليس كل الأشياء تبني** " (1كو 8: 11). قد تكون هذه اللبنة مقالاً أم تعليماً من قبل هذا وذاك المعلم ومن العلماء الذين يحذرهم الرسول بولس من أن يكون علمهم معثرة للمؤمنين فتتنجس ضمائرهم وتضعف، ويناشدهم بقوله : " **فيهلك بسبب علمك الأخ الضعيف الذي مات المسيح من أجله** " وذلك بسبب ضعف إيمانه، فلم يعد يبقى لديه سوى إيمان المناسبات الواهن.

فضيلة أم عار

قال الأقدمون، ويالصدق ما قالوا، أن الرجوع عن الخطأ فضيلة، ولكن هل يستصوب أبناء عصرنا هذه المقولة أم أن كبرياءهم توحي إليهم بأن الاعتراف بالخطأ ضرب من العيب والعار فيعزفون عنه، وإذا بهم يتخبطون في متاهات الضلال ووديان الجهل العميق الأغوار، أن الجهل بحد ذاته ليس عاراً غير أن الإصرار عليه رغم وضوح المعرفة هو العار بعينه، حتى أن المجتمع يتعامل مع الجاهل بشكل مغاير تماماً عما يتعامل به مع صاحب المعرفة المتجاهل، الذي بحكم الغرور المبتلى به يرى القذى البسيط في أعين الناس متغاضياً عن الخشبة التي في عينه هو، ومتجاهلاً بأن هناك شيئاً أرفع وأسمى من أنانيته، وأن الله خلق الإنسان لكل ما هو رفيع ونبيل، خُلق ليحب غيره كحبه لنفسه، ويعيش للآخرين

كما يعيش لذاته، لكي تستقيم حياته ومسيرته، وإذا ما أدرك أن مسلكه غير سليم ومخالف للقيم الدينية والاجتماعية والشرائع السماوية، عاد عنه وأصلح ذاته وانضم إلى صفوف الأسوياء، وإلا فإن العار يلاحقه لا محالة مدى حياته، فالرجوع عن الخطأ سواء أرتكبه تعمداً أم جهلاً ليس عاراً بل هو شرف وفضيلة كما أسلفنا، ينم عن نية سليمة وقلب طيب نقي يأبى أن تعشش فيه الأحقاد والضغائن والشرور، وقد امتدح السيد المسيح كثيراً الرجوع عن الخطأ في مثل الابن الضال، ولكن العار كل العار أن يدرك المرء حقيقة خطئه أو إساءته إلى هذا أو ذاك ويحاول التهرب من الحقيقة بتبريرات تافهة أو يغطي أخطاءه غاضاً الطرف عنها ومعتبراً اياها حقيقة وهو يدرك تماماً أنها ليست كذلك، أو على الأقل كأنها لم تكن، مُؤثراً بذلك مصلحته الشخصية، في حين أن الاعتراف بالخطأ هو تعبير عن محبة الإنسان للحق والعدل، ومن المؤكد ان الحياة في أي مجتمع كان، لا تستقيم ما لم بضع الفرد المصلحة العامة فوق المصلحة الخاصة ويعمل يداً واحدة مع الخيرين للنهوض بالمجتمع إلى أرقى مرتبة، وخلق أجواء حياتية قمينة بالعيش والسعادة، فلا ينظر إلى الحياة وكأنها له وحده وعلى الآخرين أن يكيفوها بالشكل الذي يرغبه هو دون أن يحرك ساكناً كقول السيد المسيح " **يحزمون أحمالاً ثقيلة ويلقونها على أكتاف الناس، ولكنهم لا يحركون أصبعاً تعينهم على حملها** " (متى 23: 4) فمثل هؤلاء يجب أن يعرفوا أن أي مجتمع كنسياً كان أم مدنياً متحضراً كان أم متخلفاً لا يمكن أن يزدهر وتبتسم له الحياة

الأفضل إن خلا من تضافر الجهود والتآلف والتعاون بين أفراده، فبالتعاون ستقتصر حتماً المساعي على النفع العام دون النفع الشخصي الفردي كما هو واقع العديد من المجتمعات القائمة. لقد خلق الله الناس ليتعاونوا من أجل السعادة والعيش الرغيد ولكن هذا لا يتم في غياب الحب، فما لم تمدّ جسور الحب بين القلوب لا يمكن أن تتوفر الظروف المطلوبة للتعاون أو للتقدم والازدهار، وإن أشد المعاول ضراوة وتأثيراً في تقويض هذه الجسور، هي الأنانية مصدر كل المنازعات والمشاحنات التي تنشأ بين أبناء المجتمع الواحد أو الشعب الواحد أو الأسرة الواحدة، لأن الأنانية لا تبتغي إلا ما هو لذاتها ولأنها تفسد المجتمع ولا تهدف إلا إلى ما هو مادي ودنيوي بعكس المحبة التي لا تبتغي ما هو لنفسها (1 كور 13: 5)، أما محبة المادة كما هو معروف فهي أصل الشرور (1 تم 6: 10) عندما يحصر الإنسان كل ذهنه وفكره فيها فقط، الأمر الذي يحول دون الاسهام في رقي المجتمع بالشكل المطلوب. وبعكس الأنانية، فإن روح الإنسانية التي يتحلى بها أبناء المجتمع، تسهم إلى حد كبير في خلق أجواء تسودها السعادة وتخفق فيها رايات السلام والطمأنينة، لنتخذ الرسول بطرس مثالاً في الرجوع عن الخطأ لندرك أن هذا الرجوع كان الخطوة الأولى لإصلاح الذات، فبطرس أخطأ أمام الله والبشر في فترة سيطر عليه الضعف البشري لكنه كان يحمل ضميراً حياً وخزه للحال فانصاع إلى وغزه وعاد إلى معلمه معترفاً بخطئه وكانت النتيجة أن أعيدت إليه كرامته واستقر حبه في قلب يسوع، لا بل أن

يسوع صلى من أجله لئلا يفنى إيمانه، وطلب إليه بعد الرجوع عن خطئه أن يثبت إيمان زملائه، وهكذا أضاف بطرس الرسول فضيلة جليلة إلى فضائله الكثيرة. ويجدر بنا هنا أن نتساءل ماذا لو لم يعد بطرس عن خطئه ؟ ألم يكن مصيره كمصير الإسخريوطي الذي اقترن باللعنة ! وماذا كان مصير تلك المرأة الخاطئة التي جاءت إلى يسوع تائبة وغسلت رجليه بالطيب ونشفتها بشعر رأسها فسجّل موقفها هذا الرائع في إنجيل يسوع ليكون شهادة على فضيلة الرجوع عن الخطأ، فاذا ما ارتكبنا خطأً ما فلا نخجل من العودة عنه لطالما نؤمن أن ملائكة السماء تبتهج لمثل هذا الموقف الشريف والنبيل.

القلب المزروع

وأنا أمام التلفاز أشاهد برنامجاً علمياً، إذا بمجموعة من الأطباء ومعاونيهم منهمكين في إجراء عملية جراحية وصفها المعلق بالكبرى والخطيرة، ثم عرفت أنها عملية زرع قلب لمريض كاد يفقد الحياة لا محالة لو لم تجر له تلك العملية، عملية حياة جديدة، فقلت في نفسي خير ما فعل هؤلاء الأطباء، أنه عمل إنساني عظيم يستحق الإعجاب والتقدير، ولكن سرعان ما تبادر إلى ذهني هذا السؤال : ترى هل أن القلب الجديد سليم وملائم ؟ وقلب من كان ؟ هل كان صاحبه رقيقاً شفافاً يحمل قلبه المعاني الإنسانية، أم كان عكس ذلك ؟ هل كان طاهراً تملأه العواطف الإنسانية، ويزخر بالمحبة ويجنح إلى السلام، كما يجب أن يكون قلب كل إنسان ؟ أم كان عدوانياً شريراً ؟ كل هذه الخواطر مرت

ببالي وأنا أشاهد هذا العمل الرائع، لكني قلت : ليس مهما أن يكون القلب المزروع هو قلب هذا أو ذاك الإنسان الذي فارق الحياة، أو هو قلب لحمي أو مصنوع من أية مادة أخرى، بل المهم هو الشيء الموجود بين طيات هذا القلب، وبعبارة أخرى إذا كان زرع القلوب عملاً هاماً فالأهم هو زراعة قلب يضم كل مواصفات القلب الإنساني، أي ما يزرع في القلب وليس القلب بحد ذاته.

ذلك أن زرع القلب يختلف عن زرع أي عضو آخر من أعضاء الجسم، فإذا ما زُرعت يد أو رجل فأنهما سيفيان بالحاجة ولكن ليس بصورة تامة كالأصيلة، أما القلب فخطير جداً لكونه مركز عواطف الإنسان ورغباته، والإنسان كما قيل بأصغريه قلبه ولسانه، فالقلب ينطق بلسان الإنسان " **من فضلة القلب يتكلم اللسان** " (لو 6: 45) ، ويمثله في عواطفه وميوله سواء كانت صالحة أم شريرة " **الإنسان الصالح من كنز قلبه الصالح يخرج الصلاح، والإنسان الشرير من كنز قلبه الشرير يخرج الشرور** " (لو 6:45) ، ومن هنا كان أمراً هاماً أن يُزرع للإنسان قلب ذو صفحة ناصعة البياض ينقش فيها كل ما هو صالح ونافع، ينقش كلمة الحب بكل أبعادها ومراميها، حب الله، حب الإنسان، حب السلام، حب الخير، حب التقى، بحيث يستوعب القلب كله فلا يعود يوجد مكان لحب الذات أو الشر الذي من شأنه تدنيس الإنسان إذا ما استقر في القلب، لأن من القلب، كقول الرب يسوع، " **تخرج الأفكار الشريرة، زنى، قتل، فسق، سرقة، طمع، خبث، مكر، عهارة، عين**

شريرة، تجديف، كبرياء، جهـل " (مـر 7: 21)، ونضيـف إليهـا حسـد، حقد، نميمة، ضغينة، وقس على ذلك.

ترى هل يمكن أن يُقال عن قلب هذا شأنه، أنه ينبـض بالحيـاة ؟ ... وهكذا يكون القلب هو الجهاز الذي يؤشر إلى كـون هـذا الإنسـان صالح أم لا، كما يؤشر جهاز فحص القلـب بالعلامـات أو الخطـوط الـتي يرسمها على الشاشة الصغيرة إلى مدى صحة وصلاحيـة القلـب، فـإذا مـا اكتشف الطبيب انحرافاً ما في القلب بناء على تلـك العلامـات، بـادر إلى معالجة المريض وشفائه،وهذا ما يفعله القلب بـالذات عندمـا يظهـر، بنـاء على ما يحتويه، مدى صحة الإنسان الروحية والاجتماعية، هـذه الصحـة التي تفوق صحة الجسد فضلاً، فإذا وجد خلل ما في هذه الصحــة، عليـه أن يبادر بالعلاج، وإلا قضى روحياً بالرغم مـن استمرارية نبضـات قلبـه الاعتيادية. فأ ي نوع من القلوب يشاؤه الله ويرضى به ولا يرذله ؟ يجيب صـاحب المزامير ويقـول : " **أنـه القلـب المنكسـر والمنسـحق** "، ومـن صفات هذا القلب أن يكون منسحقاً بروح التواضـع، هـذه الـروح الـتي تبعد عن الإنسان روح التشامخ، ذلك أن التشامخ مكرهة في عيني الـرب (أم **16: 5**)، وقـد حـذر الوحـي الإلهـي منـه " **لا تسـلكوا بالتشـامخ** " (ميخا 2: 4)، كما أنها تنقـي ذهنـه مـن الأفكـار الشـريرة الـتي تتنـاقض وفكر الله.

إن القلب الذي يسمح بأن يكون حقـلاً للشـرور، لا تلقـى فيـه سوى بذور الخصومات والمنازعات وكل أنـواع المنكـرات، وقلـب مثـل

هذا هو فاسد، وفي لغة الطب مريض ومشوه، لذا فهو بحاجة ماسة إلى إجراء عملية تجميل لتطهيره من كل أنواع الشرور المخزونه فيه، لا سيما شر الطمع الذي يؤدي بصاحبه ليكون ابن اللعنة، كقول الرسول بطرس في سياق حديثه عن الأنبياء والمعلمين الكذبة " **بأن لهم قلباً متدرباً في الطمع** " (2 بطرس)، لأنه يقوده إلى الانحراف عن الطريق المستقيم، فقلب مثل هذا لا يحتاج فقط إلى عملية تجميل، بل إلى استئصال وزرع قلب جديد يرضي به الله، وأن ملفان كنيستنا العظيم مار أفرام السرياني يقدم لنا مواصفات القلب الطاهر المرضي في عين الرب بعد أن يطلب من الله أن يخلق فيه قلباً جديداً بناء على فساد القلب الأول يقول : " **أعطني قلباً نقياً لا يفكر بالشر ولا تأوى إليه الشهوة، قلباً يملأه الحب والسلام، قلباً يحب الصوم والصلاة والعمل الدؤوب، قلباً يبتغي التواضع، قلباً تأكله غيرة بيت الرب، قلباً رؤوفاً يشفق على ذوي الحاجة** ".

وهنا نتسائل، ترى من يزرع الشر في قلب الإنسان ؟ أهو الإنسان ذاته أم الشيطان ؟ لقد اعتاد الناس لدى ارتكابهم أي نوع من الشر، أن يعزوا ذلك إلى إغراء الشيطان، غير أن الرب يسوع عندما يتكلم عن هذه الحالة يقول : " **الإنسان الصالح والخ... والإنسان الشرير الخ ...** "، وهذا يعني أنه يعزو إتيان الشر إلى الإنسان نفسه قبل الشيطان لطالما أن الله زوده بإرادة قوية قادرة أن تتغلب على إغراء الشيطان مهما كان ساحراً، لا سيما إذا ما اقترنت بالإيمان واستمدت العون من الله، ويقول أحد ملافنه الكنيسة على لسان الخاطيء " **بإرادتي أخطيء وبإرادتي أتوب، وأتذرع بأن الشيطان أغراني** ".

العمل شهادة

حقوق كثيرة تهدر وتذهب هباء منثوراً، وقيم رفيعة تتعطل وأفواه جريئة صادقة تُكتَم. كل ذلك بسبب شهادة ملفقة أو تهمة باطلة، يطلقها هذا أو ذاك بدوافع مصلحية غير إنسانية، ولمقاصد وضيعة دنيئة. فكم من بريء كيلت ضده تهم لا طائل تحتها، وأنزل به العقاب من غير وجه حق. هذه الصورة التي نلاحظها اليوم في كل مرفق من مرافق الحياة، ليست بجديدة، بل هي قديمة واكبت مسيرة الإنسان منذ أمد بعيد جداً. وإذا كانت التهم الباطلة قد وجهت إلى يسوع البار البريء، فلا غرو أن تُكال أمثالها ضد أي من الأبرياء وصولا إلى أهداف شريرة.

إن الشهادة الحقة تصدر عن إنسان صادق، صادق مع الله ومع نفسه ومع الناس، الذي لا يتردد من أن يقدم شهادة على نفسه أن هو

أذنب أو أرتكب إثماً بحق الغير، وشهادة الإنسان على نفسه هي أقوى شهادة وأصدقها. ولا ريب أن الشهادة الصادقة تقوم دليلاً على شخصية الإنسان وخلقه الرفيعة، ومزاياه الحميدة. أما الشهادة غير الصادقة فلا تصدر إلا عن إنسان ساقط دينياً وخلقياً واجتماعياً، الأمر الذي تعكسه أعماله وتصرفاته وتعامله مع أبناء جلدته.

حقاً أن أعمال الإنسان تكون خير شاهد له أو عليه. فالإنسان المستقيم قد لا تُقَيِّم شهادة لسانه لنفسه مثلما تُقيم شهادة أعماله، قال السيد المسيح " **إن كنت أشهد لنفسي فشهادتي ليست حقاً (في نظركم) ولكن الأعمال التي أعملها هي تشهد لي** ". ويتضح هنا أن السيد المسيح أقام أعماله شاهدة على صلاحه وحبه للناس، لأن الأعمال الحسنة هي وليدة الصلاح والمحبة. فأعمال المسيح أسقطت كل التهم التي وجهت إليه سواء تلك التي أعطت مسحة دينية كاتهامه بأنه يجدّف على الله والناموس أو سواها، في حين كانت أعماله تشهد على حبه للناموس، أو تلك التي كان لها طابع اجتماعي، كاتهامهم إياه بأنه يثير الفتن في المجتمع وبين صفوف الشعب، في حين كان يجول يصنع خيراً مع الجميع دون استثناء أو تمييز، ويعطف على الجميع ويحث على المحبة والوفاء. أو الاتهامات التي سكبت بقالب سياسي، كالتهامه بتحريض الناس على امتناع دفع الجزية لقيصر، في حين أنه صرح أن يعطى ما لله لله وما لقيصر لقيصر. كذلك الأمر بالنسبة إلى الإنسان، فأن أعماله الحسنة تعبر عن طيب معدنه وتقوم شهادة له بالرغم من كل التهم المزيفة

التي قد توجه إليه. ولكن يجب أن لا ننسى أنه ليست كل المظاهر الخارجية التي قد تبدو عملاً حسناً، هي عمل صالح. فأن عملاً ما يراه هذا خيراً، قد لا يكون كذلك في نظر الآخرين. فالعمل الصالح الخيّر هو الذي لا يستثنى أحد من الإشادة به إلا الذين في نفوسهم مرض، كما تشهد له الوسائل المتخذة لإنجازه والطرق الموصلة إليه. كما أن العمل الصالح يتماشى مع راحة الضمير الحي السليم. وأقول هذا، لأن هناك ضمائر مريضة أو ميتة توحي بما ليس بصالح كأنه صالح، والعكس بالعكس.

أما الأعمال السيئة فتنعكس آثارها سلبياً على حياة الناس بما تلحقه بهم من أضرار جسيمة. ومن الطبيعي أنها لا تصدر إلا عن أناس باعوا أنفسهم للشيطان. وهؤلاء ولئن بدت عليهم بعض الصفات الحسنة، غير أنهم يبقون مدانين أمام الله والناس. فالسارق مثلاً لا يمكن أن يبرره تملقه أو أية خدمة يقدمها، وكذلك الظالم فلا يتبرر بما يقدمه من عطاء للمحتاجين مهما كان سخياً، والمسيء إلى سمعة الآخرين لا يتبرر بمعسول كلامه.

إن خير ما يدفع المرء إلى العمل الصالح وتمسكه بجانب الاستقامة، كونه مستقيماً مع نفسه فلا يبرر عملاً خاطئاً ليجعل منه عملاً حسناً، ثم مع قريبه فلا يخدعه أو يتحايل عليه فيلحق به ضرراً سعياً وراء مصلحته الشخصية. فإذا كان كذلك فلا بد أن تقوم أعماله شاهدة له، وإلاّ فعليه. ليس فقط في الحياة الدنيا، بل وفي الآخرة أيضاً لدى قيامه

أ مام منبر الله للحساب. قال صاحب المزامير " **السماء تحدث بمجـد الله والفلك يخبر بعمل يديه** " (19: 1). أن هذه الآيـة كافيـة لتعطـي درسـاً قيّمـاً في أن العمـل هـو الشـاهد الحقيقـي للإنســان. فـلا تتحــدث إذن بأعمالك أو منجزاتك، بل دعها تتكلـم عـن أعمـالك ومـآتيك بصمتهـا الرهيب.

من لا يعمل لا يأكل

فكرة العمل من أجل الحياة، والحياة الأفضل، ليست من إبداع الإنسان الذي يعدم العيش الهنئ دون عمل، فيغدو هامشياً وعالة على المجتمع : لكن الفكرة أنطلقت أولاً من فكر الله بالذات مذ صاغ الإنسان على الأرض ووضع الجنة وما فيها تحت تصرفه وأوصاه أن يعمل الأرض ويحفظها (تك 2: 15). وبعبارة أخرى فأن الله وفر له أسباب الحياة ونبهه ليستغلها ويستثمرها. وبهذا يكون الله سبحانه وتعالى قد وضعه تحت أمر واقع، هو ضرورة العمل ووجوبه باعتباره أهم مقومات حياته وسعادته، وإهماله يعني عدم استحقاقه الحياة لطالما أن الله جعل العمل شرطاً أساسياً لاستمرارها. سواء كان العمل جسدياً أم فكرياً أم روحياً، فمن يستطيع العمل ولا يعمل لا يستحق شيئاً حتى الأكل.

تستوحى ضرورة وأهمية العمل من وصية الله للإنسان بأن يعمل ما في وسعه. ويشهد التاريخ على أن الشعوب التي تكد وتعمل لا تموت حتى ولئن بادت وغابت عن الأرض بل تبقى حية بمآتيها ومآثرها التي تركتها للأجيال اللاحقة لتكون شاهدة على شغفها في العمل وابتكارها طرقاً وسبلاً متنوعة لتطوير أعمالها إلى درجة خلودها. فعبر العمل الجاد الدؤوب شيدت صروح الحضارات البشرية القديمة التي مازالت آثارها تقوم شاهداً صريحاً على مفاعيل العمل. وعن طريق العمل المثابر غزا الإنسان العالم الخارجي ووطئ القمر بقدميه. ودخل عالم الابتكارات المدهشة التي تؤول إلى سعادته إن هو أحسن استخدامها.

وعندما نقول العمل، لا نعني تلك الأعمال التافهة التي لا طائل تحتها ولا جدوى منها مثل......، إنما نعني الأعمال التي تأتي عندما تكون فائدة العمل وثماره شاملة عامة أكثر منها خاصة. والعمل لا يكون عملاً بالمعنى الصحيح إن لم يقترن بالرغبة، فبقدر ما تكون الرغبة جادة وفاعلة في أي عمل كان، بقدر ما تكون ثماره أكثر نضجاً وأفضل نتاجاً، ذلك أن الجدية في الرغبة تجعل من العمل متعة، الأمر الذي يؤثر تأثيراً مباشراً في زيادة الانتاج كماً ونوعاً. أما العمل الذي يؤتى بدافع الضغط والقسر، فلا يمكن أن يأتي بالنتائج المتوخاة.

ومما يؤسف له تجاهل فئة من الناس قيمة العمل في الوقت الذي هم بأمس الحاجة إليه. معتبرين إياه نوعاً من الإذلال أو الحط من الكرامة، مفضلين العيش عالة على المجتمع أو على فتات موائد الغير على

أن يعملوا خشية تعيير الناس إياهم، غير مدركين أن العمل الشريف مهما كان متواضعاً هو شرف عظيم وأنه محتم على الإنسان من الله " **بعرق جبينك تأكل خبزك** " (تك 3: 19)، فمن لا يتصبب جبينه عرقاً ولا يشعر بلذة العمل فلا يحق له أن يأكل من تعب الآخرين. ومن الطبيعي أن من لا يأكل مصيره الفناء، في حين أن إرادة الله هي أن يستمر الإنسان في الحياة حتى يرقد بالسلام. ومن هنا ضرورة التهاون في العمل، تذرعاً بالمعوقات التي تعترض سبيله وتقعده عن العمل، وفي كثير من الأحيان تكون هذه المعوقات مصطنعة.

في مثل الوزنات يحث السيد المسيح على المثابرة بجدية وإخلاص على العمل دون خلق الذرائع للتكاسل والاهمال، ويقدم صاحب سفر الأمثال مشورة في غاية الأهمية، فينصح الإنسان ليتأمل النملة التي لا رقيب عليها ولا حسيب، ليشاهد جدها في عملها لتوفر احتياطاً لحياتها، فهي لا تهدأ عن العمل ولا تستكين حتى توفر في الصيف حاجتها من الطعام في الشتاء. وهنا يتساءل الحكيم " **إلى متى تنام أيها الكسلان** " (أم 6: 6). و" **ليس للإنسان خير من أن يأكل ويشرب ويُري نفسه خيراً في تعبه** " (جا 2: 24). وما يندي له الجبين أن تتواجد فئة متقاعسة عن أي نوع من العمل في كل مكان وزمان، وبعكسه وجود فئة ومن الشباب خاصة يشقون طريقهم نحو مستقبل أفضل وأزهر، فتراهم يكافحون من أجل لقمة العيش، وفي الوقت نفسه يواصلون دراساتهم في مختلف المراحل الدراسية حتى العليا منها، متطلعين

نحو المستقبل الذي يرغبون فيه لهم ولأمتهم. حقاً أن شعباً يتمتع شبابه بمثل هذه الروحية المبدعة، وله مثل هذه التطلعات والطموحات، لهو شعب حي لن يموت ولن تغيب شمسه.

في رسالته الثانية إلى أهل تسالونيكي، يظهر الرسول بولس داعية كبيراً للعمل منتقداً بعنف العازفين عنه إلى درجة أنه يصفهم بالفضوليين الذين ينشغلون بما لا نفع فيه، ويناشدهم للعمل كي يأكلوا خبزهم بعرق جبينهم. ويقدم نفسه قدوة في ذلك، فرغم كونه رسولاً له مهام تقتضي التفرغ، ورغم أنه ورث أموالاً طائلة، كما يُقال، غير أنه أبى إلا أن يقرن عمله الرسولي الروحي بالعمل اليدوي، فمارس مهنة صنع الخيام، فمازال يعمل ليل نهار في هذه المهنة لئلا يثقل على المؤمنين، رغم المشقات والمعاناة التي تحملها في سبيل إيصال بشرى الخلاص للناس. كما يلقي باللائمة على قوم اعتقدوا أن المسيح آتٍ قريباً جداً وسوف يختطفون إلى السماء فلم يعودوا يولون العمل أهميته، ولسان حالهم يقول " **لنأكل ونشرب لأن غداً نموت** " فتركوا العمل وأقاموا في الكنائس مشكلين عبئاً على المجتمع وعالة على الكنائس، وقد غاب عن بالهم وبال من يحذون حذوهم أن العمل دين يجب أداؤه لله أولاً وللإنسان ثانياً من أجل تظافر الجهود لبناء الحضارة البشرية وتطويرها على كل الصعد. فلولا العمل لما توصل الإنسان إلى ما توصل إليه من الرقي والازدهار. فالوجه الحضاري إذن الذي يشهده العالم، أن هو سوى ثمرة العمل الدؤوب المتواصل. قال السيد المسيح " **أبي يعمل حتى الآن وأنا**

أعمل " (يو 5: 17). فالعمل ليس لمجرد الحصول على أسباب العيش، بل هو أيضاً خدمة عظيمة يؤديها المرء لوطنه ولأخوته في الإنسانية. قال خليل مطران الشاعر المعروف يناشد العمال :

أيها العمال أفنوا العمر كداً واكتسابا

وأعملوا الأرض فلولا سعيكم أمست يبابا

ولا شك أن لكل إنسان واع طموحات إيجابية يهدف إلى تحقيقها، وخير وسيلة إلى ذلك هي العمل وبذل المزيد من الجهود والصبر المطلوب، فلا يدع السأم أو الفشل ينال منه، كما كان ولا يزال شأن كبار المخترعين والمبدعين الذين تغلبوا على الفشل بجدارة فكتب لهم النجاح المبين.

السبت ام الإنسان ؟

رغم أن البيت القصيد من هذا المقال، ليس يوم السبت بالذات، إنما اتخذناه من باب المجاز بناء على تفضيل السيد المسيح الإنسان على يوم السبت، إلا أنني سأتحدث أولاً عن هذا اليوم فعلاً من أجل المقارنة بينه وبين ما نود تفضيل الإنسان عليه من أمور قد يفضلها البعض على الإنسان. كل شيء خلقه الله كان على أحسن تقويم وبخاصة الإنسان الذي أغدق عليه ملء النعم وأعد كل شيء لسعادته، لا بل جعله الهدف الأول في اهتمامه وعنايته، فتابعه ورعاه حتى بعد عصيانه، وأعاد إليه مكانته وشخصيته المفقودتين، بتوسط ابنه الذي فاض حبه للإنسان فكشف عن قيمته بشرائه إياه بأغلى وأزكى دم، من أجل كل هذا فضل يسوع الإنسان على السبت اليوم الذي فرزه لعبادته لأبناء العهد القديم

فقط. إلا أن تطرفاً فظيعاً طرأ على مفهوم هذا اليوم حتى غدا معبوداً من ذلك الشعب، وحذر الاخلال به بأية صورة كانت إلى درجة أن الذي يخل به كان في نظرهم من المارقين، غير أن السيد المسيح نبذ هذا التطرف، لا بل الغى هذا اليوم كيوم عبادة لطالما غدا معثرة للناس أولاً ومن ثم لم تعد به حاجة في عهد المسيح الجديد، وكم من مرة رد كصاحب سلطان، على المتزمتين للسبت الذين لم يكونوا ليسمحوا حتى بنقل مريض مدنف إلى المستشفى يوم السبت ولئن أفضى ذلك إلى موت المريض.

وقد اعترض اليهود يوماً على تلاميذ المسيح الذين قطفوا بعض سنابل الحنطة يوم السبت ليسدوا بها رمقهم، قائلين وبلهجة تنم عن انتقادهم له لكونه لم يردع تلاميذه : أن فعل تلاميذك غير مسموح به يوم السبت، فنظر إليهم وقال بلهجة لا تخلو من توبيخ " **السبت جعل من أجل الإنسان لا الإنسان لأجل السبت** " (مر 2: 27)، قاصداً بذلك أن يعلم بأن هناك شيئاً أفضل من السبت، ثم أردف مضيفاً ومعلناً أن له سلطاناً على السبت، فالسبت (يوم للراحة) خلقه الله لفائدتنا وليس لفائدته، ولحاجتنا وليس لحاجته، ومؤكداً أن جميع المخلوقات الأرضية أخضعت لسلطان الإنسان ولمصلحته.

وهنا نود أن نقول أننا اتخذنا كلمة " السبت " كناية عن أمور تافهة لا قيمة لها قياساً بالإنسان، حتى تلك التي يعتبرها الناس هامة جداً فيعطوها كرامة أكبر من حجمها كيوم السبت مثلاً ولعل من الأمور التي

يمكن وضعها على قياس السبت والإنسان، الجسد والنفس، فالجسد يمثل السبت إنما النفس فتمثل الإنسان، وبعبارة أخرى (الاهتمام بالناحية المادية دون الاهتمام بالناحية الروحية)، في حين أن الإنسان وبحسب قول الشاعر هو " بالنفس لا بالجسم إنسان " فالاهتمام بالناحية الروحية أفضل من الاهتمام بالناحية المادية الجسدية، لأن المادة تمثل الحرف و" **الحرف يقتل لكن الروح يحيي** " (2 كو 3: 6)، ومن هنا ظهرت نظرية " البشر قبل الحجر " والحجر في حديثنا يمثل السبت، فإن صح هذا وهو صحيح، فلا بد أن تكون الأفضلية للإنسان على سائر شؤون الحياة الأخرى، نظراً لما يمتلك من قدرات وطاقات وذكاء، حباه بها الله، وبذلك يكون أكثر قيمة من أي مخلوق منظور آخر في الكون، ومن هنا فالمطلوب من الإنسان نفسه أن يبني ذاته بشكل عقلاني سليم قائم على أسس منطقية وروحية واجتماعية، قبل أن يفكر بتشييد قصور فخمة وإقامة صروح عالية أو يتمسك بأمور لا قيمة لها ولا شأن، فالجدير بالمسيحي أن يقيم ذاته هيكلاً لائقاً لسكنى روح الله القدوس، حتى قبل أن يعد لنفسه مسكناً يأوى إليه، فبناء الذات يمثل الإنسان وبناء الصروح وجمع الأموال تمثل السبت.

إن مثلنا الأعلى في تقييم الإنسان، وجعله أسمى من التشريعات الناموسية، هو معلمنا يسوع الذي لم يأبه لانتقاد اليهود لشفائه سقيماً يوم السبت، فرد عليهم بانتقاد لاذع لأنهم تجاهلوا قيمة الإنسان، وفي المزمور الثامن يقدم الوحي تقييماً للإنسان " **من هو الإنسان حتى**

تذكره وابن آدم حتى تفتقده، وتنقصه قليلاً من الملائكة وبالمجد والبهاء كللته، تسلطه على أعمال يديك، جعلت كل شيء تحت قدميه "، ولكي يعطينا الرب فكرة أوسع عن مدى اهتمامه بالإنسان، قارنه بزنابق الحقل التي تزهو اليوم لتذبل غداً، أظهر كيف أنه يوليها اهتماماً خاصاً فيكسوها بأبهى حلة وأجمل كسوة، مفضلاً عليها الإنسان الذي يتعامل معه الله على أساس كونه أعظم شرفاً وأسمى قدراً منها، باعتباره صورة الله التي من أجل إعادة جمالها، لم ير غضاضة من أن يتنازل ويخلي ذاته ويحتمل الإهانة والآلام والموت.

فالواجب إذن يتحتم على تنمية الإنسان، كإنسان وعلى مختلف الصعد الثقافية والروحية والاجتماعية وبخاصة العمل على القضاء على الأمية الدينية أو الجفاف الروحي المتفشي بنسبة عالية بين صفوف فئات الشعب وفي معظم العوائل المسيحية، فالإنسان ينبغي أن يكون المحور الأساس في فلكه تدور الأمور الأخرى، ومن المؤسف أن يصب الناس اهتمامهم على " سبت " الحياة أكثر من الإنسان، فيسعون وراء ما هو ثانوي كجمع المال الذي لا جدوى منه إن لم يؤلِ إلى فائدة للإنسان وأن السيد المسيح في مثل الغني الغبي الذي فاضت غلاله و لم يفكر بشيء سوى مخازنه فانتهى مصيره إلى العدم (لو 12) أراد أن يذكرنا بالخطأ الفادح والخسارة الجسيمة التي تلحق بالذين لا يهمهم الإنسان مثلما يهمهم " السبت ".

فاعل خير

رن جرس الهاتف.. آلـو... نعم تفضلـوا، كـم كـان بـودي ألا أزعجكم بخبر سيء لكنه هو الواقع، والواقع يجب الاعتراف به ولئن كان مرا، أضف إلى هذا غيرتي وحرصي الشديدين دفعاني إلى الاتصـال بكـم لنقل خبر يهمنا جميعاً. وما الخبر ؟.. الخبر يا سيدي يدور حـول (فلانـة) وهي فتاة من عائلة كريمة ومرموقة، أنساقت وراء شخص هامشـي بعيـد كل البعد عن الوضع الراهن لعائلتها وثقافتها ومن كل النواحي، وما هي سوى أيام قلائل جداً، حتى تغيب نهائياً عن أجواء عائلتها إلى الأبد. وما اسم هذا الشخص الهامشي ومـا هويتـه، وفي أي مكـان كـان اللقـاء ؟.. لقد تم اللقاء في... أما اسم الشخص فهو...، ثم غـاب الصوت ليعـود فيقول اسمه (كذا)... شكراً على المعلومة، ولكن أليـس جديـراً التصريح

باسمك (الكريم) وألا ترين أنه من الأفضل زيارة منك للتعرف عليك شخصياً لطالما أنت غيورة بهذا المقدار، فنشيد من ثم في كل مكان بموقفك هذا المشرف... أنا مجرد (فاعل خير) لا أكثر... أنا أعرف أن من يفعل خيراً حقاً، لا يتهرب من ذكر اسمه الصريح ليتعرف عليه الناس فيكون موضع احترامهم وإعجابهم، والسؤال هنا، لماذا تهربت صاحبة (المكالمة اللعينة) من ذكر اسمها أو اللقاء لوضع الحروف على النقاط ؟ بالتأكيد في ذلك سر، والسر هنا يكمن في كون الخبر مختلق أساساً. فما أكثر فاعلي الخير من هذا الصنف، وهم بالحقيقة فاعلوا شر " **ويل للقائلين للشر خيراً وللخير شراً** " (أش 5: 20)، الله يكون في عونك أيها الخير، فكم من شر يقترف باسمك وأنت منه براء براءة الذئب من ابن يعقوب، فالفتاة التي تحدثت عنها فاعلة الخير هذه لا تعرف شيئاً مما حدث ولأبدت استغراباً شديداً إذا ما سمعت الخبر، كثيرون من فاعلي الخير هؤلاء، يعرفون ماذا يفعلون، ولكن ما يدعوا إلى القلق أكثر، هم أولئك الذين لا يدرون أن ما يفعلونه باسم الخير هو شر جسيم ويعتقدونه خيراً، كان يفعل شخص (خيراً) مع شخص آخر، وإذا بتداعيات هذا العمل تنعكس شراً بالنسبة إلى المجتمع والمصلحة العامة، فهل يعتبر عمل مثل هذا خيراً ؟، وهذا نموذج آخر من نماذج فعل الخير عبر الهاتف : آلو صباح الخير آسف لإزعاجك مبكراً، كان بودي أن أهنئك من صميم قلبي بمناسبة خطوبتك، ولكن هل تعرف من هي التي خطبتها ؟ ألم تسمع قط عن علاقاتها المريبة وعن خصائلها غير المرغوب

فيها مثل... من أنت يا صاح ؟ (فاعل خير) ليس إلا. وبعد أن وضع السماعة، كلم الخطيبة... لقد فرحت بنبأ خطوبتك، إلا أن فرحي ليس كاملاً، وعجبت كيف أنك قبلت به رغم كل معايبه ومساوئه الكثيرة، فهو كذا... وكذا... الخ، ولكن من أنت ؟ والجواب مجرد (فاعل خير)، وهكذا يلعب الهاتف بل يلعب غيره دوراً قذراً في خلق البلبلة ونشر الإشاعات الكاذبة الهدامة، ولكن على من تقع التبعة ؟ هل على هذا الجهاز المحبوب والخادم الأمين الذي يجيله الناس إلى بؤرة فساد وخائن لصاحبه، أم على صاحبه ؟ وهذا نموذج آخر، قصدني ذات يوم صديق عزيز وأطلعني على رسالة موقعة باسم (فاعل خير) مفادها أن إحدى قريباته تخون زوجها مع جارها، فسألني عن رأيي بذلك، فاستبعدت الأمر لما أعهده فيها من خلق رفيع ودماثة منقطعة النظير، وأنها من النساء اللواتي قال عنهن صاحب الأمثال " **المرأة الفاضلة من يجدها... بها يثق قلب زوجها** "، ثم شرعت أحلل له مغالطات تلك الرسالة، ويكفي أن كاتبها له غاية دنئية ومصلحة شخصية. وبعد التحري ظهرت الحقيقة وهي أن كاتب الرسالة كان يود من وراء فعلته استفزاز الزوج لكي يبيع البيت ليشتريه بأبخس ثمن، والأمثلة كثيرة ولا بد من أن تتكرر لطالما أن الكراهية والحسد والخبث تملأ قلوب البعض، دعاؤنا إلى الله عدم إكثار من (فاعلي الخير) من هذا القبيل، فالخير كل الخير في قلتهم، لا بل في غيابهم كلياً عن المجتمع، وما دمنا في حديثنا عن كلمة (الخير) فلم لا نتحدث عن أبعادها ومعانيها الحقيقية الإنسانية، إذن فلنطرق بابه

لنتعرف على هويته، فالخير تجسيد لكل عمل إنساني وبخاصة تلك التي تنشل المرء من سقطة ما، وتنتزع عنه أنياب الفقر والجوع، وتمنح المظلوم حقه المهضوم. وقد بارك الله هذا العمل الإنساني، فأوصانا بفعله والابتعاد عن نقيضه (الشر) قال " **لا تدع الشر يغلبك بل أغلب الشر بالخير** " (رو 12: 21)، وعمل الخير تعبير عن مشيئة الله وارتياحه، وكثيراً ما يجعل الله خيراً ما يعتبره الإنسان شراً، قال يوسف الصديق لأخوته " **أنتم قصدتم لي شراً، أما الله فقصد به خيراً** " (تك 50: 20)، ففعل الخير إذن هو مرضاة لله وللناس الأسوياء أيضاً، لذا أوصى به الرسول بولس " **اتبعوا الخير بعضكم لبعض** " (1 تس 5: 15)، وهو في نظر السيد المسيح فوق كل قانون وشريعة، وقد عبر يسوع عن ذلك عندما أنحى باللائمة على الكتبة والفريسيين الذين وجهوا إليه انتقاداً لشفائه يد إنسان يابسة يوم السبت (متى 12: 12)، فوضع عمل الخير فوق الشريعة الطقسية، هذا ونقرأ في المزمور (14) كيف أن الله يعبر عن تألمه العميق لعدم وجود من يعمل صلاحاً (خيراً).

الحجاب

جاءني وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة عريضة، وأشرق وجهه الذي كان بالأمس متجهماً وبادرني بالحديث قائلاً، لقد ولى ذلك الصداع العنيف الذي شكوت منه إليك بالأمس، وها أنذا كما تراني في غاية الارتياح، و لم أعد أشكو شيئاً، وبعد صمت قصير استأنف الحديث ليقول : أن الفضل في ذلك يعود إل ى: وأخرج من جيبه قصاصة ورق متهرئة ملفوفة بقطعة قماش أكل عليها الدهر وشرب، وقال بتباه وكأنه يمتلك كنزاً عظيماً : هذا هو السبب، إنه الحجاب السحري الذي كتبه لي خصيصاً... الفلاني، أجل هذا الحجاب الذي شددته على رأسي، أزال عني الصداع اللعين، فما كان مني إلا أن هززت رأسي وقلت : مبروك.. ثم تناولت منه تلك القصاصة، ولما فتحتها لم أجد فيها سوى

كلمات يسيرة لا تعني شيئاً، وأحرف مبعثرة هنا وهناك، وكم حاولت أن أقف على معنى كلمة واحدة فلم أفلح، وهنا خطر في ذهني ما كانت تقصُّه علينا ونحن أطفالاً صغار، جدتنا العجوز (رحمها الله) من أنه إذا ما رأيت ساحراً يؤدي بعض ألاعيبه السحرية، أقرأوا المزمور الفلاني بالعكس فتنكشف ألاعيبه وتبان خدعة سحره. وأخيراً لم أتملك نفسي فقلت له، والأسى يحزّ نفسي، كيف تسوّغ لك نفسك أن تؤمن بمثل هذه الشعوذات والخرافات العجائزية التي تمقتها الديانة المسيحية، وإن جدتنا التي سبقت جيلنا لم تكن تؤمن بهذا، فكيف بك وأنت على مشارف الألف الثالث الميلادي، وبخاصة وأنك تحمل شهادة عالية تشير إلى مستوى ثقافتك، تؤمن بالتعويذة، ترى حتى متى نبقى أسرى خرافات وشعوذات ونحن نتبجح بكوننا نعيش في عصر بلغ ذروة المدنية، وعقد له تاج الثقافة، حتى متى لا نتحرر من مثل هذه الأوهام ؟

روت لي فتاة مؤمنة، أنها لسبب أو لآخر زارت بيتاً يُقال أن صاحبه يعالج أمراضاً معينة عن طريق التعاويذ والأحجبة، وقالت : لقد استغربت جداً إذ رأيت امرأتين أعرفهما حق المعرفة كانت إحداهما مستلقية على سرير وقد تغطى نصف جسمها بملاءة، ووقف صاحب الدار (المعالج)، إزاءها وهو يتمتم ببعض كلمات لم أفهمها، وأعتقد أن لا الملائكة ولا الشياطين يفهمونها، وقد لاحظت أمائر الخجل بادية عليهما لا سيما لما رأتاني، أن ما يثير الدهشة حقاً أن يلجأ بعض المؤمنين إلى مثل هذه الشعوذات، والأحجبة، فيكتبون آيات من الكتاب المقدس،

أو ما يشبه صلوات زاعمين أن هذه الصلاة وجدت في المكان الفلاني (وغالباً ما يكون المكان له قدسيته)، وغيره من الأمكنة الملفتة للنظر ويكتبون على الحجاب بعض العبارات لإضفاء صفة مقدسة عليها كعبارة (حجاب قبر المخلّص الإلهي)، ومن قبيل هذه الشعوذات تلك الوريقة التي شاعت في فترة مضت على أنها رسالة من السماء وقد فرض فيها على كل من يتسلمها أن ينسخ أربعين نسخة منها ويرسلها إلى أربعين شخصاً، ويقع تحت طائلة انتقام سماوي عنيف في حالة عدم امتثاله لأمر نشرها الوارد فيها، وبهذه الطريقة ولكي لا يصاب من يتسلمها بنكبة أو فاجعة إذا ما تلكأ عن نشرها، انتشرت تلك التميمة بسرعة هائلة لا بل غدت مدار حديث الناس غير أنها اختفت الآن فإذا قلنا أن هذا الاختفاء هو نتيجة تطور فكر الإنسان واستنارته بنور الثقافة، وخاصة بنور الإنجيل المقدس، فإن ما يجري الآن من الشعوذات المشار إليها أعلاه، يضعنا في حيرة من الأمر.

نعود الآن إلى مصدر فكرنا الروحي وعقائدنا التي نؤمن بأنها مستمدة منه وأعني به الكتاب المقدس، أقول، نعود إليه لنستطلع رأيه في مثل هذه الأوهام والشعوذات غير المبررة والبعيدة كل البعد عن روح الديانة السماوية وتعاليمها السمحاء، هذه الديانة التي ترفض كل ما هو خسيس ودنيء وتنبذ كل فكر أو عمل لا ينسجم ومباديء الدين القويم والمنطق السليم، ففي العهد القديم نجد تحذيراً من الألتجاء إلى مثل هذه الأعمال بأنها مشينة ونجسة، فقد جاء في سفر التثنية قوله تعالى

" **لا تتعلموا أن تمارسوا ما تمارسه الأمم من الرجاسات... لا يكن بينكم من يتعاطى العرافة ولا الشذوذ ولا الفال ولا السحر ولا مَن يرقى رقية ولا مَن يسأل جاناً أو تابعة، ولا مَن يستشير أرواح الموتى، هذه كلها رجس عند الرب إلهكم** " (تث 18: 15) ، فمن هنا ندرك كيف أن الله يعتبر هذه الشعوذات رجساً ودنساً يحاسب عليه المؤمن، و لم تغب هذه الأعمال الوضيعة عن بال مار بولس الرسول فبادر إلى توصية تلميذه طيمثاوس لكي يتجنبها واصفاً إياها بالخرافات التي لا طائل تحتها، فيقول : " **تجنب الخرافات الباطلة وحكايات العجائز وروّض نفسك بالتقوى** " (1 طيم 4: 7)، مستغرباً ممن ينصرفون عن سماع الحق إلى سماع الخرافات.

لِمَ الغضب ؟؟؟

لزعيم الهند الكبير غاندي قول مأثور هو **الغضب ريح تطفئ سراج العقل** ومع ذلك كثيرون يستشيطون غضباً لأتفه الأسباب، لمجرد كلمة يسمعونها لا تروق لهم، أو لعمل لا يتماشى مع رغباتهم، وفي معظم الأحوال ينتهي مثل هذا الموقف إلى نتائج وخيمة يندم عليها الفاعل (ولات ساعة مندم). ذلك أن الغضب أن هو إلا داء نفيساً وبيلاً، إن دل على شيء إنما يدل على مركب النقص لدى الغضوب المتسرع وضعف الشخصية وعدم الاستقرار النفسي، ونظراً لما يتركه الغضب من آثار سلبية في حياة الإنسان، فأن السيد المسيح حذر منه ومن نتائجه " **من غضب على أخيه باطلاً يستوجب الحكم** "، غير أن الرسول بولس في حديثه عن الغضب يبدو وكأنه يدعو إليه (أغضبوا) لكنه يستدرك

فيقول (ولا تخطئوا) ومن هنا يلاحظ أن هناك غضباً خاطئاً وهو الغضب غير المبرر، وآخر له ما يبرره، وهو يعني هنا الغضب المبرر وليس الغضب القاتل المهلك الذي أشار إليه السيد المسيح، أنه الغضب المشروع الذي تقف وراءه دوافع إنسانية مقدسة، كغضبه على انتهاك حرمة المقدسات كغضب السيد المسيح لدى طرده الصيارفة وباعة الحيوانات من الهيكل.

وهنا نتساءل لِمَ الغضب ؟؟؟ ولِم يُصحَب بالصخب والصراخ الذي لا مسوغ له ولا يعني شيئاً ؟؟؟ لا شك أن دوافع عديدة تقف وراء مثل هذا الموقف، وفي مقدمتها روح الكبرياء والعنجهية التي تخلق داخل الإنسان شعوراً بتميزه عن الآخرين، وكأن الله خلقه من طينة غير طينتهم، فهو يرى الناس أقل شأناً منه فيحاول فرض سيطرته عليهم والتحكم في إرادتهم وإن فشل، غضب، وفي نظره، فأن خير سبيل إلى بلوغ هذا المأرب هو إثارة موجة من الغضب مقروناً بالهياج والصخب اعتقاداً منه بأن الكلمة المرنة لا تفي بالغرض المطلوب ولا تخدم مصلحته أو تحقق له مآربه. لقد أشار أحيقار الحكيم إلى عدم جدوى مثل هذا الصراخ بقوله (لو أمكن بناء البيت بالصوت العالي، لبنى الحمار بيتين في يوم واحد) أن هذا التصرف الشاذ ما هو إلا نتيجة غياب روح التواضع.

وقد يأتي الغضب نتيجة لحالة نفسية يعاني منها الإنسان، كمن يرى الغير أكثر تفوقاً منه في مجال ما، في الوقت الذي يعتبرهم أقل شأناً وكرامة منه، فيثور غضبه لمجرد ذكرهم أمامه دون أن يدري أن تصرفاً مثل هذا هو انتقاص لكرامته هو، وعلامة واضحة على سلوك غير سليم،

وأنانية دأبها إفساد العلاقات الاجتماعية وحتى الأسرية حيث تنعدم روح الود والصداقة المخلصة. إذ تستحوذ عليه روح الغرور والترفع الذي يقود إلى التصادم مع أفراد الهيئات الاجتماعية، والأصدقاء والزملاء وحتى أفراد الأسرة الواحدة.

في نظر الكتاب المقدس، فأن الغضب غير مبرر هو وليد الجهل ودليل على قساوة القلب بل هو أثقل من الحجر والرمل (أمثال 27)، وينصح الجامعة بالهدوء والتروي وعدم الإسراع إلى الغضب (الجامعة 7)، ويوصي الرسول بولس بتحاشي الغضب، فلا يعطى مكاناً داخل الإنسان، بل يفسح له المجال ليمر مر الكرام كمرور الوحش الكاسر " **أعطوا مكاناً للغضب** " (رومية 12) أي دعوه يذهب وشأنه.

ولو أردنا الوقوف على سر الغضب لوجدنا أن خلو قلب الإنسان من المحبة هو الأكثر فاعلية في إثارته، لأن المحبة كقول الرسول بولس " **تحتمل كل شيء وتصبر عل كل شيء** " (1 كو 13)، أما القلب الخالي منها فلا يحتمل، ومن البديهي أن يخلو منها قلب المغتر بنفسه الذي لا يأخذ بفلسفة النقاش التي تؤمن بالأخذ والعطاء على حد سواء.

الـهـجـرة...

في المجتمعات، في المجالس، في الأجواء العائليـة، وفي كـل مناسبة يجتمع فيها اثنان أو ثلاثة (ولكن ليـس باسـم المسيح) يـدور الحديـث في هذه الأيام، عن الهجرة. فمن مستهجن لهذه الفكرة إذ يرى فيها وهنـا في المبدأ وعـدم التجـذر في الأرض، أو يراهـا نوعـاً مـن التهـرب مـن واقـع تفرضه ظروف معينة استثنائية. ومِنْ محبذٍ للفكرة ولكـن علـى مضـض في معظم الأحيان، وفي كل الأحـوال ومهمـا كـانت الأسـباب والظـروف، ومهما كان نوع الهجرة، فالهجرة بحد ذاتها أمر غير مستحسن، اللهم إلا إذا وجدت ظروف قاهرة يستحيل قهرها، وهذا نادراً ما يحصل. وأنـواع الهجرة التي تتجاذبها أطراف الأحاديث متنوعة. فمن هجرة الوطـن الأم، أو هجرة القرية الجميلة إلى المدينة الصاخبة، ومـا يعـرف بهجـرة العقـول

وما إلى ذلك، غير أن نوعاً آخر من الهجرة قلما يتبادر إلى الذهن بأنه فعلاً هجرة، وقلما يطرح على بساط البحث بهذا المفهوم، في حين أنه أكثر فاعلية في مصير الإنسان، ألا وهو ما نستطيع تسميته (الهجرة الروحية) أي هجرة الإنسان لله، أو هجرة المؤمن للمسيح أو هجرة الحياة الروحية، وهذا هو مدار حديثنا هنا، وهذا ولا ريب أخطر أنواع الهجرة، وأكثرها تأثيراً سلباً في حياة المؤمن، لكون هذه الهجرة تؤدي إلى فقدان حياته وهلاكها، فقد يشعر الإنسان وهو يهجر الله، أنه تحرر من قيود الشريعة والقيم، ولكن في الوقت نفسه يغيب عن باله بأنه فقد أمثل حرية ألا وهي حرية أبناء الله التي وفرها المسيح له بدمه الزكي الكريم.

ولعل في طليعة أسباب الهجرة، يأتي خلو المرء من مشاعر الحب والولاء تجاه من يهجره، سواء كان الوطن أم الله، وإن خلت القلوب من مثل هذه المشاعر، غدت كقصبة تهزها ريح المساوئ ذات اليمين وذات الشمال، فقد خلا قلب الابن الضال من مشاعر الحب تجاه أسرته فهجر داره، ولكن إلى أين ؟؟؟ إلى حيث لا يدري، حتى حط به المطاف في أرض غريبة يحصد أبناؤها من حيث لم يزرعوا، سقط فريسة سائغة لذئاب كأسرة تنهش أمثاله بأنيابها القاسية، وكاد الهلاك يدركه لو لم تلتهب فجأة في داخله مشاعر الندم، ويتولد فيه الحس الإنساني بأن الله قد خلقه إنساناً سوياً وليس وحشاً كاسراً أو خنزيراً كالتي كان يسرح بها، وهذه اليقظة مهدت أمامه طريق العودة إلى أبيه. وقد يأتي الشك سبباً آخر لهجر الإنسان لله، فيشك قبل كل سيء بوجوده تعالى، ثم

يشك بالعقائد التي يلهمها الله والتي يجب أن يعتنقها ويتمسك بها، ويشك كذلك في مفاعيل الممارسات الروحية التي تستوجبها حياة الإيمان كالصوم والصلاة وأعمال البر. وإذا ما تمكن الشك من الإنسان، أحال حياته سقماً وجحيماً، لأنهم في مثل هذه الحالة قد يشك حتى في ذاته فيفقد ثقته بنفسه، وأن الشك الذي يدفع المؤمن إلى هجر الله، هو نوع من أساليب محاربة إبليس للمؤمنين عن طريق غوايتهم وتصوير الخطأ لهم صواباً، فيسيرون في طريق منحرف ويميلون عن خط الحياة المستقيم.

قال الرسول بطرس " **تيقظوا وأسهروا، لأن عدوكم إبليس يجول كالأسد الزائر باحثاً عن فريسة له. فأثبتوا في إيمانكم وقاوموه** " (1 بط 8: 5).

لقد أبدى بولس الرسول أسفه الشديد لهجرة تلميذه ديماس إياه بعد أن كان في خدمته، ويقول في رسالته إلى تيمثاوس : أنه ذلك إذ أحب العالم الحاضر (2 تيم 4: 9) ومن البديهي أن يخلو قلب الإنسان من محبة الله عندما يحب هذا العالم لأن كل ما في العالم كونه " **شهوة الجسد وشهوة العين ومجد الحياة (الدنيا)** " (1 يو 2: 16).

لا اعتقد أن مؤمناً تأصل في قلبه الإيمان، يهجر الله، ومسيحياً له ذرة من الشعور بقيمة دم المسيح المراق من أجله، هجره المسيح الحي إلى الأبد، وإذ فعل البعض هذا انتهوا إلى مصير لم يرد في حساباتهم. فقد هجر الإسخريوطي فلم يحصل سوى على حبل قصير انتهت به حياته، وهجره سمعان الساحر فسمع عبارة الرسول بطرس " **اذهب إلى الجحيم**

أنـت ومـالك " (أع 8). وهجـرة يوليـانوس الجـاحد، فـاضطر أن يـأخذ حفنة من دمائه وهو في معركة خاضها ضد المسيح، ويرشـها في الفضـاء ويقول (لقد غلبتني يا ابن مريم)، وهجره أبـن قيقـي فغـاص في بحـر مـن الندم... وأخيراً نقول إذا ما راودت أحداً فكرة هجر الله، عليه أن يتأمل قبل أن يفعل، مـا تغنى بـه داود النبي " **أيـن أهـرب مـن وجهـك ؟ إن تسلقت السماء فأنت فيها، وإن نزلت إلى عالم الأمـوات فـأنت هنـاك، إن اتخذت أجنحة السحر وسكنت في أقاصي أليـم. فهنـاك أيضـاً يـدك تهديني ويمينك تمسكني** " (مز 139).

بيـن الطاعـة والتطـوع

الطاعـة انقيـاد طوعـي لأمـر مـا وتنفيـذه كواجـب وعـن طيـب خاطر. والتطوع قيـام بأعمـال حسـنة مقبولـة تـؤدي إلى فـائدة عامـة أو خاصة. وفي دراستنا وتأملنـا في رسـالة السـيد المسـيح، نلاحـظ اجتمـاع هذيـن العنصريـن في شـخصه الكريـم. فمـن كونـه (الابـن) أطـاع أبـاه السماوي في حمل الرسالة الخلاصية لبني البشر رغم من معرفته بنتيجتهـا. يقول الرسول بولس " **أطاع حتى الموت، موت الصليـب** " (في 2: 8). مقدماً ذاته مثلاً أعلى لجميع الأبناء في طاعة الآبـاء في كـل مجال وعمل صالح، " **أيها الأولاد أطيعوا والديكم** " (أف 6: 1).

المطيع والمتطوع عنصران محببان، لكـل منهمـا مـآت مشـكوره، الأول بتأدية واجباته كما يطلب منه، والثاني بتقديمه واجبات إضافية غير

ملزم بها، بدافع ذاتي داخلي بحت، دون أن يتلقى أي أمر أو طلب. ففي مجالات الحياة مثلاً، نرى شخصين يحملان رسالة واحدة، وكلاهما يؤديان هذه الرسالة على خير ما يرام وبمقتضى المطلوب، فالأول يؤديها كواجب أنيط به وعلى النطاق المحدد له، وعليه فأنه يشعر براحة الضمير وهو ينجز المهمة الموكلة إليه. أما الثاني فبالإضافة إلى ما حدد له، يكسر النطاق المحدد ليأتي إنجازاً إضافياً على واجباته، الأمر الذي يتيح له الفرصة لمآت حسنة لا تكون بالحسبان. وما كان ليلام لو أقتصر على أداء الواجب كما فعل الأول. بيد أن روح الطوعية العامة في داخله حفزته لتكثيف الجهود وتكبد المزيد من العناء والمشقة في سبيل إشباع طموحه الخير. غير أن إشباع مثل هذا الطموح يتم بصورة أكثر لمعاناً لدى الذين يتطوعون لأعمال إنسانية أو خدم كنسية ويلتزمون بها دون دوافع أو حوافز خارجية، وبخاصة عندما يزجون أنفسهم في مخاطر. أنها رسالة إنسانية يحملونها دون أن يحتملوها.

ولعل من أهم صور التطوع الإرادي تلك التي قدمها رب المجد لمجيئه إلى عالمنا بمحض إرادته " **أتيت إلى العالم...**" إذ حمل رسالة خلاص البشرية بملء حريته " **لي سلطان أن أضعها (نفسه) ولي سلطان أن آخذها** " (يو 10: 18)، وأحتمل في سبيل ذلك آلاماً قاسية مريرة. فهو الذي أجاب بلسان أشعيا النبي عن السؤال الذي طرحه الآب " **من أرسل ومن يذهب من أجلنا ؟**"، فيجيب أشعيا بوصفه رمزاً للمسيح " **فقلت، هأنذا أرسلني** " (أش 6: 8).

ومن الممكن للمرء أن يحول الطاعة إلى تطوع، كالعامل أو الموظف الذي يؤدي واجبه برغبة وجدية وإخلاص دون النظر إليه كواجب فرض عليه، كما فعل إبراهيم خليل الله الذي أطاع ربه في تقديم وحيده ذبيحة، طاعة نابعة من أعماق إيمانه بأن الله لن ينكث عهده معه بتكثير نسله كرمل البحر حتى ولئن قدم ابنه الوحيد ذبيحة له، وبذلك يكون إبراهيم قد أحال طاعته إلى تطوع واختيار، لكونه فعل ما فعل بحرية وعمق الرغبة.

وكنيستنا السريانية، عبر أجيالها وحتى اليوم لم تحرم من أبناء بررة من مختلف مراحل الأعمار والمواقع، ممن أكلتهم غيرة بيت الرب، فتطوعوا ويتطوعون لخدمتها ويكرسون لها الكثير من أوقاتهم وراحتهم وأموالهم. إشباعاً لرغبة نبيلة كامنة في داخلهم، في تقديم أفضل ما تسمح به ظروفهم من خدمات، وقوداً لنار غيرتهم المقدسة، ودفعاً لعجلة الكنيسة إلى أمام بهمة ونشاط. فشكراً لله في كل حين...

طاقة افتيخس

أن يُقبل المرء على عمل صالح بحماس واندفاع، فأمر مقبول ومحبذ، لا بل ومرضيٌّ، ولكن التراجع عن ذلك العمل في منتصف الطريق، هو فشل ذريع ومدعاة للخجل والانتقاد. فالأفضل، في مثل هذه الحالة، عدم البدء، وإلا فشد العزم والتصميم على بلوغ الغاية مهما قست المصاعب وتنوعت المعوقات. ولقد وضع السيد المسيح الإنسان الفاشل في إنجاز عمل ما يقوم به دون ترو أو دراسة كافية : موضع سخرية الناس. جاء ذلك في أثناء حديثه مع جمهور من الذين أرادوا التلمذة له دون أن يكونوا قد اتخذوا الاستعدادات اللازمة لهذه التلمذة، لكي تكون تلمذتهم صادقة ومؤسسة عل صخر، لفت نظرهم إلى أن التراجع عنها دليل الضعف وقصر الإدراك. قال " **من منكم أراد أن يبني**

برجا، لا يجلس أولاً ويحسب النفقة ليرى هل يقدر أن يكمله، لئلا يضع الأسس ولا يقدر أن يكمل، فيستهزئ به الناظرون إليه كلهم ويقولون : هذا الرجل بدأ يبني وما قدر أن يكمل " (لو 14: 31).

إن عدم الإكمال ينم عن جهل وضعف في العزيمة والشجاعة المطلوبة والثقة التامة. والإيمان المبدئي الذي لا يعرف فتوراً أو تراجعاً، وبخاصة إذا كان العمل في حقل الحياة الروحية. فأن ما يخجل حقاً هو البدء به ثم التراجع عنه في منتصف الطريق **" ما من أحد يضع يده على المحراث ويلتفت إلى الوراء يصلح لملكوت الله"** (لو 9: 62). ذلك لأن الحياة الروحية هي جهاد وكفاح مستمران في مختلف الجبهات، لا يعرفان الكل أو الملل، لا سيما وأن محاربتنا كمسيحيين، ليست مع لحم ودم، بل مع أصحاب الرئاسة والسلطان والسيادة على هذا العالم، عالم الظلام والأرواح الشريرة (أف 6: 12).

أن ما قادني إلى كتابة هذه الأسطر، هو قصة طريفة قرأتها في سفر أعمال الرسل شخص يدعى أفتيخس، حضر صلاة المؤمنين في إحدى الدور، واستمع إلى الرسول بولس وهو يتحدث عن رسالة الخلاص التي حملها المسيح إلى العالم، فلم يجلس مع الحضور، بل جلس في طاقة طاقة في أعلى الغرفة. وفيما كان بولس مسترسلاً في الحديث والكل يصغون إليه بشوق ولهفة، أخذ النعاس أفتيخس فنام. فسقط من تلك الطاقة وحمل ميتاً (أع 20: 9). وهكذا غدت تلك الطاقة طاقة الهلاك بالنسبة إليه، لأنه حضر ليستمع فنام في منتصف الحديث، وكانت النتيجة

مؤلمة.

وهنا نتساءل، ترى هل كان أفتيخس الشخص الوحيد الذي تصرف بمثل ذلك التصرف الشاذ، أم هناك أمثال له ممن يرتادون بيت الله للصلاة فينتبذون مكاناً قصياً فينعسون أو يلهون بالكلام مع هذا وذاك، متناسين أن الغاية من ارتياد الكنيسة هي الصلاة وسماع الكلمة المباركة، وهم في هذه الحالة يكونون قد وضعوا أنفسهم في طاقة أفتيخس.

فلكي لا نكون من الجالسين في (طاقة أفتيخس) علينا أن نتحلى باليقظة التامة والإصغاء لكلمة الله، عندما نكون في بيت الله للصلاة، لنجني الثمار المتوخاة من حضورنا إلى الكنيسة وإلا فلماذا الحضور ؟ لماذا نحضر الذبيحة الإلهية دون أن نصب إليها أنظارنا ونوجه إليها عيوننا وأفكارنا ؟

مَـن الأعـظـم ؟

ترى ما الذي هوى بالإنسان إلى الحضيض سوى حب العظمـة. هذا الداء الوبيل الذي رافق مسيرته منذ السقوط ومـازال. والمؤسـف أن يشعر من يحبها بنشوة وبخاصة إذا كـان ذا مـزاج ميّـال إلى الشر وإهانـة الغير والتسلط على الآخرين وإلحاق الأذى بهم دون مبرر، ومـن دون أن يخطر على باله بأنه سيودع هذه الحياة يوماً ما إن عاجلاً أو آجلاً. كنت يومـاً بمعية أستاذي الخـالد الأثـر المطران بولـس بهنـام في عربـة يجرهـا حصانان قبل أن يعرف " التكسي" وإذا بنا نلتقي بشخص في عربة أخرى مكشوفة وقد جلس بصورة توحي بأنه من طـلاب العظمـة. فـالتفت إليَّ أستاذي وقال أترى هذا المتبختر الذي يرى نفسه عظيمـاً. غـداً سيموت مثل....

لا شك أن من يسعى وراء العظمة يرى نفسه أفضل الناس ذكاءً ونسباً وحسباً ومثل هذه الأفكار لا تولد سوى الكراهية، ومن امتلأ قلبه بها، فارقته المحبة، إذ لا شركة بينها وبين الكراهية، ومن خلا قلبه من المحبة خلا من الله ذاته لكونه محبة، وفقد في الوقت نفسه إنسانيته التي تتمثل بالمحبة.

لقد كان السيد المسيح عظيماً حقاً، ولكن أين ظهرت هذه العظمة، نقول بغض النظر عما أعلنته السماء من عظمته يوم ميلاده، وبعيداً عن تغلبه على إبليس خلال تجاربه : فقد ظهرت عظمته في تواضعه وتنازله وخدمته للناس، ليس فقط بالنسبة إلى معجزاته التي لم يبخل بها على كل من قصده، لا بل شخوصه إلى المرضى والمقعدين ومنحهم نعمة الشفاء، ثم تجواله في المدن والقرى صانعاً الخير. ترى من كان عظيماً في مَثَل السامري الصالح ؟ هل الكاهن واللاوي غير الملتزمَين بما تملي عليهما وظائفهما، أم السامري الذي مدّ يد العون للجريح ؟ فالعظيم هو المعطي المسرور كالجندي المجهول الذي يعمل بصمت وجدية وإخلاص ويتكلّل عمله بنصر ونجاح دون أن يأخذه الغرور.

لم يكن رسل السيد المسيح في بدء أمرهم يختلفون كثيراً عن بني جلدتهم في فهمهم للمسيح بل كان رأيهم فيه أنه كسائر الدعاة لا بد أن يؤسس مُلكاً أرضياً ويجزي الأتباع بوظائف مرموقة ويكونون هم المفضلين لأعلى المراكز، لطالما هم الأقربون إليه. هذه الأفكار كشفها يسوع لدى سؤاله إياهم عما كانوا يتكلمون به في الطريق، فحديثهم

كان يدور حول من سيكون الأعظم وله المركز الأرفع، فأدركوا أن سؤاله يتضمن نوعاً من التوبيخ، فلم يجدوا جواباً. وهنا كشف لهم سر العظمة الذي يكمن في ما يكمن، في تواضع الإنسان، وفي ما يقدم من الخدمة للبشرية. وفي موقف آخر، يرفض السيد المسيح طلب اثنين من تلاميذه وهما ابنا زبدي اللذان أبدياً رغبتهما في الجلوس عن يمين المسيح وشماله في ملكه دون الآخرين، لأن هذا الطلب صادر عن تفكير بشري عقيم، وتصور يعوزه الكثير من الدقة لكونه مؤشراً إلى حب الذات، الأمر الذي يتعارض ومبادئ يسوع في ما يخص المساواة أولاً، والنظر إلى فوق ثانياً. وكان ردّه " **هذا ليس لي أن أعطيه** ". فعلاً فأ ن الله لا يعطي المناصب جزافاً بل يعلم الإنسان أن يحصل على المكانة التي يبتغيها بسعيه وعرق جبينه.

أن يطمح المرء أن يكون عظيماً، فهذا أمر لا غبار عليه إن لم يكن الغبار قد لوث فكره فأبعده عن المفهوم الجوهري للعظمة التي تعجز اعتبارات مادية خارجية عن منحها للإنسان، فليس من الصواب أن يوصف بالعظمة لمجرد أن يكون المرء ذا ثروة أو جاه أو منصب رفيع، إذ ربما يكون قد نال هذا على أكتاف الآخرين وليس على مجهوده الشخصي، اللهم إلا إذا اقترنت هذه الأمور بمعوقات حقيقية للعظمة، وبحسب ما يراها كتاب الله المقدس، لا كما يراها الناس بالذين اعتادوا مثلاً أن يطلقوا صفة " عظيم " على قائد أحرز نصراً في معركة ضروس خاضها، ويغضّون الطرف عن الدماء البريئة المسفوكة في تلك المعركة

وعن تداعياتها المؤلمة. غير أن هذه الكلمة جديرة بأن تطلق بالأحرى على من يتجنب خوض المعركة لطالما أن طريق السلام سالك، مدفوعاً بروح المحبة والإنسانية. قال الرب " **طوبى لصانعي السلام لأنهم أبناء الله يدعون** " (متى 5)، فالسعي وراء السلام بين فئتين أو شخصين أو بين أفراد أسرة واحدة، هو أهم المسالك القويمة التي يمكن أن تضفي صفة العظمة على سالكها.

أن تاريخ البشرية على مر حِقَبه، شاهد العديد من القادة الذين دوّخوا العالم بحروبهم وفتوحاتهم، بيد أنهم عجزوا عن تقديم ما يسعد البشرية، بعكس ما فعله نخبة من قادة الفكر الذين عكفوا في غرفهم وأرسوا حجر الأساس للحضارة البشرية والذين أعقبوهم فشيدوا صروحاً شامخاً للعلم وفتحوا آفاقاً جديدة للمعرفة، وإلى جانبهم أولئك الذين عملوا بجدية متناهية بشكل أو آخر من أجل رفاهية البشر وسعادتهم وتقدمهم نحو الأفضل. فهؤلاء من وجهة نظر الإنجيل المقدس هم عظماء " **من عمل وعلم فهذا يدعى عظيماً في ملكوت السموات** " (متى 15: 19)، فالعظمة والحالة هذه هي ابنة جهود جبارة تبذل من أجل منفعة عامة، والإنسان العظيم هو من يسخر كل قواه ومواهبه وطاقاته لمثل هذه المنفعة. هكذا فعل رجال الله القديسون الذين سعوا إلى ملكوت الله، ولم يفوزوا بها إلا بعد دفع ثمن باهض وبعد بذل جهد جهيد وبذل الذات وخدمة الناس، أضف إلى هذا سلوكهم القويم وتقديم ذواتهم ذبيحة حية مرضية عند الله.

فالسيد المسيح، لـه المجد، وهـو نبراسـنا في السـلوك وقدوتنـا في التعامل مع مرتكزات العظمة، يضـع الخدمـة في مقدمـة هـذه المرتكـزات يستند إليها المرء ثم يتوقل السلم إلى فوق حتى يبلغ الذروة " **من أراد أن يكون فيكـم عظيمـاً فليكـن لكـم خادمـاً** " (متى 20: 26). فالخدمـة النصوح المخلصة رمز للعظمة الحقيقية، شريطة أن تكون مجردة من حـب الذات والمطامع والأهداف الذاتية، ولن تكون كذلـك مـا لم تكـن نابعـة عن رغبة قوية والحب الباذل الهادف إلى بذل الـذات مـن أجـل الآخريـن كحب الله للبشر " **هكذا أحب الله العالم حتى بذل ابنـه الوحيـد لكـي لا يهلك كل من يؤمن به بل تكـون لـه الحيـاة الأبديـة** " (يـو 3: 16). فلا جدوى إذن من خدمة لا تأتي بدافع المحبة، بل بدوافع ظاهرها عكس باطنها. فالخدمة التي أرادها يسوع، هي الشـبيهة بخدمتـه للبشـرية، لكـي تكون مؤشراً حقيقياً للعظمة المقرونة بالتواضع.

مشكلة وحل

موضوعنا هذا لا يتطرق إلى مشكلة معينة وإيجاد حل لها، فهو عام وشامل للمشكلة باختلاف أنواعها، يترصد مصادرها ودوافعها ويحاول إيجاد حل وعلاج لكل نوع بمقتضى ما يستوجبه الحل السليم. إلا أن حجر العثرة في حل معظم المشاكل، وبخاصة العويصة والمستعصية منها، هو بالدرجة الأولى العناد الذي يتشبث به طرف من الأطراف، فتتعقد المشكلة بحيث لا يعود من السهولة بمكان إيجاد حل لها. لا سيما عندما يصر أكثر من طرف في مشكلة واحدة على رأيه مراهناً على صوابه، فتتشعب المشكلة لتصير مشاكل، كما كان الأمر بالنسبة إلى مشكلة الكنيسة المسيحية الأولى، حيث مزقت هذه الكنيسة إلى طوائف وكنائس شتى، واستمرت الكنيسة تعاني منها قروناً عديدة ولا تزال،

دون أن تجد لها حلاً مناسباً مرضياً للجميع، سوى في الآونة الأخيرة حيث استنارت الأفكار بعض الشيء، واتجهت إلى ضرورة عودة الكنيسة إلى مجدها الأول، عن طريق الحركة المسكونية، ومازال هذا المشوار طويلاً، لكن لنكن متفائلين فالغيث أوله قطر ثم ينهمر.

فالمشكلة قائمة في كل بلد، في كل أسرة، وفي كل مجتمع، بين أخوة وأخوات، بين أبناء وآباء، بين جار وجار، بين دولة ودولة، منها مشاكل بسيطة ممكن وئدها باسرع وقت، وأخرى تحتاج إلى بعض الوقت، وغيرها تمتد أياماً وشهوراً بل سنين. وحدوث المشاكل يكاد يكون أمراً طبيعياً. بين الناس لطالما دخلت الخطيئة إلى العالم، فولدت أفكاراً في الإنسان تدفعه إلى إثارة مشكلة ما، كالأطماع الدنيوية ومحبة الذات، والسعي وراء مناصب عالية أو لمجرد هواية. ومشاكل أخرى تثار نتيجة لعدم فهم الكلام على الصورة المقصودة وتأويله تأويلاً مغايراً لمقاصده، تكون له أهداف مستقبلية ينتفع منها من يهوى المشاكل متعمداً، أو أن المشكلة تقوم على استنتاجات خاطئة، أو بسبب مطالبة بالحق كأن يشعر صاحب الحق أنه مظلوم فيطالب بحقه. وقس على هذا أموراً أخرى كثيرة. فبعض من هذه المشاكل يمكن حلها بسهولة عن طريق حوار بناء وهو ولا شك سيد الوفاق والاتفاق وحل المعضلات. ومثل هذا الحوار نشاهده اليوم بين الدول التي أنهكت المشاكل كاهلها، توصلاً إلى الحل المرضي للطرفين، أو بين فئتين أو أكثر من أبناء وطن واحد، اختلفوا في الرأي فظهر عامل مشترك يُيَسّر، خلق مشكلة،

وأحياناً تستعصي، أو كما يقال يصل النقاش فيها إلى طريق مسدود، فلا حل لها إلا ببذل جهد جهيد ومساومات لا سيما إذا اتخذ أحد الأطراف أو أكثر موقف التعند، فقد تؤدي المشاكل المستعصية إلى حدوث مالا يحمد عقباه كالفتن الداخلية أو الحروب أو الانشقاقات.

والحق يُقال أن موقف التعند ليس سوى نوع من الهروب من وجه الحقيقة، وما يؤسف أن يشيع الموقف في معظم مجتمعات العالم الذي نراه اليوم يغلي ويثور في كل مكان بسبب المشاكل المعقدة التي يخلقها التصلب في الرأي وعدم قبول الآخر، رغم المعرفة الأكيدة بأن الموقف ليس صائباً، لكن هو التجاهل عن الحقيقة الذي تفرزه المطامع البشرية حتى ولئن جاءت على حساب العزة والكرامة. وهذا ما جعل المادة سيداً مطلقاً لدى الكم الهائل من الناس، فالمرء الذي يأبى الاستسلام للحقيقة، يغيب عن باله أن الاستسلام للحقيقة المقترن مع النية الحسنة والقناعة لهو شرف عظيم له، وربح أكثر قيمة من أغلى اللالئ والأحجار الكريمة. لذا فغالباً ما يضع العناد صاحبه في مأزق ومواقف حرجة، ويذهب به إلى نتيجة غير مرضية بل قد تكون مأساوية.

إليكم قصة كنا نقرأها ونحن أطفال في الصفوف الأولى من المرحلة الابتدائية بعنوان : **الخروف العنيد** مفادها، أن خروفاً اعتاد على الشرود عن قطيعه، وكلما أعاده الراعي عاود الشرود ثانية، وكلما غفل عنه الراعي بعض الحين شرد، وهكذا دواليك، حتى جاء الذئب يوماً وقد انفرد عن قطيعه بعيداً عن راعيه، فافترسه. أن هذه القصة رغم قصرها،

فهي عبرة لمن يستبد برأيه وينفرد به ويصر عليه رغم خطئه. أن ظاهرة التعند نجدها لدى الأطفال غير الناضجين فكرياً وعقلياً، لذا لا لوم عليهم ولا عقاب يطالهم نظراً لبراءتهم، لكن اللوم كله على البالغ الذي ليست له براءة الأطفال، فالطفل لا يعي أنه يخالف الجميع بعناده، بعكس البالغ. فمثل هذا الموقف مخالف تماماً لكل المعايير العقلية والإنسانية والحياة الاجتماعية والدينية المستقيمة. أضف إلى هذا أن المبتلى بخلة العناد يعطي انطباعاً بأنه شخص أقرب إلى السذاجة مهما بلغ من الثقافة، فهو لا يدرك أو لا يريد أن يدرك أن الاستمرار في العناد يعكس ضعف شخصيته. فلطالما أن المرء لا ينظر إلى الأمور سوى بمنظاره الخاص (وفي معظم الأحيان يكون معطوباً)، فهو لا يرى الحقيقة ولاحتى ظل الحقيقة، فأنه من طراز الناس الذين لا يؤمنون إلا بـ " الأنا ".

نفهم من كتابنا المقدس، أن المعاند لا يبغي حلاً لأية مشكلة لكونه لا يسير في نور الله، بل في نور ذاته بعيداً عن الحقيقة، وأن استمراره على هذا الموقف السلبي ووضع ثقته بنفسه دون الله يدفعه إلى أن يتبجح بمآتيه ومنجزاته ولسان حاله يقول بدافع الغرور وحب الذات، أن هذا إلا دليلاً على عظمتي وقدرتي، رغم أن الكتاب المقدس يعتبر التعنت خطئية لا تقل فاعليتها عن العرافة وعبادة الأوثان والأثم (1 صم 15: 23)، والرسول بولس يؤيد هذا فيضع عبادة الأوثان في مصاف الخطايا الكبرى التي تحرم فاعلها من الدخول إلى ملكوت الله (1 كو 6: 10).

لقد رفض الله شاول الملك لتشبثه برأيه حتى أخذ منه الملك وأعطاه لداود النبي وانتهى شاول إلى مصير مأساوي حيث دخله روح نجس شرير، انتهى به إلى الجنون. أليس هذا درساً بليغاً للذين لا يحترمون رأي الآخر متشبثين برأيهم رغم هاجسهم بأنه غير صائب. وهكذا فعل الله بأبناء العهد القديم الذين أصموا آذانهم عن سماع صوته وطاعته " **إذ سلكوا بمقتضى مشورات قلوبهم الشريرة وعنادهم** " (أرميا 7: 24)، فرفضوا كل ما يقرب إلى معرفة الحقيقة، وحل المشاكل العالقة مصرين على عنادهم حتى قال فيهم الرب " **طول النهار بسطت يدي على شعب معاند ومقاوم** " (رو 10: 21).

والخلاصة، أن الحل الأمثل لأية مشكلة هو الإصغاء إلى كلمة الله والعمل بها ثم الحوار البناء المقترن بالنية الحسنة والثقة المتبادلة، والاستعداد التام لقبول الرأي الآخر.

عَ المكشوف؟

هذا الموضوع يتجه بنا فوراً إلى قول السيد المسيح " **لأنه ليس خفي لا يظهر ولا مكتوم لا يعلم ويعلن** ". والخفي هنا ما يكتمه المرء عن الآخرين تعمداً، وأني أرى في هذه الكلمات تحذيراً من سلوك الطرق الملتوية في التعامل المتبادل، وصولاً إلى مآرب خاصة مصلحية، فنظهر مثلاً ذواتنا بالصورة التي تروق للآخرين ويرتاحون إليها، في حين أن الحقيقة ليست كذلك، وإذا ما شعرنا بأن ثقة تولدت لدى سامعنا، وبعبارة أدق، أنه انخدع بنا، اعتبرنا أنفسنا كمن فزنا بمغنم دون أن نفكر بأن ظرفاً ما سيكشف ما أخفيناه مسبباً لنا موقفاً محرجاً ومتاعب جمة، لأن التلاعب بالكلام لا يستمر ناجحاً إلى ما لا نهاية، إذ لا بد أن ينجلي لدى بزوغ نور الحقيقة الذي يهتك سجف الظلام المضلل.

وهنا تبرز أمامنا أسئلة عدة : ترى هل أن الحديث (عَ المكشوف) يبعد أو يقرب ؟ يحل المشاكل أم يعقدها ؟ يؤدي إلى ربح أم إلى خسارة ؟ وما سوى ذلك، نقول : كثيرون لا يطيب لهم النقاش أو الحوار القائم على أساس (عَ المكشوف)، لذا فأنهم يتجنبونه أو يحاولون خلط الأوراق بأساليب سفسطية ذكية فيضعون غطاء ولئن شفافاً على ما يدور من حديث، اعتقاداً منهم بأن المكشوف لن يوصلهم إلى مآربهم ولا يعود عليهم بالفائدة المتوخاة، بل قد يكشف سياستهم الخرقاء ويؤدي إلى خسارة جسيمة، كما أنهم يرون في أسلوب (عَ المكشوف) ما يبعدهم عن تحقيق مآربهم وأمنياتهم الملحية الخاصة، في حين يراه غيرهم أسلوباً قويماً وصحيحاً جديراً بالسلوك لأنه قبل كل شيء دليل على الشجاعة الأدبية وعدم الخوف والتمسك بالحقيقة وهو ولئن (ينرفز) البعض ويبعد أحياناً بعض الناس عن بعضهم، إلا أ نه يقرب إلى الله الذي يحب قول الحق، وينبذ أسلوب التحايل والخداع، كما أن الحديث (عَ المكشوف) يبث الطمأنينة بين الناس كما يرون فيه ليس حلاً للمشاكل فحسب، بل تجنباً للمشاكل أصلاً لكونه لا يفسح المجال لحدوثها، ذلك أن كل شيء يكون واضحاً ومكشوف أمام الجميع، والمشاكل لا تقوم إلا على أساس غير المكشوف والمبطن.

أن الشعوب كافة تتطلع إلى حياة هادئة يسوها السلام والاستقرار بعيدة عن المشاكل، الأمر الذي جعل الناس يقرأون بشغف ويسمعون بتلهف كل ما يُكتب ويُقال من طروحات وتصريحات منمقة

جذابة يستشف منها المحبة وإنعاش روح التآخي بين مختلف الفئات والشرائح، على تباين مذاهبهم الفكرية والقومية والدينية لأن أمراً مثل هذا بات مشوقاً ومحبباً لدى جميع ذوي الإرادة الصالحة الذين يعيشون على وجه البسيطة، لا سيما وأن العصر الذي يعيشونه قد أفسدته المادة والمطامع الدنيئة والأفكار الصبيانية اللاأخلاقية، التي تبنى على التمييز والتفريق بين أبناء أمة واحدة، الذين يودون العيش بإلفة ووفاق فيما بينهم، إيماناً منهم بأنهم أحوج ما يكونون اليوم إلى تنزيه الذات من كل ما يفرق ويبعد مَن جمعهم الله على صورة واحدة ولئن اختلفت في اللون والهيئة، لكي يستطعوا أن يعيشوا كما يرغبون، لا سيما وأن العديد من الشعوب يعيشون اليوم عكس ما يريدون، ليس بإرادتهم بل بحكم المطرقة القاسية التي تنهال على رؤوسهم ظلماً وعدواناً لمجرد أنهم ينادون بحقوقهم التي منحهم إياها الله كالحرية مثلاً ليكونوا أسياد أنفسهم في قراراتهم أو في التصرف بما حباهم الله من خيرات. ولكن سرعان ما يخيب أملهم في الطروحات التي قرأوها حيث يظهر زيفها لدى التطبيق العملي، فيدركون آنذاك أنها لم تكن سوى تغطية لأهداف غير معلنة بعكس ما استشفوا منها. تعقد مؤتمرات واجتماعات وترفع شعارات وتتخذ قرارات وتوصيات يستبشر منها الناس خيراً، وإذا بها ليست سوى حبر على ورق لأنها لم تقرن بالنية الحسنة ولم تقم على أساس المصارحة، لأن كلاً كان يبكي على ليلاه ويحاول أن يقرب النار إلى رغيفه. مشاكل عائلية كثيرة تحدث، سببها إخفاء الحقيقة فهذه فتاة

تخطب ليس على أساس المصارحة، فلا تفشل الخطوبة فحسب، بل تخلف وراءها مشاكل مستعصية ذات نتائج لا يحسد عليها، حيث تلحق بالطرفين أضراراً فادحة مادياً ونفسياً واجتماعياً.

لا أحد ينكر أن الله خلق الإنسان حراً، اللهم سوى الذين ينكرون الله بذاته، ولا أقصد بهم فقط أولئك الذين لم يعرفوا الله أبداً بل وحتى الذين عرفوه وعرفوا ابنه يسوع المسيح لكنهم يتنكرون لتعاليمه، فهؤلاء هم من تلك الفئات من الناس الذين لا يروق لهم الحديث (عَ المكشوف) لكونهم اعتادوا على الكلام المبطن، فألسنتهم تصرح بحق كل إنسان في الحياة الكريمة، غير أن قلوبهم مفعمة من كل حقد وخبث ومكر، وقد أبعدوا عن أذهانهم قول السيد المسيح "**ليس خفي...**"، فهؤلاء أشبه بمن يقتل عن قصد وترصد ثم يتفجع أمام الناس على (المرحوم) وقد يلعن الفاعل أيضاً.

لقد كان السيد المسيح مثلاً رائعاً في الحديث (عَ المكشوف) مع زعماء اليهود، وهو يعرف أن هذا يغيضهم، فلم يتنكر للحق لكي يرضي البشر، وهو الذي جاء ليقود الناس إلى طريق الحق، لذا لم يخش هياج اليهود عليه وهو يوبخهم وجهاً لوجه على أعمالهم التي وصفها (بالمظلمة) لكونها كانت متسترة بغطاء، ظاهري ولم يهمه أن ينقسم اليهود بسببه، ولئن عرف بأنه صانع السلام ورئيسه والداعية إليه، فهل كان جديراً به ألا ينادي بسماوية رسالته علناً لكي يظلوا متحدين في أخطائهم وعماهم الروحي ؟ أم كان لا بد له من المناداة بالحقيقة على

رؤوس الأشهاد، ولهم أن ينقسموا على أنفسهم ما شاءوا، فهو لم يجامل على حساب بشراه التي جاء بها، أفلا يجدر بنا ونحن تلاميذه أن نقتدي به فلا نجامل على حساب مبادئنا وإيماننا ؟

كان الفريسيون يتحاشون الصراحة لئلا تكشف حقيقتهم وما في داخلهم فوصفهم السيد المسيح بالمرائين، والمرائي هو من أخفى ما هو سيء وأظهر عكسه، وهذا فعل مرفوض جملة وتفصيلاً وكل تزييف للحقائق مستقبح لدى الله والناس، وأن ما يدنيهم كونهم لا يجهلون ما يفعلون، بل يعرفونه حق المعرفة. ومن هنا فدينونتهم أعظم، وهذا تحذير من التظاهر المزيف أمام الناس. لقد قدم السيد المسيح نفسه قدوة لتلاميذه في التحدث بصراحة متناهية لا سيما وأنهم كانوا عتيدين أن يحملوا بشارته إلى العالم أجمع، لكي يكتسبوا الشجاعة الأدبية الكافية للمناداة على المكشوف عن معلمهم وعن رسالته الخلاصية، فقدموه للناس على حقيقته، رجلاً مات مصلوباً وهو غير مدان، ولم يقدموه بطلاً جباراً كما كان الناس يريدونه أن يكون، وهذا كان سر نجاحهم في أداء مهمتهم إلى جانب فعل الروح القدس الساكن فيهم.

رضى الله أم رضى الإنسان ؟

يحاول البعض إرضاء الناس في أعمالهم وأحاديثهم، وهم في الوقت نفسه يؤمنون بأنهم يرضون الله وبنفس المسار، غير أن إرضاء الجميع في آن واحد أمر مشكوك فيه " **ويل لكم إذا قال فيكم جميع الناس حسناً** " (لو 6: 26). ومن الصعوبة بمكان تحقيقه لا بل من المستحيل في معظم الأحيان، ومن النافل ذكر ما يسري في المجتمعات من أمثال وأقوال تعكس استحالة إرضاء الجميع لا سيما إذا كانوا على طرفي نقيض، والكتاب المقدس ليس غفلاً عن الإشارة إلى ذلك، فقد عبر السيد المسيح له المجد عن وجهة النظر هذه بقوله " **لا أحد يقدر أن يخدم سيدين إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر** " (متى 6: 24)، وهذا بدوره يعبر عن عجز المرء عن إرضاء الطرفين المناهضين خاصة على حد سواء،

إنطلاقاً من أن للناس وجهات نظر مختلفة كلياً في معظم الشؤون الحياتية، هناك بديهيات تشير إلى مهم واهم، كقولنا : المهم أن يرضي التلميذ معلمه، والأهم أن يرضي المعلم من هو بحاجة إلى إرضائه، وأعني به الله رب الكل، علماً بأن النزعة الإنسانية تقول بإرضاء جانب الحق، ولما كان الله هو الحق بالذات " **أنا هو الطريق والحق** " (يو 14: 6)، فإرضاءوه إذن هو الأهم بل ومحتم على كل إنسان، وإرادته هي التي يجب أن تسود ويستسلم لها، اقتداء بالابن يسوع المسيح (انظر متى 26: 39)، والإصغاء إلى ندائها لطالما أن الإنسان ينشد الخير لنفسه، وأن الإرادة الإلهية لا تجنح إلا إلى الخير في حين أن الإرادة البشرية قد تقع في مهب الرياح فتتقاذفها ذات اليمين وذات اليسار بين الخير والشر، ومن هنا غدا لزاماً الاستسلام للإرادة الإلهية في كل الشؤون، ومن فعل فأن فعله هذا يشكل مؤشراً جيداً لفهمه وتقييمه للإرادة الربانية " **لتكن مشيئتك** "، جاء هذا ضمن التعاليم السماوية القيمة التي ضمنها الرب يسوع الصلاة النموذجية المثالية التي سلمنا إياها وأوصانا أن نتلوها دوماً في سائر مرافق حياتنا وفي كل مناسبة وبخاصة خلال عبادتنا لله، شريطة أن نكون صادقين في تسليمنا المشيئة له تعالى، وقد لا يأتي هذا سوى عبر إيمان ثابت وطاعة تامة لله، فمن غير المستطاع إرضاء الله بعيداً عن الإيمان، أن هذه الصلاة " الربانية " هي ولا شك دستور مسيحيتنا المصغر، وهي بمثابة ملح لكل غذاء روحي نقدمه للنفس فتكسبها مذاقاً طيباً.

الرسول بولس يدلي بدلوه في هذا الشأن فيقول " **أن كنت أرضي الناس فأنا لست عبداً للمسيح** " (غل 1: 10)، غير أن هذا لا يعني إطلاقاً قطع علاقة المرء مع أخيه الإنسان، بل إعطاء الأولوية والأفضلية لله، فإرضاء الناس دون الله يخرجهم من حظيرة أبناء الله، ولا ننسى وصية الله بإكرام الوالدين أي إرضائهم كخطوة لنيل رضى الله وبركاته، لا سيما في فترة شيخوختهم، قال الرب يسوع " **إن كان أحد يأتي إليَّ ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده وأخوته وأخواته حتى نفسه، فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً** " (لو 14: 26)، وكلمة البغض هنا لا تعني كراهية، بل هي إشارة إلى أفضلية الله على الإنسان مهما كانت صلة القربى، إلى جانب هذا فأن الله سبحانه أوصى بمحبة القريب والمحبة تقضي الرضا، وبخاصة أن العلاقة وثقى ما بين الله والإنسان مذ أنعم الله بنسمة من ذاته لهذا المخلوق المدلل، ومن فرط محبته إياه شاء أن يدعى ابناً له.

جاء في سرد نسب آدم " **انوش بن شيت بن آدم ابن الله** " (لو 3: 38)، ورغم انحراف الإنسان لم يشأ الله قطع جسور محبته وعلاقته معه، بل المحبة نمت حتى بلغت الذروة باعتلاء ابنه يسوع خشبة الصليب " **لا أعود اسميكم عبيداً لأن العبد لا يعلم ما يعمل سيده، لكني قد سميتكم أحباء** " (يو 15: 15)، ورغم كل هذا يستسلم الإنسان لإرادة البشر دون إرادة الله.

نعود إلى قول الرسول بولس أعلاه، لنربطه بآية سابقة " **حتى لو بشرناكم نحن أو بشركم ملاك من السماء بغير الإنجيل الذي بشرناكم به فليكن ملعوناً** " (غل 1: 8)، فنستنتج من هذا ما يرمي إليه ألا وهو إبقاء وجه الكنيسة التي أسسها السيد المسيح مشرقاً لامعاً بعيداً عن أي نوع من التشويه الذي قد يمسها في المستقبل بسبب قوم مدفوعين من أناس غايتهم تضليل أبنائها في كل ما يأتون ويقولون ويفعلون، إرضاء لا للمسيح بل للذين جندوهم من البشر، بلوغاً إلى غاياتهم المتباينة والمتعددة، ولئن توقع ضرراً جسيماً في جسم وحياة الكنيسة وأبنائها، وهو في الوقت نفسه تحذير من إدخال تعاليم جديدة غير رسولية، أما الله جل وعلا فهو منزه عن كل غاية لا تخدم الإنسان، وغايته الأولى والأخيرة هي النهوض به وسعادته ورفع فكره إلى فوق تجنباً السقوط في مهاو لا قرار لها.

وما يؤسف له حقاً، ازدياد بعض التصرفات هي إلى إرضاء الناس أقرب، من ذلك، المجاملة المفرطة التي قد لا يوليها البعض اهتماماً لائقاً معتبرين إياها من مقتضيات الحالة الاجتماعية التي يعيشونها لكنها والحق يُقال تشكل نقطة حساسة بالغة الأهمية في حياتنا الإيمانية وبخاصة المجاملة القائمة على حساب الإيمان والعقيدة، فإرضاء للناس وكسباً لمودتهم أو الإشادة بهم، يعترف البعض ولو ضمنا بعقيدة تتنافى وعقائده الإيمانية، ويكيل الإشادة بتلك العقيدة حتى ليخيل إلى البعض بأنه من صميم أبناء تلك العقيدة، ويغيب عن باله بأن فعله هذا لا يرضي الله.

ومن أنواع المجاملة غير المرغوب فيها، تلك التي يتعدى شخص ما الشريعة الإلهية التي تنهي عن فعل منكر إرضاء لأصدقاء السوء كالسكر مثلاً، فهو أمر منهي عنه في الشريعة المسيحية، إلا أن البعض يمارسونه رغم معرفتهم به، إرضاء لجلساء السوء الذين ينهي الوحي معاشرتهم ومجالستهم " **طوبى للرجل الذي لم يسلك في مشورة الأشرار وفي طريق الخطاة لم يقف وفي مجلس المستهزئين لم يجلس** " (مز 1: 1)، أقول هذا لا استصغاراً بعقيدة تختلف عن عقيدتي أو إيمان يغاير إيماني فاحترام مشاعر الآخرين، وعقائدهم واجب لازب وبخاصة في مجتمع التعايش المشترك.

أن الإفراط في المجاملة قد يعتبره بعضهم من الناحية الاجتماعية مجرد خطأ شائع، أما من الناحية العقائدية فلا يصح إطلاقاً، والأفضل التصريح وبطريقة ذكية غير جارحة أو مثيرة للمشاعر بل بروح المحبة لكونها مع الاحترام المتبادل، مطلوبة في كل الظروف والأحوال والالتزام بالمبدأ والعقيدة أمر هام ودليل على رفعة الخلق والإدراك الناضج، والتصريح بالحقيقة مطلوب ولئن يثير أحياناً بعض الغضب لدى الناس، لكن هذا الغضب لا يقاس بغضب الله. إلى جانب هذا يقف التملق الذي عن طريقه يحاول البعض كسب الآخرين تحقيقاً لهدف ما يتعذر بلوغه إلا عبر اسلوب التملق كمن يحاول أن يرتفع إلى منصب ما، والكتاب المقدس يحذر من سلوك سبيل التملق وصولاً إلى إرضاء الناس من أجل مكاسب دنيوية، علماً بأن هذا السبيل لا يخلو من غش في معظم الأحيان

" **يا ابني أن تملقك الخطاة فلا ترض** " (أم 1: 10)، فهذ مشورة لتجنب إرضاء الناس والجنوح إلى إرضاء الله، وتقييماً لرضى الله يلتمس صاحب المزامير من الله أن يهديه إلى الطريق الأفضل من أجل رضاه " **علمني أن أعمل رضاك** " (مز 143: 10)، ذلك لأن كلمة الله لا تسقط وهو الصادق في كل شيء.

أن إرضاء البشر دون ا لله، يشبه إلى حد كبير اهتمام الإنسان بالجسد أكثر من الروح، دون الالتفات إلى كون الجسد مائتاً " **لأنه إن عشتم حسب الجسد فستموتون** " (رو 8: 13)، فالاهتمام المفرط بالجسد يخالف تعاليم الإنجيل التي تعطي الأولوية للاهتمام بما هو للروح لكونه حياة وسلام (رو 8: 6)، وقد يتساءل أحدهم كيف أستطيع أن أرضي الله وأنا أعيش في عالم مادي فاسد ؟ والجواب أن كتاب الله يريك السبيل الأفضل الناجع لتحقيق ذلك كالالتزام بالمحبة بلا رياء، والخدمة المخلصة والعمل البناء الآيل إلى فائدة البشر، والممارسات الروحية وبخاصة الصلاة شريطة أن لا تكون فريسية صادرة عن الشفاه دون القلب، وسواها من الأعمال الإ نسانية المرضية لله والبشر.

الاستغلال بين القبيح والمليح

المبدأ الأساس الذي وضعه الله للإنسان بكونه مخلوقاً يتمتع بكامل الحرية الملتزمة التي تعبر عن شخصية صاحبها وتوحي إليه بضرورة صيانة كرامة الغير، هو : التفاعل التام مع المجتمع الذي يعيشه، فيرى الآخرين كما يرى نفسه ويريد لهم ما يريده لنفسه " **كل ما تريدون أن يفعل الناس بكم أفعلوا هكذا أنتم أيضاً بهم** " (متى 7: 12). فقد وهب الله للإنسان ملء الحرية ليفعل ما يشاء باستثناء ما يتحدى إرادته تعالى أو يحاربها أو يناهض النهج القويم الذي أعده والمتضمن كل ما هو لصالح الإنسان ونفعه. وفي إطار هذه الصورة فقط أتيح للفرد في المجتمع أي مجتمع كان، أن يتمتع بالحرية ويشعر بالطمأنينة والسلام في الوقت نفسه فتتيسر له حياة آمنة سعيدة وكريمة تليق بالمخلوق على صورة الله.

وما وَضعْ الله الإنسان في " الجنة " سوى تعبير عـن حـب الله لـه، وأنـه تعالى لا يريد لـه سـوى الفرح الدائـم " **افرحـوا في الـرب كـل حـين** " (فيليي 4: 4). فمضى الإنسان سالكاً هذا النمط الجميل من الحياة إلى أن دبّ فيه الفساد واستشرى الظلم إلى حد سفك الدمـاء لغايـات خسيسـة وأغراض رخيصة. وكبت الحرية والفكـر. وقـد عـبّر أحـد الشـعراء عـن الظلم المستحوذ على فكر الإنسان :

والظلم من شيم النفوس فأن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

فأخذ الناس يصرخـون مـن كـثرة الظلـم (أي 35: 9) ويقولـون بلسان صاحب الرؤيا " **حتى متى أيها السيد القدوس والحـق لا تقضـي ولا تنتقم لدمائنا من الساكنين على الأرض** " (6: 10). وقد حـذر الله الإنسان من أن يدع الظلم يسكن خيمته (أرضه) (أي 11: 14). ولكـي لا يستقر الظلم داخل الإنسان فيستبد برأيه ويفـرض إرادتـه، حثـه تعـالى ليبتعد عـن الإثـم باعتبـاره المنبع العكـر الـذي يغـذي الظلـم. ومـا كـان الإنسان ليهبط إلى هذه الدركة مـن الحضيـض لـو أصغـى إلى كلمـة الله كلمة الحياة.

وبابتعاد الإ نسان عن الله واستشراء الظلـم، تفتقـت لديـه فكـرة الاستغلال اللاإنساني البغيض، فغدا لا يفكر إلا بما قد يوحي إليه بطريقـة ما باستغلال الآخرين ممن هم أضعف منه، ولأجل منافع شـخصية، علـى حساب الغير الذين يستغلون مناصبهم العليـا لمصالحهم، ومـن هنـا فقـد أخذ السادة يستغلون ضعف عبيدهم ليحملوهم أعباء ثقيلة لا طاقـة لهـم

بحملها، غير آبهين لوخزات الضمير والتي يستهينون بها إلى درجة أن يشعر الضمير بالتعب، فيذهب في سبات عميق. لمثل هؤلاء السادة الذين يبخسون حق عبيدهم ويستغلونهم باطلاً : وبأبشع صورة، يقول السيد الرب على لسان مار بولس " **أيها السادة قدموا للعبيد العدل والمساواة عالمين أن لكم أنتم أيضاً سيداً في السموات** " (كو 4: 1). فاستغلال الإنسان للإنسان مرفوض في عيني الرب لكونه يتنافى وحقوق الإنسان وتشريع الله.

من ناحية أخرى، يلاحظ أن القوي يحاول دائماً استغلال الضعيف أو بساطة البسيط دون وازع من ضمير، ليس على نطاق الأفراد فحسب، بل وعلى صعيد الدول أيضاً، فالدولة القوية تستغل الدول الصغرى أو الفقيرة وبخاصة تلك المعروفة بدول العالم الثالث، فتمتص حياتها بامتصاصها ثرواتها إن وجدت أو لكي تزج أبناءها في حظيرتها غير المرغوب فيها لتتصرف بهم تصرفها بالحيوانات الأليفة، فتختار هذا للعمل الفلاني الشاق وترسل الآخر بمهمة صعبة وخطيرة وهكذا دواليك، حتى يغدو جميع أبناء الدولة الضعيفة دمية بيد الدولة القوية فيظهر الضعفاء وكأنهم ليسوا من بني آدم، والأقوياء وكأن لهم ملء الحرية ليفعلوا ما يشاؤون ويعتقدون أنهم يمتلكون حق التصرف بهم كما يحلو لهم وكما يتصرفون بأي شيء يمتلكون، فتهضم حقوقهم وتبخس أجورهم أو تحجب عنهم من غير وجه حق وخلافاً لأمره تعالى الذي يقول " **لا تظلم أجيراً مسكيناً وفقيراً من أخوتك أو من الغرباء الذين**

في أرضك في أبوابك" (تث 24: 15)، وفي سفر أرميا يقول " **ويل لمن يبني بيته بغير عدل وعلاليه بغير حق الذي يستخدم صاحبه مجاناً ولا يعطيه أجرته** " (22: 13). والأكثر من هذا فأ ن الله يبدي استعداده أن يقف شاهداً على السالبي أجرة الأجير والأرملة واليتيم (ملاخي 3: 5).

لا ننسى أن شاول الطرسوسي الناموسي اليهودي المتزمت، كان استغلالياً، فاستغل فرصة سانحة لينتقل إلى دمشق ليفْتِك بالمسيحيين الأول. ولكن لما أشرق عليه نور المسيح، وبعد أن نظر الزاوية الخيرة الكامنة في داخله : أثارها في الوقت المناسب " **شاول.. لماذا ت ضطهدني** ". فما كان من ذلك الذئب الكاسر حتى تحول إلى حمل وديع، وهكذا أخرج الله من الأكل أكلاً ومن الجافي حلاوة (قض 14: 14) وهناك من يستغل انتشار الفوضى في هذه المنطقة أو تلك ليزرع الرعب بين الناس ويعيث فساداً حسب هواه، وما هذا ليكون لولا خروج الإنسان عن طور إنسانيته وطويه أنصع صفحة في حياته اسمها " المحبة " فتزدحم بذلك مفردات الشر في قاموسه وأمثاله. نقرأ في سفر التكوين كيف أن لابان استغل بساطة يعقوب فزوجه بنته غير الجميلة بدلاً من راحيل الجميلة (تك 29: 23) إلى جانب ما أوردناه من آيات الكتاب المقدس النابذة للظلم والمنددة باستغلال الإنسان للإنسان، فإنه يضم بين طياته أعداداً هائلة من الآيات تدعو إلى العدالة وإنصاف الإنسان وصيانة كرامته واحترام حقوقه، لا سيما الدينية منها

والاجتماعية وذلك عبر الارتواء من مياه كلمة الله الحي الذي لا يريد للإنسان سوى الحياة والسعادة " **هلموا أيها العطاش إلى المياه، المياه الحية التي إن شرب منها أحد لا يعطش إلى الأبد** " (يو 7: 37) أنها دعوة المحبة الشاملة. دعوة الخير للجميع يطلقها يسوع إلى كل من له أذنان للسمع. فهل للمستغلين والصيادين في المياه العكرة آذان صاغية تسمع وتعي ؟

إلى هنا نكون قد كشفنا القناع عن وجه الاستغلال القبيح، ولكن لا يخفى أن لكلمة " الاستغلال " وجه آخر مشرق لامع. كاستغلال الفرص الثمينة الخيّرة التي تعمل للصالح العام دون أن تمس مشاعر الآخرين أو تلحق الأذى بأي فرد وتقديم المزيد من العمل المثمر، وبهذا تكون كلمة " استغلال " بناءة لا هدامة كما رأينا أعلاه، والمؤمن الملتزم يستغل الظروف الموآتية لاتيان المزيد من أعمال المحبة والرحمة، وبخاصة إسعاف المحتاج بمختلف الحاجات، وبما يمليه عليه وجدانه، ويوحي به قلبه كنز الحب والرحمة. فمثل هذه الأعمال هي جزء هام لا يتجزأ من العبادة التي أوصانا الله بممارستها عرفاناً لجميله علينا وتبادلاً لمحبته لنا. وأخيراً نقول : طالما أن باب الخير والبر مفتوح أمامنا، فلِمَ لا نستغله وندخله آمنين !

الوعد عند الحر دَينٌ

مشاكل، اختلافات، نزاعات تحدث هنا وهناك، سببها الديون، وعدم وفائها. كذلك الأمر بالنسبة إلى الوعود أو العهود التي ينتهي عدم الالتزام بها إلى نهاية غير مرغوب فيها بل سيئة في كثير من الأحيان. وأن الوعود والإيفاء بها من أبرز مفرزات الآداب الخلقية. إلى جانب الآداب الروحية والاجتماعية، لكون الوعد يخضع لمعطيات حرية المرء في الاختيار وهي نعمة سابغة كرم الله بها الإنسان. فيكون إيفاء الوعد، والحالة هذه، أمراً ملزماً لا بد منه كما هي الحال بالنسبة إلى إيفاء الدين مادياً كان أم معنوياً أو ما يعرف بإعادة اعتبار، لكيما لا يسقط صاحب الوعد تحت وطأة الإدانة. فلطالما أن الإنسان يتمتع بكامل الحرية في أن يعِد أو

لا يعِد، أصبح الالتزام بالوفاء واجباً ملحاً لا يجوز التنصل منه بأية صورة كانت.

إلى جانب حرية الاختيار فقد منح الله للإنسان عقلاً راجحاً مميزاً يوحي إليه بالتفكير بعمق قبل أن ينطق بكلمة، أو يوقّع وثيقة ما في شأن معين، تقتضي دراسته بعمق وجدية وعدم التسرع في الوعد به. يقول الحكيم ابن سيراخ " **هنيئاً لمن لا يتسرع بكلامه** " (14 : 1). فالتسرع في نظر الحكيم غالباً ما يكون مجلبة للارتباك والسقوط في خطأ ما، يطاله على أثره ندم كبير، " **ولات ساعة مندم** ". وهنا ينبغي أن تأخذ الحكمة دورها الفاعل والإيجابي في ما يخص سعادة الإنسان، فالشخص الحكيم يعطي مجالاً واسعاً للتفكير وأتخاذ القرار المناسب والمرشد إلى السلوك القويم الذي ينبغي أن يسلكه، لكي يأتي قراره صائباً ولصالحه والآخرين في آن واحد.

والناس، في ما يخص الوعود أو العهود، اثنان : ملتزم وغير ملتزم. والالتزام دليل على قوة الشخصية واحترام المرء نفسه والغير في الوقت نفسه. هذا من الناحية الاجتماعية. ومن الناحية الروحية، يقوم برهاناً على أن علاقة الملتزم بـالله وثقى ووطيدة، لكونه يسير بهدي التعاليم الإلهية، الأمر الذي يصونه من السقوط. وقد وعد الله الإنسان المستقيم " **ألا تعثر بحجر رجله** ". لذا يحالف النجاح الإنسان المستقيم والملتزم بوعوده، لكونه لا يأتي عملاً، أو ينبس ببنت شفة غير مناسبة، فلا يحتاج، والحالة هذه إلى التهرب من أي وعد، أو كلمة خجلاً، سواء

بالأفكار أو المداورة أو المراوغة في الكلام وما سوى ذلك. أما عدم الالتزام بالوعود فدليل ضعف الشخصية وعدم الجدية، أو إشارة إلى أن غير الملتزم يعيش خارج نطاق الحياة الروحية والقيم الاجتماعية دون أن يفهم لحياة الاستقامة معنى من حيث يدري أو لا يدري، لذا فإن المجتمع السليم ينبذ أمثال هؤلاء.

السؤال هنا، لماذا الوعد ؟ والجواب :

1- غالباً ما يجد المرء نفسه على مفترق طريق في موقف محرج لا بد من الخروج منه، كأن يرى نفسه في ظرف قاسٍ يضعه في مازق خطير، ولا سبيل للتخلص منه سوى سبيل الوعد، فيضطر إلى أن يعد بأن يفعل كذا وكذا استسلاماً لذلك الظرف، أو أنه يرفض ما يطرح عليه، فتكون نتيجة رفضه أكثر سوءاً ولغير صالحه إطلاقاً، وهنا يضطر لاختيار أهون الشرين، لا سيما إذا تأكد لديه أن وفاء الوعد الذي وعد به مرغماً. بعيد المنال، لا بل قد يكون مستحيلاً، كمن يُرغم على تنفيذ جريمة نكراء في حين أنه يحمل ضميراً حياً. وفي كل الأحوال، الأفضل أن يتحاشى المرء إعطاء وعد لا يرتاح إليه ضميره حتى ولئن كلفه ذلك بعض المتاعب. وفي مثل هذا الموقف نقول : لطالما أن المرء له حرية الاختيار، فالأفضل أنه لا يعد بما يعتقد بأن له تداعيات جد سلبية، لكي لا يسقط تحت وطأة الدينونة، يقول السيد المسيح " **لأنك بكلامك تتبرر وبكلامك تدان** " (متى 12: 37). وهذا يعني أن المجال واسع أمام الإنسان لكي يتخذ قراراً يضعه موضع

المبرَّر فيتحاشى الإدانة. وبهذا الصدد يقول القديس يعقوب في رسالته " **إن كان أحد فيكم يظن أنه دَيّن وهو ليس يلجم لسانه بل يخدع قلبه فديانة هذا باطلة** " (1: 26). وهذا درس بالغ الأهمية في ضرورة لجم اللسان فلا يطلق له العنان ليتلفظ بما لا يجب.

2- يدوّن متى الإنجيلي على لسان السيد المسيح رواية في ما يخص إيفاء الوعد أو نكثه، مفادها : أن والداً طلب إلى أحد ولديه الذهاب والعمل في كرمه، فاعتذر، لكنه ندم ومضى، ثم كرر الطلب مع ابنه الثاني فوعد لكنه لم يفِ بوعده، وهنا يظهر الإنجيل المقدس استياء الوالد من الذي نكث بوعده. وتعقيباً على هذا الموقف نشير إلى أن التأمل العميق والدراسة المستفيضة مهمان جداً قبل أن ينطق الإنسان بالوعد، لكي يأتي وعده صادقاً ومبنياً على أسس ثابتة ومضمونة دون احتمال ظهور معوقات تحول دون تنفيذه، فمن الضرورة بمكان أن تتوفر كل عناصر ومستلزمات الإيفاء لكي لا يظهر مستقبلاً حانثاً بوعده.

3- ويجب ألاّ يغيب عن البال، أن النسيان في كثير من الأحيان، يقف وراء وفاء وعد ما ممكن إيفاؤه دون أن يدرج على لائحة الخطايا. وبإمكان صاحب وعد منسي أن ينفذه في الوقت المناسب أو المطلوب. ويدخل في هذا الباب، موضوع النذر لكونه نوعاً من الوعود. ولعله أكثرها أهمية نظراً لسمته الدينية المرتبطة بالحياة

الروحية ولا بد من إيفائه عاجلاً أم آجـلاً، حتـى ولئـن يبـدو مغـايراً عما وعد به. وبحسب ما تتوفر فرصة للناذر.

نقرأ في سفر أيوب " **تصلي له (الرب) فيستمع لـك ونـذورك توفيها** " (22: 27). وفي المزامير " **أوف ِالعلي نذورك** " (50: 14).

من تداعيات نكث الوعد أو العهد، فقدان الثقة والمصداقية حتى لدى من يُعرف بالاستقامة، فعدم الوفاء يهز الاستقامة ويضعها في قائمـة الخيانة، كذلك يعتبر خيانة عدم تنفيذ الوعود والمواثيق الدولية.

إلى هنا ونحن نتحدث عن الوعود التي نقطعها مع البشـر الـتي إن نكثناها شعرنا بوخز الضمير وعدم المسؤولية، فكـم بـالأحرى إذا وعدنـا الله و لم نفِ ؟ وهذا ما يحدث لدى الوعد بعدم الرجوع إلى الخطيئة وبأن تبقى حياتنا مرتبطة بالله، لكننا لا نلتزم بمثل هذه الوعـود أحيانـاً كثيرة. فإذا كنا نخجل أمام الناس في حالة فشلنا في تنفيـذ مـا وعدنـا بـه، فمـاذا يكون موقفنا أ مام الله في مثل هذه الحالة.؟

ميلاديات

من وحي الميلاد

قيم الميلاد

بين المغارة والسماء

أبعاد الميلاد

حق، بر، ونور

رحيل عام

من وحي الميلاد

إنها رغبة الله العارمة في التقرب إلى الإنسان، ذلك المخلوق الحبيب، الذي فيه جسّد الله كل حبه إلى درجة أنه أفاض عليه من صفاته الشيء الكثير، وبخاصة تلك الصورة الجميلة المكللة بتاج البر وإكليل القداسة، غير أن تلك الرغبة الإلهية لم تأخذ شكلها النهائي، إلا في تجسد كلمته الأزلي يسوع المسيح، الذي حقق الرغبة الإلهية من ناحية، وأمنية البشرية من ناحية أخرى، حيث بدت أشعة الأمل الوهاجة تبدو في سماء الإنسان عندما أخلى المسيح ذاته ليأتي إلى هذا العالم ويحتضنه بكل حنو وحنان كما يحتضن الراعي الصالح خروفه الضال، وصفة " **الراعي الصالح** " كانت من احب الصفات إلى يسوع التي أطلقها على نفسه، وأعتز بكونه جاء ليبذل نفسه عن الخراف. وهذه يجب أن تكون مزية

كل من رغب في رعاية أغنام يسوع الناطقة، مهما كان موقعه في الكنيسة، ولأن الصلاح خلة من خلال يسوع الحميدة الذي لم يرَ غضاضة من أن يأتي إلينا باحثاً عنا بهيئة فازت بقصب السبق في البساطة.

فقد ولد في مغارة في غاية البساطة، بل متواضعة، وهو الذي لا يسعه الكون ولو غدا كله مغارة لبقى مغارة صغيرة بل حقيرة مقارنة بعظمة يسوع وجلاله الإلهي، يسوع الذي تجرّع كاس التواضع حتى الثمالة، وأعني بها غسل أقدام تلاميذه. ترى هل فعل المسيح هذا من أجل إظهار نفسه متواضعاً، ألم يكن يلقننا درساً بليغاً بهذه الفضيلة المحببة إليه، ولا سيما ونحن ندعي بالتلمذه له، وكثيراً ما نتشامخ فننظر إلى الآخرين نظرة فوقية، ونرتئي أكثر مما يجب أن نفعل ؟ فقد داس يسوع الكبرياء بأخمص قدميه، وأوصانا بأن نتمثل به، لأن مَن نظرت عينه إلى الأرض أرتفع عقله إلى السماء.

إن حب يسوع للبشر لم يقتصر على مهمة واحدة فقط، مهمة الخلاص، لم يأتِ ليؤدي هذه المهمة ويعود من حيث جاء، بل أنه أسس للناس ملكوتاً على الأرض وعلى حسابه الخاص، بدمه الأقدس وليس على حساب البشر كما هو شأن أبناء هذا العالم الذين إذا ما أرادوا أن يؤسسوا لهم ملكاً على الأرض، نفذوه فوق جماجم البشر بسيوفهم اللامعة، غير أن المسيح لم يتقلد سيفاً أو رمحاً، سوى سيف السلام الذي شاء أن يعممه على سكان الأرض " **وعلى الأرض السلام** " هكذا

هتفت الملائكة يوم مولد الرفق، فرفرفت الوية السلام، ليس فوق أجواء بيت لحم فحسب، بل وفي أجواء المعمورة قاطبة. إن المُلك الذي أسّسه السيد المسيح هو مُلك الحق الذي يعيش تحته كل مَن ذاب قلبه حباً وإيماناً بالله. السيد المسيح مَلِكٌ يملك بالمحبة والتضحية والبذل وليس بالحديد والنار، وبهذا النوع من البذل أستطاع المسيح ان يربح الناس، فهاموا بحبه واسترخصوا النفوس من أجله. ونحن إن كُنّا حقاً تلاميذه أفلا يجدر بنا أن نتخذه قدوة لنا في مسيرة حياتنا وفي محبتنا للآخرين ؟

نزل الله من علياء مجده ليعلمنا كيف نرتقي السلم المؤدي بنا إلى السماء، كيف نحيا حياة السماء ونحن عائشون على الأرض. فالمسيح صيّرَ الأرضَ سماءً للذين يعرفون خصائص هذه السماء الجديدة، ومن أجل هذه المعرفة، نهج لنا نهجاً جديداً من شأنه أن يخلق إنساناً جديداً هو غير الإنسان الذي كان قبل ميلاد المخلّص يسوع. هذا النهج الذي يعلمنا أن الحياة أكثر من مُجرد أكل وشرب ولبس، بل هي بذل وعطاء، تعلمنا كيف نرفع عقولنا وأذهاننا إلى السماء.

فهنيئاً للبشرية ميلاد الفادي يسوع المسيح رئيس السلام والرائد الأول للمحبة.

قيـــم الـمـيـــلاد

ولئن تم ميلاد الكلمة بالجسد في مكان وزمان محددين، إلا أن أبعاد هذا الحدث التاريخي الهام والفريد من نوعه لا حدّ لها ولا زمان يقيدها، فهي زاخرة بالعطايا الحسنة والقيم الروحية منها والإنسانية والتي صبّت جميعها في مصب واحد هو صالح الإنسان ومستقبله الجديد الذي رسمه له ابن الله، ففيما كان ماضياً نحو شفير الهلاك، وإذا بمولود بيت لحم يغير اتجاهه بل ومجرى تاريخه وحياته، نحو الأفضل ويخلق منعطفاً هاماً جداً لمسيرة حياته التي كانت باتجاه معاكس للرغبة الإلهية، فجنح نحو الطريق السوي الآمن الذي يحقق آمانيه في العودة إلى ماضيه السحيق يوم كان ينعم بكل ما يرضي الله وينزع إليه ضميره، وما هذا الطريق سوى من بشّرت بميلاده ملائكة السماء لنفر يمثلون أبناء البشرية جمعاء

" **أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب** " (لو 2: 10)، والذي سيصرح فيما بعد وبكل ثقة : " **أنا هو الطريق...، ليس أحد يأتي إلى الآب إلا بي** " (يو 14: 6).

فالفرح العظيم هو أحد القيم الميلادية التي أفرزها الميلاد العظيم، والتي بثتها يومها الملائكة إلى مسامع البشرية المعذبة تحت وطأة الكآبة الكبرى التي رافقت حياتها، من جميع النواحي، مذ تخفى أول أب للبشر من أمام وجه الله على أثر اكتشافه لعريه، فحينئذ لم يعد الفرح يدخل قلبه الكئيب حتى سمع كلمة " **أبشركم بفرح عظيم** " وسوف تتذوق قلوبهم طعم المسرّة بعد أن فتحت أبوابها من جديد، كم كان الإنسان بحاجة ماسة لهذه الفرصة السعيدة، وكم كان يؤلمه عدم سماع كلمة تبهج قلبه وتملأه فرحاً، وإذا بالسماء تنطق بتلك الكلمة يوم ميلاد الكلمة، وكم نحن اليوم بحاجة إلى ميلاد جديد، فالقلوب كئيبة والأفكار مشوشة والنفوس مضطربة. قد يقول أحدهم هناك أعداد كثيرة من الناس يلهون ويسرحون وتشق أصواتهم عنان السماء، نقول : هل هذا هو حقاً الفرح الذي ننشده ؟ فالذي نسمعه ليس سوى مجرد صخب وقهقهة فارغة وابتسامة مصطنعة، كل ذلك تغطية لما في داخل القلوب من ألم وحزن وكبت، أما الفرح الحقيقي فهو الذي جاء به مولود بيت لحم وغرسه في أعماق القلوب وما على المرء إلا أن يلمسه بروحه فتنتشر أشعته في كل ناحية.

ومن أبعاد فرح الميلاد والذي يعتبر ينبوع الفرح الدائم، ما أشارت إليه الملائكة وأعلنته السماء يوم الميلاد، وهو كلمة " السلام " **وعلى الأرض السلام** "، فساد هذا السلام بعد أن كاد أبناء الأرض ينسون كلياً مذاق السلام سواء مع خالقهم، أم مع بعضهم البعض، بسبب الشر الذي استشرى بين الناس وانشب مخالبه القاسية في جسد السلام، العنصر الهام في حياة البشر، وبفقده جنح الإنسان نحو الشر إلى درجة أن أضحت كلمة " الشرير " **صفة ملازمة للإنسان، حتى أن الرب يسوع وصفه بها " إن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة فكم بالحري أبوكم الذي في السموات يهب خيرات للذين يسألونه** " (متى 7: 11)، وبذلك فقد الإنسان نعمة السلام، " **لا سلام للأشرار قال الرب** " (أش 48: 22)، ولم يستعده حتى سَمِعَ يسوع يقول " **سلامي أعطيكم** " وسلامي هذا لا يستطيع العالم أن يعطيكم إياه، وكل ما يصنعه العالم في هذا الشأن هو سلام أقل ما يُقال فيه، مزيف، وقتي، زائل، يتلاشى كالدخان، وأن الله عارف أن الإنسان ممكن أن يفقد هذه النعم ما لم يتغير قلبه، ليكون قلباً رقيقاً شفافاً مستنيراً ومخزناً لائقاً للصالحات الباقيات، وليس للشرور والطالحات، قلباً يحمل كل معاني الإنسانية وبذلك يغدو مهيأً لاستقبال كلمة الله، كلمة الخير، والبركة، وأهلاً إفاضة الخير على الغير من ذوي الحاجة والفاقة، وباستنارة قلبه أدرك أنه لم يخلق لذاته فحسب، بل لقريبه أيضاً، فكان

عليه والحالة هذه الحفاظ على نقاوة قلبه المغتسل بدم يسوع المسيح الذي قلب مظاهر الحياة رأساً على عقب.

هناك نعمة أو قيمة ميلادية رفيعة الشأن قلما تطرح على بساط البحث، وهي أن المسيح الذي شاركنا طبيعتنا البشرية بعد أن أنهضها من كبوتها العظمى، وبفعل محبته اللامحدودة والتي دفعته إلى بذل ذاته من أجلنا، شاء أن نشاركه طبيعته الإلهية، " **قد وهب لنا المواعيد العظمى والثمينة لكي تصيروا بها شركاء الطبيعة الإلهية** " (2 بط 1: 4)، فقد لمس طبيعنا البشرية الخاطئة بلمسة سحرية تحت أدران الخطيئة، ودثّرها بدثار التُقى والقداسة، فأهل البشر نعمة معاينته، إذ لم يكن بوسع أي إنسان أن يعاين الله لولا لمسة القداسة تلك، التي بدونها لن يرى أحد الرب (عب 12: 14)، ولولا إعطاؤه المحبة بعداً جديداً ما كان ليخطر على قلب بشر إذ تعدت المحبة الأشقاء والأقرباء إلى محبة من لا يحبوننا " **فإن أحببتم الذين يحبونكم فأي أجرٍ لكم** " (متى 5: 46)، وببعد آخر فاضت محبته حتى بلغت درجة البذل، فهل من محبة أفضل من هذه أن يبذل الإنسان نفسه عن الآخرين، حقاً أنها محبة من نمط غير مألوف.

لحظة من التأمل العميق بصنيع الله مع البشر تكفي ليُكشف حنان الله الأبوي البالغ للإنسان فقد عمل الله سبحانه المستحيل، إن صحَّ التعبير، لينهض بالإنسان من كبوته وإحاطته بهالة من نور ليشعر بقيمته لدى الله الذي أزاح الحاجز القوي بينه وبين الإنسان ممهداً السبيل للقاء بنا حتى ولئن يرى بعض الذين لم يخترق تفكيرهم أعماق قلب الله

الكبير، أن عمله هذا هو نوع من التنازل غير الطبيعي، بل يعتبرون ذلك إهانة بحق الله، قائلين هل من الممكن أن يأتي الله إلى عبيده البشر مخلياً عظمة مجده وجلاله ؟ وغاب عن بالهم أن الله أعطى كرامة متميزة للإنسان " **مَن هو الإنسان حتى تذكره وابن آدم حتى تفتقده وتنقصه قليلاً عن الملائكة وبمجد وبهاء تكلله** " (مز 8: 4)، فأعظِم بها من قيمة أن يكلل الله الإنسان بمجد قريب من مجد الملائكة، في كل مرحلة من مراحل حياته حتى مرحلة الطفولة التي شاء أن يمرّ بها فيقدسها ويباركها إلى درجة أن صار الطفل هو الأقرب إلى الله " **دعوهم ليأتوا إليَّ ولا تمنعوهم** " (لو 18: 15)، ويدعو إلى التشبه بهم، نقاءً وطهراً وبراءةً، ولكي تنشأ الطفولة وتنمو بالقامة، قدّس يسوع العمل بعد أن دعا الإنسان إلى الالتزام به منذ البدء بوضعه إياه في الجنة ليعملها ويحافظ عليها (تك 2: 15)، وهنا أراني ملزماً أن أشير إلى أهمية العمل تشبهاً بالسيد المسيح الذي قال " **أبي يعمل حتى الآن وأنا أعمل** " (يو 5: 17)، حاثاً الجميع أن يعتمدوا العمل الشريف أساساً للعيش الهنيء والحياة المثمرة، فلا شيء يعطي قيمة للحياة وكرامة الإنسان كالعمل، فما ألذ لقمة العيش الممزوجة بعرق الجبين. نُقل عن المفكر والكاتب اللبناني الكبير ميخائيل نعيمة، لدى عودته إلى الوطن من أرض الاغتراب، إذ قصده أبناء ضيعته للتحية والسلام، فكان يصافحهم بشوق واعتزاز وإذا بامرأة جاءت لتوها من الحقل ومازالت يداها معفرة، فمدّ إليها يده ليصافحها فتراجعت قائلة باللهجة اللبنانية " يا عيب الشوم أن يديّ

خشنتان متعفرتان " فأجابها " أن اليد التي خشّنها العمل هي تصـافح يـد الله ".

فالعمل إذن هو قيمة أخرى من قيم الميلاد لطالما هو رمز النجاح والعيش السعيد والقاضي على اليـأس لا سيما بعـد أن "**حـلّ كلمـة الله بيننا ورأينا مجده مجد وحيدٍ من الآب مملوءاً نعمة وحقاً** " (يو 1: 14).

بين المغارة والسماء

طفل ومذود، أمومة وبتولية، ملائكة ورعاة، أناشيد تشق عنان السماء لتشنف مسامع الأرض، هدوء مشوب بنغمة سحرية آتية من العلاء، إشراقة سماوية تبدد ظلمة ليل مدلهم. كل هذا استقطبه يوم اكتحلت به عين بلدة داود (بيت لحم) .بميلاد طفل أطلق عليه اسم **عمنوئيل**، طفل صغير يحمل رسالة عظمى يتيمة، طفل وادع دثرته البساطة بكل معانيه، طفل مولود قبل أن يولد، طفل وَحّده .بميلاده السماء مع الأرض، إذ جعل من الأرض سماء ثانية لطالما شاء أن يتخذها مسكناً وهو من اتخذ منذ الأزل السماء له مسكناً، هذا الطفل وضع .بميلاده نهاية للخليقة البالية، وبداية لخليقة جديدة.

فلا غرو إذن أن تردد الكنيسة في مثل هذا اليوم مقولة أحد آبائها المستوحاة من مقولة الرعاة بعد تلقيهم بشرى السماء بميلاد المخلص العجيب (لقد ولدت العذراء عجباً، فهيا بنا نتأمل شيخاً سابقاً للزمن مقمطاً، شيخاً قديم الأيام مولوداً من عذراء، جبار يزن الجبال تحمله صبية، المعطي للجائع خبزاً، يرضع الحليب كطفل، الابن الذي لا بداية له شاء أن تكون له بداية، فولد ولكن لا نهاية له). ترى لماذا يوصف بالعجب ؟ أنه عجيب لكونه جعل غير ممكن ممكناً، لأن " **غير المستطاع عند الناس مستطاع عند الله** "، إذ تساوى بميلاده الخالق مع المخلوق في الطبيعة، شارك الله البشر طبيعتهم، لكي يشاركوه في طبيعته. وليس هذا فقط بل لأن ميلاده عجيب وسلوكه عجيب وأعماله عجب.

لقد شغل هذا الموضوع فكر العلماء والأدباء والمفكرين منذ فجر المسيحية، فما كانوا يظنون مستحيلاً غدا أمراً واقعياً ينظرونه بأم أعينهم، فيتساءلون، كيف ولماذا ؟ ويأتيهم الجواب : أنه الحب، ذلك المحيط الذي لإقرار له، جعل الله يسعى إلينا نحن البشر، حيث لم يعد بإمكاننا السعي إليه، جاءنا ليكشف لنا عن سره العظيم الذي كان الإنسان يبحث عنه لجهله إياه. جاء إلينا مولوداً من امرأه كأي إنسان خاضعاً لحكم الناموس.

جاء المسيح حاملاً رسالة عظمى دونها كل رسالة في تاريخ البشرية لكونها رسالة تمس حياة كل فرد، رسالة سداها الحب ولحمتها السلام. رسالة ضمت بين طياتها كل معاني الإنسانية التي تمثلت

بالخلاص الذي كانت أعناق البشرية مشرئية إليه منذ أجيال سحيقة، تنتظره بشوق ولهفة عظيمين، ولكن لم يكن حمل هذه الرسالة من الهنات الهينات، لكونه يقتضي جهداً جهيداً وبذلاً كثيراً وتكريساً متكاملاً. غير أن المسيح رضى به. إمعاناً منه في حبه وفي إطاعته لأبيه، السموي. فجاء إلى عالمنا ليبذل ذاته من أجل الذين أحبهم حتى الموت، ويكون ذبيحة من أجل من أساءوا إليه وتمردوا عليه.

أبعاد الميلاد

" **مبارك الله أبو ربنا يسوع المسيح الذي باركنا بكل بركة روحية** " بهذه الكلمات الإلهية توّج الرسول بولس رسالته إلى أهل أفسس وفي طليعة هذا البركات إرساله إلينا ابنه الوحيد يسوع المسيح الذي نفحنا ببركات ونعم ما كنا لنحلم بها لا سيما ونحن ملوثون بالخطيئة وبعيدون عن الله بسببها لكونها صارت " حاجزاً بيننا وبين خالقنا " الذي كانت أولى بركاته لنا، الحياة المتميزة عن سائر المخلوقات، و لم نكن لنفهم الحياة سوى كونها أكلاً وشرباً ودثاراً، لها مفاهيم محددة وكأنها مقيدة بفترة زمنية تنتهي بانتهاء هذه الفترة وتزول كما تزول حياة أي مخلوق حي آخر من حيوان أو نبات، غير أن الابن المتجسد فتح أمامنا آفاقاً جديدة للحياة حتى أعد لها معنىً آخر أكثر

أهمية وبهذا المعنى جاء يسوع ليوفرها لنا " **أتيت لكي تكون لكم الحياة وتكون الأفضل** ".

أجل لقد جاء يسوع إلى عالمنا وشاركنا طبيعتنا وحياتنا، تجول بيننا أكل وشرب معنا، رأته أعيننا لمسته أيدينا كقول الكتاب المقدس، وأعطانا مفاهيم جديدة للعديد من مفردات الحياة من شأنها أن توفر حياة أفضل للإنسان الذي يستوعبها ويلتزم بها، توفر له السعادة والسلام بالرغم من المنغصات والمعاناة التي تعكر صفو الحياة الدنيا، ذلك أن يسوع لا يبرح ينادي المتعبين من أعباء الحياة ليأتوا إليه حيث الراحة والطمأنينة ليفتح أذهانهم كي يستوعبوا معنى الحياة الحقة والمفاهيم الجديدة التي أعطاها للحياة ولبعض مفرداتها فما هي الحياة الأفضل لدى يسوع كلمة الله المتجسد ؟

الحياة الأفضل، لهذه الحياة ثلاث صور :

الأولى هي المسيح بالذات : الذي صرّح بأنه هو الحياة لكونه قادنا إلى معرفة الله معرفة حقة كانت مجهولة لدى الناس حيث قال " **وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت ويسوع المسيح الذي أرسلته** ". **والصورة الثانية هي الحياة الأبدية** : التي لا تحول ولا تزول لكونها تستمد ذاتها من مصدرها الأول الذي جعل نفسه خبزاً لها " **أنا هو خبز الحياة... من يأكل منه لا يجوع إلى الأبد** " ومن شأن هذه الحياة أن

تمتص بل تبتلع الموت بحسب تعبير الرسول بولس (2 كو 5: 4)، وكونها تحتوي على ما أعده الله للإنسان منذا إنشاء العالم " **ما لم تره عين ولم تسمع به أذن ولم يخطر على قلب بشر** ". أما الصورة الثالثة فهو **الحياة الحاضرة** : التي جعلها المسيح أفضل مما كانت عليه بإعطائه أبعاداً جديدة، للعديد من مفرداتها أن عاشها الناس استحالت الأرض سماء، منها :

المحبة : الكل يعرف ما الذي تعنيه كلمة المحبة، أنها تآلف ووفاق تام وانسجام القلوب بين شخصين أو فئتين أو شعبين أو أكثر لكن المسيح له المجد بمجيئه إلينا أعطى لها أبعاداً أخرى ومفاهيم جديدة أكثر عمقاً وأغزر فائدة للبشرية بحيث لو تجرد الإنسان من معطياتها لتجرد من إنسانيته، لقد جعل منها ثورة عارمة ضد العداء والانتقام والكراهية بقوله " **أحبوا أعداءكم** " و" **إن أحببتم الذين يحبونكم أي أجر لكم** "، وهنا قد يسأل سائل، هل أن هذا الأمر سهل ؟ نقول قد لا يكون سهلاً لكنه ليس مستحيلاً. لقد كانت كلمات يسوع هذه بمثابة قنبلة فجّرها في عالم مشحون بالعداوة والبغضاء والأنانية والانتقام، لأن الناس لم يعرفوا شيئاً سوى أن يكال الصاع صاعين دون مراعاة كرامة الإنسان وحريته، كل هذا يتم بغياب المحبة التي وسّع المسيح أفق مفهومها حتى غدت سيفاً لقطع دابر كل ما من شأنه الحط من كرامة الإنسان، وذلك عندما جاء يسكب محبته على الجميع على حد سواء لأنه يشرق شمسه على الأبرار والأشرار، وفي سبيل ذلك لم يرَ غضاضة من أن يخلي ذاته من مجده

وعظمته الإلهية ويتخذ هيئة إنسان لطالما أنه بهذه الهيئة، يستطيع أن يحقق هدفه الإنساني أي خلاص البشرية، وبذلك يكون قد علمنا بأن العطاء هو عمل من أعمال المحبة، فكما أن الإ نسان لا يعرف الله إن لم توجد في قلبه محبة لأ ن الله محبة (وهذه عبارة جديدة في عالمنا) كقول الرسول يوحنا، هكذا أيضاً لا يعرف العطاء مَن خلا قلبه من المحبة لأن العطاء وليد المحبة.

السلام : والشيء الآخر الذي أعطاه يسوع مفهوماً جديداً هو السلام وقد صرّح بأن السلام الذي جاء ليعطيه للناس ليس كسلام أبناء هذا العالم الذي يُقرّ اليوم ليُنقضَ غداً بل هو السلام الذي أشارت إليه السماء ليلة الميلاد، " **وعلى الأرض السلام** " هو سلام دائم مع الله ومع الذات، نقول مع الله لأن السلام الذي أتى به يسوع أزال الخصام القائم بين الله والإنسان، فتمت المصالحة بيسوع المسيح كما يقول الرسول بولس " **كان الله مصالحاً إيانا بابنه...** " وتتمثل ميزة هذا السلام بأن القوي وصاحب الحق والأعلى يسعى إلى الضعيف والأدنى لكي يقيم عهد سلام دائم معه بخلاف العرف البشري في صنع السلام.

الحق : أن مفهوم الحق لدى الناس هو كونه عكس الباطل غير أن المسيح أعطاه بُعداً جديداً ألا وهو الله نفسه قال " **وتعرفون الحق والحق يحرركم** " أي تعرفون الله الذي يحرركم كما أنه وصف نفسه بالحق " **أنا هو الحق** " فللحق بمعناه الجديد فاعلية التحرير وهذا ما فعله يسوع بمنحه الحرية التامة للإنسان، حرية أبناء الله " **إن كان المسيح قد**

حرركم فأنتم بالحقيقة أحرار "، وليس الحرية بمعنى التسيب والميوعة أو مصادرة حرية الآخرين كما يفهمها أبناء هذا العالم.

القوة : لقد كانت القوة في الماضي مظهراً من مظاهر القهر والنصر لا غير، فأعطاها المسيح مفهوماً جديداً. فإذ كانت تستعمل لقهر الناس وإضعافهم، إذا بها تستعمل لنصرة الضعفاء والمستضعفين " **يجب علينا نحن الأقوياء أن نحتمل ضعف الضعفاء** " علماً بأن قوتنا البشرية مهما كانت هائلة فهي تخضع صاغرة لقوة أكثر عنفاً هي قوة الخطيئة التي نعجز عن قهرها إلا بالقوة التي أعطيت لنا، قوة إيماننا بالله القادر على كل قوة معادية، وبخاصة قوة إبليس حتى أصبح بإمكان كل مؤمن أن يهتف مع الرسول بولس " **أستطيع كل شيء بالمسيح الذي يقويني** " وإذا كان لكل نوع من القوة سلاح وإذا كان السيف هو سلاح القوة البشرية ورمز العنف الهدّام باعتباره أداة هلاك وموت، فإن الصليب المنزّه عن كل معاني العنف هو رمز قوتنا وسلاحها الخاص باعتباره أداة خلاص وخلود، الذي ليس من شأنه قطع رؤوس البشر بل رأس التنين الحية القديمة، وهذا هو السيف الذي أشار إليه السيد المسيح بأنه جاء يحمله حيث قال " **جئت لألقي لا سلاماً بل سيفاً** " أنه سيف الإيمان بالمسيح مخلص البشرية بصليبه.

هذه بعض الأبعاد الجديدة التي أعطاها يسوع للحياة، فشكراً لله على هذه البركات الإلهية، لنضم أصواتنا إلى أصوات ملائكة السماء ونعطي المجد لله في يوم ميلاد الابن المبارك يسوع المسيح آمين.

حق، برّ، ونور

هذا الثالوث يظهر أمامنا اليوم بأجلى صورة، متجسداً بشخص كلمة الله المولود من امرأة في مكان وزمان معينين ومحددين منذ الأزل من قبل الله. أما الزمان فبملئه بحسب تعبير الرسول بولس، وبتعبير آخر في الوقت المناسب، وأما المكان فمدينة داؤد (بيت لحم)، وهذا أمر طبيعي لكون المسيح ابن داؤد كما وصفه الكتاب المقدس بعهديه. هذا الثالوث ظهر في الوقت الذي كان الناس أحوج ما يكونون إليه يوم ولد المسيح. فقد كان الظلم سائداً والحق مهيض الجناح فباتت الحاجة ملحة إلى إزالة هذا الظلم وحلول الرحمة والمحبة محله، وبسبب أنعدام العدل يتفشى الفساد في كل بقعة من بقاع الكون، فانحط البشر حتى وصلوا إلى أدنى دركة من الإنحطاط الخلقي، فبات من الضرورة بمكان أن تتبرر

البشرية من هذه الحالة المزرية. فجاء المسيح شاهراً سيف بره ضد الشر والخطيئة. وحيث أن الفساد الخلقي يعمي بصائر الناس ويسود الظلام الروحي دنياهم، وعليه أمسى واقعهم بحاجة إلى نور من نوع خاص غير النور الطبيعي فأشرق نور المسيح شمس برنا الأزلي الذي جاء حاملاً الشفاء كنبوة ملاخي النبي. أجل، جاء يسوع طبيباً شافياً لإدواء البشرية بأنواعها، محققاً تطلعات الإنسان الشقي إلى التحرر من الظلم والباطل وإلى الرؤية السليمة كي يستطيع أن يسير بوعي مميزاً المسار السليم الآمن لحياته وسلوكه.

يسوع الحق :

في تصريح له أمام جمهرة تلاميذه يقول الرب الممجد اسمه " **أنا هو الطريق والحق** " هذا الحق الذي نبت في الأرض البكر العذراء مريم فنظرته الأرض الطبيعية متجسداً من أجل أن يسود الحق أبناء البشرية لقد وصف نفسه بالحق **أولاً** : لأن الله حق، **وثانياً** : لأنه جاء لإعطاء كل ذي حق. وقد شهد لهذا الحق الإلهي يوحنا المعمدان كما في إنجيل يوحنا، والرب أيدّ هذه الشهادة وهو يتحدث إلى معشر اليهود منتقداً إياهم على عدم إيمانهم " **جاءكم يوحنا في طريق الحق** " أي جاء يعلن لكم الحق الإلهي لكنكم لم تؤمنوا بما ناداكم به وفي رسالته الأولى يُشير يوحنا الرسول إلى أننا صرنا في دائرة الحق بعد إيماننا بالمسيح الحق نحن في الحق في ابنه يسوع المسيح. فالمسيح الحق لم يسلك سوى طريق الحق حتى مع

الذين خاصموه وأرادوا به سوءاً والذين اعترفوا بأن تعاليمه هي إلهية لأنه " **يعلم طريق الله بالحق** ". وفي محاكمة بيلاطس إياه، يؤكد السيد المسيح بأنه هو الحق، حتى سأله بيلاطس عمّا يقصده بكلمة " الحق " فسكت ولم يجب. هذا هو الحق المحرر من كل ما هو باطل " **تعرفون الحق والحق يحرركم** " وتحرير الإنسان من أي نوع من أنواع العبودية يعني السمو به وملء قلبه بالمسرة " **وفي الناس المسرّة** " هذا ما هتفت به السماء يوم ميلاد يسوع الحق، وقد بشر الملاك بهذا الفرح " **ها أنا أبشركم بفرح عظيم** " فممّا حررنا المسيح الحق ؟

1- من العبودية وعبودية الخطيئة أولاً، ولعل هذا النوع من التحرر يأتي في الطليعة لكون عبوديتها هي أقسى أنواع العبودية وقد أشار إلى هذا السيد المسيح عندما حرر المخلع من خطيئته قبل أن يحرر جسده من دائه.

2- لقد حرّر المرأة من عبودية الرجل السائدة يومذاك، حيث كانت كرامة المرأة مهدورة من قبل الرجل اليهودي إلى درجة أنه كان يشكر الله لأنه لم يخلقه امرأة، لذا قال الرب " **أن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نسائكم** ". فالمسيح رفع معنويات المرأة وأعاد لها كرامتها من خلال حواره مع بعض النسوة، السامرية والكنعانية، أو عندما كشف رياء الذين أرادوا رجم المرأة الزانية.

3- لقد حرر الطفل الذي كان مهاناً هو الآخر ولا يعار له اهتمام فحذر من احتقار الأطفال " **لا تحتقروا أحد هؤلاء الصغار لأني أقول لكم أن ملائكتهم في السموات كل حين ينظرون وجه أبي الذي في السموات** ".

وعليه نقول أن المسيح جاء لتحقيق وعود الله للبشر في الحرية والسعادة وملكوته الأبدي لكونه حقيقة وليس ظلاً كالذين سبقوه، وتعاليمه هي الحق بعينه. فقد علّم أن يقضي الناس بالحق والعدل، يقول بلسان نبيه زكريا " **أقضوا قضاء الحق وأعملوا إحساناً ورحمةً كل إنسان مع أخيه ولا تظلموا الأرملة ولا اليتيم** " هذا هو يسوع الحق الذي حلَّ بيننا ومهّد لنا طريقاً إلى معرفة أبيه السماوي حيث قال " **لا أحد يأتي إلى الآب إلا بي** ".

يسوع النور :

جاء يسوع إلى العالم في عصر ساده الظلام، والظلام هنا يعني عدم معرفة الله معرفة حقيقية فلما بزغ نور يسوع أزال الظلام بإزاحة الستار عن حقيقة الله وعما يريد الله من البشر " **الله لم يره أحد قط، الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو أخبر** " أي أعطى الناس الفكرة الكافية لمعرفة حقيقة الله وبذلك انتقلوا من ظلام جهالتهم إلى معرفة النور فلا غرو إذن أن يشهد المعمدان ليسوع النور كما شهد

ليسوع الحق وشهادته حق وصدق، لأن يسوع نفسه أعلن أنه نور العالم من يسير فيه لا يطاله ظلام هذا العالم بعد لأنه :

أولاً : هَتَكْ ظلام الجهل الذي ساد بسبب تعاليم الوثنية الفاسدة وعاداتها المشينة فيسوع النور نشر أشعته المتلألأة فزال هذا الظلام كما يزيل نور الفجر الظلام الطبيعي.

ثانياً : بدد ظلام الجهل الذي سببته تقاليد وتعاليم مشايخ اليهود الذين اتخذوها بديلاً للشريعة الإلهية فأبطلوا بذلك الشريعة وأبعدوا الشعب عن المفاهيم الحقيقية للشريعة، ولمّا لاح نور المسيح هتك أعمالهم المظلمة فرفضوه لئلا توبخ أعمالهم تلك كما قال عنهم يسوع " **وهذه هي الدينونة أن النور قد جاء إلى العالم وأحب الناس الظلام أكثر من النور لأن أعمالهم كانت شريرة** ". ومثلما أن النور يقيل عثرات الناس وينير السبيل للسائرين فيتحاشونها ويأمنوا السقوط، كذلك فعل يسوع النور إذ سلط أشعته على الخطأة فأنقشعت عنهم ظلمة الخطيئة فأبصروا الطريق وساروا فيه إلى الله.

يسوع البر :

الذي طلع علينا من السماء وشريعة الحق في فمه وإثمٌ لم يوجد بين شفتيه كقول ملاخي النبي " **أطلّ علينا ليكسونا ثياب الخلاص ويلبسنا رداء البر** " كقول أشعيا النبي " **فبررنا ببره نحن الملطخين بلوثة**

الخطيئة"، جاء بعد أن عجز كل الأنبياء وحتى الشريعة القديمة عن تبرير الإنسان كما يؤكد الرسول بولس " **إن كان في الناموس الموسوي برّ فالمسيح مات بلا سبب** " فببر المسيح تبررت النفس واغتسلت وتقدست بدمه الطاهر فانتقلنا من حكم الدينونة إلى حظيرة أبناء الله. يقول الرسول بولس " **لأنه كما بخطيئة واحد (آدم) صار الحكم إلى جميع الناس للدينونة، هكذا ببر واحد (المسيح) صارت الهبة إلى جميع الناس بتبرير الحياة** ".

إذن نحن تجاه ثلاث خصائص ليسوع وليد بيت لحم، الحق، النور، البر، فلو وددنا أن نفهم معنى الميلاد ونرغب في أن يتجسد المسيح فينا علينا أن نضع هذه الخصائص نصب أعيننا فنتبع حقّه ونسير في نوره ونتحلى ببرّه لنكون له أخوة ولأبيه أبناءً ونحظى بالحياة الأفضل التي وفرّها لنا ومثلما ملأ قلوبنا بفرح ميلاده هكذا علينا أن نُدخل الفرحة إلى قلوب الآخرين ونتقاسم وإياهم ما هو لنا كما قاسمنا هو برّه ومجده.

رحيل عام

في رحيل إنسان، أي إنسان، تنفجر ينابيع المآقي بالدموع، وتشتد الأحزان، وتتفطر القلوب كمداً، وترتفع أصوات العويل والنحيب، ويكال الراحل بالمديح والمآثر الحسان، فالعين لم تعد تراه، ولم يعد صوته يرن في الأذان، وحرم الأهل والمعارف حلاوة بسماته وغاب عنهم بهاء طلعته وإشراقة إطلالته. قد يحدث هذا لأسرة ما كل (كذا) سنوات، ولكن ما هي سوى فترة طالت أم قصرت، حتى يغيب طيف الراحل عن عالم الذكريات، إلا أن شيئاً واحداً يحدث كل عام دون أن يتنبه إليه أحد كما ينبغي، ألا وهو رحيل عام إلى اللامتناهي، يرحل بكل ما يحمله بين طياته من خير أو شر، من إيجابيات وسلبيات دون أن تذرف عليه دمعة واحدة كما تذرف على الإنسان الذي قد يعوض الله

عنه. أما العام " المرحوم " فلا يعوض، يودع بفيض من الترفيه والصخب ومعالم الزينة وكأنه يوم عرس حافل، دون أن يخطر على بال أحد أنه خسر عاماً من حياته، أو أن الزمن سرق جزءاً من هذه الحياة.

عام يرحل إلى المجهول، فهل من المنطق أن ندعه وشأنه دون أن نقيّم أحداثه، ولا سيما تلك التي تمسنا بصورة مباشرة أو غير مباشرة ؟ هل نغض الطرف عنه دون أن نغوص في أعماقه لنكشف ما حمله من اللالىء الثمينة أو الأصداف الرخيصة التي لا تصلح سوى للنار أو أن تلقى في سلة النفايات.

فقبل أن يتواري العام عن أذهاننا ويصير في خبر كان، ويتلاشى بين طيات الزمن، جدير بنا أن نتأمله بتبصر وإمعان، فلا بد أن نعرف أنه احتوى ما يؤنس وما يوحش جنباً إلى جنب، وهذا هو سر الحياة، والإنسان الواعي بإمكانه، وباستمداد العون من إلهه أن يخرج من " **الآكل أكلاً ومن الجافي حلاوة** " (قضاة 14: 14)، أي أن يجعل ما يوحش مؤنساً، ويستخلص السعادة من أمور ممزوجة بالمرارة، ويرفع ألوية السلام لترفرف في أجواء حياته، فيشعر بالسعادة والطمأنينة.

إن أول ما يذكرنا به غياب عام هو أن حياتنا على هذه الأرض إن هي إلا رحلة ما تفتأ أن تنتهي تماماً كما ينتهي العام ويرحل إلى الأبد، وما علينا سوى أن نتخذ العبر من رحيله لحياتنا، والعام بحد ذاته لا يمكن أن يكون بلا معنى، ولا يخلو من ومضات نيرة مهما كان مظلماً في نظرنا حتى الإنسان مهما كان سيئاً لا يخلو من ومضات خيرة كامنة في

زوايا نفسه، تلتهب في ظرف ما لتكون نوراً ساطعاً يقوده إلى سواء السبيل، فيغدو إنساناً سوياً، هكذا نقرأ عن أشخاص عصاة فإذا بهم ينضمون إلى مصاف أصفياء الله.

لنحرص إلا تفوتنا فرصة الاستفادة من مجريات الأحداث خلال العام، فالإيجابية منها نسعى إلى تكرارها في العام الجديد، بل زيادتها إن أمكن، والسلبية نعيدها إلى الأذهان لنكتشف سرها ونقف على أسبابها، فنعالجها، قبل أن تتكرر في عامنا الجديد.

إن تأملنا بالعام المنصرم يضعنا على محك اختبار الذات، فيشعرنا بالذنب والخجل إن كنا قد أضعناه سدى دون الاستفادة أو الإفادة بأي وجه كان، ونعتبر أن ذلك العام لا يحصى من سني حياتنا كقول الشاعر:

إذا مر بي يوم ولم اتخذ يداً ولم استفد علماً فما ذاك من عمري

إن ناموس الأخلاق يقضي على كل فرد أن يقدم شيئاً فيه صلاح في كل عام من أعوام حياته، مهما كان ضئيلاً، فالمهم أن يمد المرء يده نحو الخير العام ومن موقعه أياً كان، فإذا كان قد أعطى كثيراً فليعط كثيراً، وإن كان أعطى قليلاً، فليعط بقدر ما يستطيع إعطاءه، ذلك أن الله الذي أعطى نعمة العقل للإنسان ليقوده إلى الصواب والرشاد، سيحاسبه إن هو أهمل هذه النعمة وقصّر في ما كان باستطاعة فعله، وبعبارة أخرى وبحسب منطوق الإنجيل المقدس، إن هو طمر الوزنة و لم يتاجر بها.

لقد وضع الله للإنسان هدفاً بالغ الأهمية يتمثل في السعي وراء السلام وزرع بذور المحبة والوئام، وفتح الأبواب أمام الأفراح لتدخل قلب الإنسان " **افرحوا يقول الرب ثم افرحوا** " (في 4: 4)، فالله يردنا أن نكون فرحين، وفي الوقت نفسه يريد أن ندخل الفرح إلى قلوب الآخرين، ونرسم على وجوههم ابتسامة رقيقة. نعبر عما يختلج في نفوسهم من فرح ومسرة، فهل رسمت، أخي القارئ، خلال العام المنصرم ابتسامة على شفتي بائس أشغله الدهر بكاهله ؟ هل حاولت أن تبدد ما تلبد من ظلام اليأس حول الآخرين، فأحال فعلك هذا ظلاً مهم نوراً وشقاءهم سعادة، ثق أن فعلاً مثل هذا يدخل السعادة إلى قلبك قبل أن يدخلها إلى قلب ذلك البائس. أخي القارئ، دع ضميرك حياً ورقيباً عليك ليحاسبك عن كل تقصير يبدر منك في حقك أنت أولاً وفي حق أخوتك في الإنسانية، دعه يلعب دوره الفاعل في حياتك، فهو أمين أن يقودك إلى المرابع الخضراء ومرابض العزّ والكرامة، وأعلم أنه عندما نقول " السعادة " لا نعني بالضرورة المتعة بمفهومها المادي الجسدي، لأن هذا النوع من المتع لا يفتأ أن يزول، أما المتعة غير الزائلة والتي تخلق في الداخل سعادة حقه، فهي المتعة التي نشعر بها ونحن نعيش حياة الروح، حياة المسيح، وأخطأ.

من توهم أن السعادة تتمثل بمتع الدنيا، فليصب كل اهتمامه ومساعيه للحصول على حطام الدنيا وكأنها مصدر السعادة، أنها مجرد

إضافات أحلام وأوهام كاذبة خادعة، لا تبرح أن تتلاشى كما يتلاشى الضباب والدخان.

إن مجالات الحياة واسعة أمام كل فرد للعمل سواء في الناحية الاجتماعية أو الروحية، ولكل من هاتين الناحيتين شأن كبير في رحلة حياة الإنسان، ولئن كان الناس اليوم يرجحون كفة الناحية الاجتماعية على الروحية بفعل طغيان المادة القاتلة، ترى هل أنها الأزمنة الأخيرة التي قال عنها الرسول بولس " **فيها يرتد قوم عن الإيمان** " (1 تم 4: 1)، أو هي كما قال الرسول بطرس عن الذين، بعدما عرفوا طريق البر يرتدون عن الوصية المقدسة المسلمة لهم (2 بط 2: 21)، نحن نجهل الساعة واليوم، ولكن ما نعرفه هو ضرورة افتداء الوقت لأن الأيام شريرة (أف 5: 16)، فالأيام والأعوام تتساقط من شجرة حياتنا عاماً بعد عام كتساقط ورق الأشجار في خريف كل عام.

شخصيات

البرادعي الخالد

ملامح شخصية مار ميخائيل الكبير

وحلت البركة

البرادعي الخالد

" إن الرب قد اختار يعقوب لذاته " (مز 135)

هذا ما يسرني أن أتوج به هذه اللمحة القصيرة والبسيطة عن رجل الله الكبير مار يعقوب البرادعي الذي نكرم اليوم جهاده في سبيل الله والكنيسة، فلو ألقينا نظرة على مسيرة حياته منذ صبوته لأتضح لنا أن الرب حقاً قد اختاره لهذه المهمة الشاقة، وفي ظروف كانت الكنيسة بأمس الحاجة إلى رجل مختار من الله ليكون لها سنداً وعضداً، فلم يكن بإمكان أي إنسان أن ينجز تلك المهمة في مثل تلك الظروف القاسية التي بعث فيها الله مختاره مار يعقوب ليجري على الكنيسة السريانية عملية تنفس اصطناعي، إن صحَّ التعبير، ويعيد إليها الحياة بعد أن كادت تفقدها من جراء الضغط البيزنطي.

إن مسيرة هذا الرجل تشبه في بداياتها سيرة أمِّنا العذراء مريم في فترة الطفولة، فالعذراء كانت نذيرة للهيكل، لذا أُخِذت إليه وهي في الثالثة من عمرها، وكذلك مار يعقوب، فقد كان نذيراً للرب، لا سيما وقد ولد استجابة إلى الصلوات والدعوات والنذور التي قدمها والداه إلى الله كما كان شأن العذراء مريم أيضاً، فأُخِذ إلى المدرسة وهو في الثالثة من عمره لكي يتروض على التقوى ومخافة الله، ويرضع لبان التعليم الإلهي منذ طفولته، وفي السن المناسبة للحياة الرهبانية اصطحبه والداه إلى دير يعرف بدير (فسيلتا)، المجاور لمدينة تل موزلت مسقط رأس مار يعقوب المولود في أوائل القرن السادس، وهو ابن كاهن فاضل يُدعى ثاوفيل بن معنو.

الراهب يعقوب : كان شوقه إلى معرفة كتاب الله كشوق أيل ضمآن إلى نبع صاف، فتعلم اللغة اليونانية إلى جانب اللغة السريانية، وأخذ ينهل من العلوم الروحية والأدبية ما يشاء، ويروّض نفسه على أعمال النسك والفضلية والقداسة ومحبة الله والكنيسة، لا سيما وقد وجد في ظروف كانت الكنيسة بمسيس الحاجة إلى أناس يكرسون ذواتهم لخدمتها ويقفون سداً منيعاً ضد التيار الجارف الذي كاد يطيح بها ويطمس معالمها، وبعد أن اجتاز فترة الاختبار، وتبين أنه أهل للحياة الرهبانية، أُلبِسَ الأسكيم، فوضع العالم وراءه ولم يعد كأنه ابن الأرض بل ابن السماء، حتى أن والدته وبدافع عاطفة الأمومة القوية حاولت مراراً أن تصطحبه إلى المدينة، فيجيبها بكلمات رقيقة **كفى يا أماه، كفى**

ولا تضغطي على عواطفي لأنني قد خطبت نفسي مرة واحدة للختن السماوي الخالد وغدوت له بكليتي وليس لك، وخلال فترة وجيزة ينتشر صيت الراهب يعقوب في أرجاء المعمورة فيصل إلى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية، وكانت يومذاك ثيودورة السريانية تجلس على عرش هذه الإمبراطورية زوجة ليوسطنيان، وكانت حدة النقاش على أوجها بين المعترفين بمجمع خلقدونية وغير المعترفين به بسبب اختلاف في التعبير اللفظي عن سر تجسد كلمة الله وكانت هذه النقاشات تجري في القسطنطينية تحت إشراف الإمبراطور المباشر أو غير المباشر فاقترح بعض المؤمنين على الراهب يعقوب الذهاب إلى القسطنطينية ليدافع عن وجهة نظر الكنيسة في ما يخص الكريستولوجي أي شخصية السيد المسيح، فاعتذر في بادئ الأمر، إلا أنه وافق فيما بعد نزولاً عند رغبة البطريرك مار سوبريوس الكبير ومار يوحنا أسقف مدينته اللذين ظهرا له في الرؤيا، إذ كانا قد غادرا هذا العالم قبل فترة وجيزة وحثّاه على الذهاب، فشدّ الرحال مع نخبة من الرهبان.

الراهب يعقوب والملكة ثيودورة : مذ طرق مسامعها خبر الراهب يعقوب، وما كان عليه من غيرة وقّادة للكنيسة، والشأن الذي بلغه من الحكمة والأدب وفصاحة الكلام حتى أشتاقت جداً إلى رؤيته، وكم كان فرحها عظيماً لما سمعت أنه قد وصل إلى القسطنطينية يرافقه الراهب الورع سرجيس وغيره، ثم أنضم إليهم بعض الإكليروس،

فعقدت اجتماعات بين الوفد السرياني برئاسته والوفد البيزنطي، غير أن تشبث الوفد البيزنطي برأيه لم يعط مجالاً لاتخاذ قرار حاسم في إعادة وحدة الكنيسة، من الأساقفة والإكليروس بسبب الضغط البيزنطي المعروف، اقترح حارث بن جبلة ملك الغساسنة على الملكة ثيودورة التي عرفت بإخلاصها واهتمامها البالغ بشؤون الكنيسة، أن تعمل جهدها لرسامة بعض الأساقفة فوقع الاختيار على راهبين فاضلين هما مار يعقوب وثيودور، ولما كانت الكنيسة قد خلت تقريباً فرسما من قبل ثيودوسيوس بابا الإسكندرية الذي كان مبعداً عن كرسيه وقد احتضنته الملكة وهيأت له جناحاً خاصاً في القصر، يعاونه بعض الآباء الذين معه، فرُسِم الراهب يعقوب للرها ولسائر سورية " مطراناً مسكونياً "، وثيودور أسقفاً للعرب ومركزه بصرى الشام.

الراهب يعقوب والملك حارث بن جبلة : حارث ملك غسان، مؤمن سرياني أرثوذكسي، غيور على مصلحة الكنيسة، يسعى إلى السلام، ولا يألو جهداً في سبيل استقرار الكنيسة وعيشها بسلام، تصله أخبار الراهب يعقوب ويقف على فكر يعقوب الذي يتطابق مع فكره في ما يخص الوحدة والسلام، ومن ناحية أخرى أراد رؤيته نظراً لما كان عليه من قداسة وكثرة المواهب، فما كان منه إلا أن يشد الرحال مع بعض أعيان بني غسان محملين بهدايا ثمينة جداً، لكي يوجهوا له دعوة لزيارة مملكته التي كانت تعاني من مأساة بسبب وباء فتّاك، علّه يرفع

عنها الله تلك المأساة بصلاته، ولما التقى الحارث والوفد االمرافق، فاجأهم بهذه الكلمات : أيها الرجل لماذا شككت بموهبة الله العلي ؟ عُد إلى أرضك أنت وأُمراؤكَ وأطلق سراح رجل الله الطورسيني المعتقل لدى بعض رجال قبيلتك، فإن الذي أصابكم إنما هو بسببه، أطلقوه فيزول عنكم الضيق ولا يعود الوباء يفتك بكم...، أما ما أتيت به من الهدايا فأعده معك فأنا لست بحاجة إليه إذ لا رغبة لنا أن نقتني شيئاً سوى محبة الله، ولدى عودته كان الوباء قد زال، ثم عثر على الراهب المُعتقل فأطلق سراحه وأمر بقتل الرجل الذي احتجزه، فعاد إلى ديره في طورسينا، ولما علم الحارث أن الراهب يعقوب قد وصل إلى العاصمة وفاز بحظوة بالغة لدى الملكة ثيودورة التي خصصت له ولزميله داراً لإقامتهما، حضر إلى هناك وتوسط لدى الملكة التقية لكي تعمل على رسامة بعض الرهبان أساقفة، فاستجابت وتمت الرسامة كما مرّ بنا.

خلال حياته الرهبانية كان مار يعقوب ملازماً قلايته ممعنا في الزهد والتقشف، يعشق الهدوء والسكينة ونادراً ما كان يشاهد خارج قلايته، وبعد رسامته كاهناً، فاح أريج قداسته فتوافد الناس إليه لنيل البركة والأشفية، وأخيراً عُيّن رئيساً لديره، وإمعاناً منه في التقشف، فإنه كان يرتدي مسوحاً أشبه بالبردعة، ومن هنا جاء لقبه بالبرادعي.

المطران يعقوب : لم يقتبل الراهب يعقوب الدرجة الأسقفية لكي يجلس على عرش عاجي يأمر وينهي، لكنه كرّس حياته لخدمة

المسيح وكنيسته، فشمّر عن ساعد الجد والعمل، فأخذ يجول ويصول مقيماً إكليروساً لخدمة الشعب وتثبيتهم على معتقدهم، غير أن تلك الرسامات لا تتم إلا بعد فحص المرشحين والاقتناع بأهليتهم على حمل المسؤولية سواء رسموا أساقفة أم كهنة، وقد بلغ عدد الكهنة الذين رسمهم نحو /102/ ألف و/27/ أسقفاً وبطريركين، واحد لأنطاكية والآخر للإسكندرية، كما رسم القديس مار آحودامه مطراناً عاماً للكنيسة في المشرق سنة /559/ بعد أن زار كسرى أنوشروان الفارسي، يُقال أنه كان يقطع نحو /40/ كم في اليوم الواحد مشياً على الأقدام، يرسم إكليروساً وهو بزي المستعطي ويتفقد شؤون المؤمنين، ولم يدع منطقة في أرجاء الإمبراطورية البيزنطية الشرقية إلا وزارها، وقد وصفه بعضهم " بظبي من ظباء الصحراء "، وحيثما وصل كان يعالج مشاكل المؤمنين، ونسجاً على منوال الرسل لم يحمل شيئاً خلال تجواله التبشيري متكلاً على العناية الربانية.

من سياق سيرته نستطيع أن نقف على بعض مزاياه النبيلة والإنسانية : **لقد أمعن في الزهد إلى حد قوله ليعط مال الدنيا للدنيا، فإننا لم نعتد أن نمتلك مع الله شيئاً**، وتحمل من المعاناة والمتاعب وقاسى من الأخطار ما لم يقاسه غيره، كان أحد أهم رواد وحدة الكنيسة المسيحية، فبذل قصارى جهده في سبيل ذلك.

غيرته للكنيسة واضحة لا غبار عليها، قال عنه البابا دمياتس : **لم تكن له قط يدٌ في الشقاق الحاصل بين الكنائس، بل كان لدى تجواله بيننا وبينكم يقرب رباط المحبة ويجله ويفضله على كل شيء آخر .**

نهاية حياته : كثيراً ما يعلن الله في رؤيا لمختاريه والسالكين سبله القويمة عن يوم مغادرتهم هذه الحياة، وهذا ما حدث للقديس البرادعي الخالد الذي حبا بالسلام، قصد الإسكندرية سعياً وراء تحقيق أمنيته الغالية، وعلى حدود مصر حلَّ والأساقفة المرافقون في دير مار رومياتس وهناك علم بقرب رحيله، فأعلن بأنه وثلاثة من مرافقيه سيرحلون عن الدنيا بعد أيام ثلاثة، ففي غضون يومين توفي الثلاثة وفي اليوم الثالث فاضت روحه الطاهرة إلى الملأ الأعلى في الثلاثين من تموز سنة /578 م/، فتأثر دميان بابا الإسكندرية جداً وحمُل ما تبقى من الوفد المرافق رسالة تعزية للكنيسة، وقد حاول البابا نقل جثمانه إلى الإسكندرية فرفض أساقفة الدير، وأصروا أن يدفن عندهم تبركاً، وبعد مضي /43/ سنة على وفاته عزم أسقف مدينة تلا على نقل رفاته، فأرسل وفداً من أربعة رهبان مشهود لهم بالتقوى لجلب الرفاة، وبدهاء خارق استطاعوا العودة بها، فوضع في الهيكل الذي كان قد شيده هو في ديره، باحتفال مهيب منقطع النظير.

ملامح من شخصية مار ميخائيل الكبير

ليس مستحيلاً ولا أمراً عسيراً الوقوف على شخصية إنسان ما وتحليلها إن نحن لم نره أو نعاصره أو نتعامل معه بصورة مباشرة، أننا نستطيع ذلك من خلال كتاباته ونظرته للآخرين.

القديس ما ر ميخائيل الكبير أحد هؤلاء الذين وقفنا على شخصيته من خلال قراءتنا لبنات أفكاره المودعة في كتاباته، ولعل في طليعة مزاياه يأتي تواضعه الجم الذي كان ولا شك السبيل الأمثل لنجاحه، لأن التواضع يفتح أبواب النجاح على مصراعيها ويستدر فيض نعم الله ومواهبه، لأنه تعالى يعطي الكرامة اللائقة للمتواضعين فيرفعهم من المزبلة ليجلسهم مع عظماء الشعب كما أن التواضع أداة بنيان فاعلة لكونه يخلق جواً من الحب والصداقة والترابط بين الرئيس والمرؤسين

ويمتن العلاقة بينهم، بعكس الفوقية أو التعالي الذي يخلق جواً من النفور والاشمئزاز ومن ثم يشكل معولاً هداماً لتقويض الألفة والوفاق، ولعل أبرز دلالات تواضع مار ميخائل هو اختفاؤه بعد أن نقل إليه نبأ انتخابه بطريركاً ولكن هل تخفى مدينةٌ مبنيةٌ على جبلٍ، لذا فقد استسلم أخيراً للروح القدس الذي اختاره خادماً أميناً لكنيسته المقدسة في ظرفٍ صعب وعصيب جداً، ولكن عن طريق الرئاسة. ومن علامات تواضعه أيضاً أن ينسب إلى نفسه كل ما يحدث في الكنيسة من مشاكل وخلافات، فيقول مثلاً : **في هذه الفترة ثارت ضد ضعفي، وبسبب خطاياي، زوبعة لا يستهان بها، ربما لكي نشترك بآلام القديسين ولو بمقدار خنصر،** ترى ألا يشبه موقفه هذا موقف العشار الذي امتدح الرب يسوع تواضعه ؟ أنه يعيد عبارة : **بسبب خطاياي** أو عبارة : **الله تخلى عني بسبب خطاياي** عشرات المرات، لأنه أمر طبيعي جداً أن يجنح الإنسان المتواضع إلى السلام لا سيما إذا زج في بحر متلاطم من المشاكل والنزاعات، إذ أن السلام هنا يكون الوسيلة الأنجح لتذويب الخلاف وتوحيد القلوب ورصّ الصفوف وانتزاع فتيلة الكوارث والدمار. وإذا كان السلام من صميم الروح المسيحية فهو حريٌ بالأولى بأن يلتزم به من يكون واجهة للمسيحية وأعني بهم القادة الروحانيين الذين يجب أن يسلكوا الطرق السليمة في حل المشاكل بعيداً عن العنف الذي يتناقض والروح المسيحية. وهذا كان شأن ملفاننا الكبير مار ميخائيل الذي يجدر به اللقب **محب السلام**، فمثلاً كان بإمكانه أن ينزل العقاب الصارم

برهبان دير مار برصوم الذين أهانوا رئيسهم الشيخ لكنه فضل أن يتجشم عناء السفر إلى الدير لتسوية الأمر سلماً. وفي خلاف نشب بينه وبين مفريان المشرق، كان بوسعه حسم الموضوع لصالحه بحسب القوانين الكنسية، غير أنه أرسل وفداً إلى المفريان مع رسالة تفيض حباً وتقديراً وإذ لم يستجب المفريان، عقد مجمعاً قدّم فيه المفريان اعتذاره ملتمساً العفو فعفا عنه وساد السلام في الكنيسة، وفي حادثة أخرى نراه يتعامل بالحسنى والكلمة الطيبة مع معارضيه فيجعل منهم مؤيدين له ومناصرين، وبهذا الأسلوب الإنساني استطاع أن يشيد له صرحاً شامخاً في قلوب المؤمنين لا سيما وقد أتصف بالنزاهة والإخلاص، لا أقول النزاهة في حياته وسيرته فحسب بل وفي كتاباته أيضاً، وهذه من أجل المميزات التي يجب أن تتوفر بمن أ نعم الله عليهم بموهبة الكتابة وبخاصة المؤرخين الذين أحدهم مار ميخائيل، فهو لا يغمط حق أحد، فلا يتغافل مثلاً عن الإشادة بما يأتيه خصومه من أعمال تستحق الإشادة، وقلما يفعل غيره هذا، لا بل أن الكثيرين يطمسون حقوق الآخرين في كتاباتهم أما مار ميخائيل فقد كان يراعي جانب الحقيقة مهما كانت ولئن جاءت على حسابه أو حساب كنيسته وقد أشار إلى هذا الأمر ضمن ما سطره عن تمرد بعضهم على القوانين الكنسية باقتبالهم رئاسة الكهنوت بصورة غير شرعية، يقول : **لقد راعينا جانب الحقيقة في وضعنا هذا الكتاب بحسب ما يملي علينا الواجب، فسوف لن ندون هنا سوى الحقيقة ولن ندس فيها أي زيف ونحن أ مام الله فاحص القلوب وأن أخوتنا الأساقفة**

والرهبان والكهنة والشمامسة والعلمانيين **يشهدون على حقيقة ما يكتب خالية من التزوير والتحوير**، أما بخصوص إخلاصه لكنيسته ووطنه فحدث ولا حرج فقد ظهر إخلاصه لكنيسته فيما أحتمله من أجلها ليس ممن هم خارجها فقط بل وممن هم في الداخل أيضاً فكان يجاهد زائداً عن حياضها من عدة جهات وإذ كان مع الله وكان الله معه فقد حالفه النصر دائماً أما بالنسبة إلى إخلاصه للوطن فيبدو من ديباجة الرسالة التي أنفذها إليه السلطان العثماني ميغصلان وجاء فيها : **إلى البطريرك ميخائيل صديق دولتنا والداعي من أجل نجاحنا المقيم في دير مار برصوم والذي يسره ازدهار دولتنا، نعلن أن الله قد عظّم شأن دولتنا في هذا الزمان بصلواتك**، وهكذا تبدو لنا عصامية هذا الرجل، والعصامي هو من التزم بالمبادئ والقيم والقوانين والنظم واحترمها وحرص عليها باعتبارها تشغل حيزاً هاماً من حياة البشر. فهل هو ذا يرفض بإباءٍ أمر والٍ عاتٍ أراد أن يخل بقوانين الكنيسة بالعمل على نقل مطران من أبرشية إلى أخرى دون مسوغ شرعي، فإذا به يسمع البطريرك يقول له : **أن مطلبك ليس قانونياً فقوانيننا لا تسمح بنقل أسقف من مكان إلى آخر، لذا فليس بإمكاني أن أفعل هذا**، وفي حدث آخر مشابه يقول لنائب السلطان وهو يهدده إن لم يخضع لأمر السلطان **أنا أفضل قطع رأسي على أن أتعدى الشريعة تحت ضغط ما**، ثم كشف عن عنقه وقال : **هوذا أمد عنقي بمحض إرادتي فلكم أن تقطعوه فإني لن أتعدى على القوانين** أو أنقض الأنظمة، وفي هذا الصدد يقول :

عندما دعيت إلى هذه الخدمة الخطيرة رأيت من الواجب عليَّ احترام القوانين المقدسة والدفاع عنها وحذرت من أن يضرب أحد الأنظمة الكنسية عرض الحائط، وأن هذا الموقف ينم عن السياسة الحسنة التي أتبعها في إدارة دفة الكنسية، لا سيما فيما يخص حل المشاكل، علماً بأن أية منظمة دينية كانت أم مدنية لا بد وأن تجابه مشاكل متنوعة، والمهم في مثل هذه الحالة هو الطريقة المثلى لحلها وقد كانت المشاكل والخلافات في عهد مار ميخائيل متشعبة وضاربة أطنابها في كل مكان وزاوية، فكان بحلمه وإيمانه وحكمته يجد لها حلولاً مناسبة، غير أن البعض يفسرون حلم المرء وصبره ومحبته إلى ضعف شخصية، ولكن مار ميخائل وبالرغم من حلمه ومحبته كان يتعامل أحياناً بالعصا والحزم عندما يقتضي الأمر وعلى سبيل المثال نقول : **أن رهبان دير مار برصوم تمردوا عليه فعزا ذلك إلى الاحترام والمحبة والدالة الزائدة التي كان يوليهم إياها**، ولكن هل وقف البطريرك مكتوف الأيدي تجاه التمرد والعصيان ؟ كلا بل أننا نسمعه يقول : **لقد تعاملنا معهم بالعصا وبأسلوب الأمر لئلا يتطور الجرح إلى الآكلة**، هذه الصورة لشخصية مار ميخائيل التي أمكننا استخلاصها من كتابه، ترى أليس هذا كافٍ لكي تضفي صفة القداسة على ملفاننا الكبير مار ميخائيل ؟.

وحلت البركة *

من أعماق قلوب تتفجر سعادة وغبطة ونفوس تفيض بمشاعر جياشة معلقة بشذى كرسي أنطاكية العظيم، يعبر عنها هذا البِشرْ المرتسم على هذه الوجوه الباسمة، يسعدني أن أرحب بقداستكم باسمي وباسم أبناء أبرشية الموصل وتوابعها التي واكبت التاريخ منذ أجيال سحيقة، وفي مدينتكم الموصل التي أنجبتكم وهي تتيه بكم فخراً واعتزازاً لكونها قدمت للكنيسة، لا بل للوطن هذه الثمرة الحلوة التي يعتز بها القاصي والداني. هذه المدينة التي طالما تنسمت عطر طفولتكم وأنتم تتجولون بين شوارعها وأزقتها. ترحب بكم في أبرشيتكم صاحبة الأمجاد

* هذه كلمة الترحيب بقداسة سيدنا البطريرك مار أغناطيوس زكا الأول عيواص لدى زيارته أبرشية الموصل في نيسان /1998/.

الخالدة بعطائها الثّر من رجالات الكنيسة الميامين الذين سجّلوا أروع الصفحات في تاريخ الأمة المجيد. هذه الأبرشية التي رعيتموها وخدمتموها ردحاً من الزمن بكل جدارة وكفاءة، وبهمة عالية لا يعتريها ملل أو كلل، كما هو شأنكم اليوم في تسيير دفة الكنيسة جمعاء المنتشرة في معظم أصقاع العالم. أبرشية الموصل في عرس لا أجمل ولا أبهى، نشوى بخمرة الحب الذي تكنه لراعي رعاتها الصالح الجالس على كرسي مار بطرس العظيم، والتي اندفعت عن بكرة أبيها بشيبها وشبابها برجالها ونسائها وأطفالها وحتى الرضع منهم، كما خرجت يوماً أورشليم وفتحت أبوابها أمام الآتي باسم الرب، خرجت تحتفي بقدومكم يحدوها الشوق الذائب الذي تراكم في أعماق أبنائها خلال ستة عشر عاماً التي حرم منها متعة رؤية هذه الطلعة البهية التي تذكرنا بطلعة موسى النبي بعد أن استنارت بالنور الإلهي، وأبينا ابراهيم ويعقوب وسواهم ممن تزينت حياتهم بالمجد والبهاء نظراً لقربهم من الله. كما يذكرنا عطاؤكم الثّر في مختلف ميادين الحياة، الإدارية منها والعلمية والإنسانية والوطنية وسواها، بأفرامنا السرياني العظيم وسواه ممن زينوا تاريخ الكنيسة السريانية بمحامد الأعمال وصوالح المآتي وطوقوا جيدها بقلائد ثمينة أين منها قلائد التبر والذهب، هي قلائد التُقى والقداسة والعلم والمعرفة.

وطئتم أرض الوطن الحبيب حاملين إليه البركة والخير لا سيما وقد تزامنت زيارتكم هذه الرسولية الميمونة مع النصر العظيم الذي أحرزه الوطن ضد البغاة والطغاة الذين يجوبون البر والبحر ليجدوا لهم

فريسة ينهشونها بأنيابهم السامة القذرة ويزجونها من ثمّ في غياهب الهلاك. وأعني بالنصر الاتفاق المعلن بين الوطن والأمم المتحدة هذا الاتفاق الذي ألجأ المعتدين إلى إعادة سيوفهم إلى أغمادها مكرهين بعد أن أشهروها مهددين بالويل والثبور وعظائم الأمور، إنكم رسول سلام أينما اتجهتم وحيثما حللتم، وهذه مساعيكم الحميدة في هذا المضمار خير شاهد على ما أقول، وهي ليست بخافية على أحد.

أما عن مواقفكم الوطنية فحدث ولا حرج، فهي أشهر من نار على علم، فهذه مواقفكم تجاه فلسطين وسوريا ولبنان والعراق يتحدث عنها الركبان ولا يختلف فيها اثنان، وعلى سبيل المثال أقول لا الحصر : لقد رفضتم مؤخراً دعوة لزيارة لندن يوم كان سيفها مشهراً على الوطن، وقلتم لسفيرها في دمشق الذي حثّكم على تلبية الدعوة، كيف أزور بلداً يهدد بلدي بسلاحه ؟ ولما انقشعت تلك الغيمة السوداء، أنذاك فقط لبيتم الدعوة. أن معطياتكم لا تقتصر على مثل هذه المواقف فقط بل تتعداها إلى النواحي الفكرية أيضاً ولا شك أن أروع العطاء الفكري الذي يقدم الوجبات الدسمة من الغذاء الروحي فقد أوليتم هذه الناحية المقام الأول في حياتكم، لذا فقد غزر عطاؤكم الفكري فأغنيتم المكتبة السريانية بنفائس مؤلفاتكم ومقالاتكم التي لا حصر لها ومحاضراتكم في المعاهد العالية والجامعات العالمية لها مكانتها وشهرتها في الشرق والغرب، وإن أنسى لا أنسى همتكم في غرس روح محبة العلم في نفوس طلبة كلية مار أفرام اللاهوتية وإرسال بعضهم للدراسات العليا في أشهر

الجامعات اللاهوتية، وإبراز أهمية العلم والثقافة في حياة الشعوب ومن هنا أنطلقتم لإنشاء أضخم مبنى لهذه الكلية وليكون في الوقت نفسه مركزاً للدراسات والأبحاث لمن يشاء لا سيما للمستشرقين الغربيين، حيث وفرتم لهم كل أسباب الراحة من أجل إنجاح أعمالهم، ذلك هو دير مار أفرام في معرة صيدنايا، هذا المبنى الفخم الذي لم تكتحل عين الكنيسة السريانية بمثله عبر أجيالها الساحقة. كل هذه الأمور تقف شاهداً لكم بطول الباع في جميع ميادين الحياة. ألا دمتم فخراً وعزّاً، ترعاكم عين الله الساهرة ويؤازركم ويشدد عزمكم، روحه القدوس.

الكلمة الأخيرة
أنت والله

في كلمتي هذه الأخيرة، سوف لن أشذّ عن القاعدة المتبعة في سائر كلماتي التي كان الإنسان محورها، تدور حوله محاولة منها (ولَئِن متواضعة) تنقية بيدر حياته من الشوائب والأدغال العالقة به التي تشوه جمال صورته من حيث يدري أو لا يدري. ففي جولة يقوم بها القارئ الكريم في محتويات هذا الكتاب سيجد ولا شك أنه يرمي إلى خير الإنسان وسعادته. وفي طوايا بعض المواضيع حَثّ على العيش المشترك بين أطياف المجتمع كافة لكون الله خلق الإنسان اجتماعياً بطبعه، وللتعاون لتأمين هذا النوع من العيش. ومن البديهي أن هذا لا يتم بالصورة المتوخاة، ما لم توجد شركة مباشرة مع الله الذي زرع في قلب

الإنسان عنصر المحبة وأوجب تبادلها بين بني البشر " **أحبوا بعضكم بعضاً** "، وأن يتبادل الإنسان وأباه هذه المحبة التي من شأنها عدم نسيان صاحب الفضل، فماذا لو كان صاحب الفضل هو الله ؟ ترى ماذا يعنيه نسيان الله، ألا يعني انهيار صرح العلاقة ما بينه وبين الإنسان.

إن إنسان هذا العصر، يذكر الله في ظرف ويتناساه في ظرف آخر، ويذكره في الشدة والضيق وحلول الكوارث والنكبات، وينساه لدى انقشاع غيمتها والدخول في عالم الارتياح والتنعم. وفي مثل هذا الموقف يبدو الإنسان غريب الأطوار حقاً، في تعامله مع الأحداث وكأن شيئاً لا يعنيه سوى ذاته، ولا يرضيه شيء إن لم يكن بين مفردات رغباته وطموحاته أو منقوشاً على لوحة قلبه. فلما يزجه الدهر في مهاوي مأساة، يتذكر أن له إلهاً ينجده في أية لحظة ينتخيه، فيسعى الى دور العبادة مستنجداً وطالباً الأبد للتخلص من معاناته بسبب قساوة ما حل به. هذه الظاهرة بادية للعيان كلما أنشب الدهر أنيابه القاسية في حياة إنسان أو شعب ما، فنرى الكنائس تعجّ بالمصلين مبتهلين متضرعين رافعين الأكف والأنظار إلى فوق حيث عرش الله. ولكن سرعان ما تزول الشدة، حتى تبدو علامات التمرد على الله. وتخبو كلمات الإغاثة التي نطق بها في الكنيسة لكونها لم تكن نابعة من القلب، إنما منطلقة من الشفاه فقط. قال تعالى بهذا الصدد " **هذا الشعب قد اقترب إليّ بفمه وأكرمني بشفتيه وأما قلبه فأبعده عني** " (أش 29: 13). وهذا ما يفسر الرجوع السريع عن خط الله. والرسول بولس يحذر من مثل هذا الموقف

" **لا تخدعوا أ نفسكم هو الله لا يُستهزأُ به** " (غل 6: 7).

لعل أفضل مثال على هذا الموقف، ما دوّنه الكتاب المقدس عن فرعون مصر الذي كان يستجيب الى نداء الله لإطلاق الشعب من مصر، حين تتوالى الضربات المؤلمة على بلده فيشعر بضيق شديد فيستسلم لله، ولكن ما أن تزول الضربة وتلوح علامات الانفراج حتى يشرع بتحدي الله ثانية وهكذا دواليك. والهدف من ذكر هذا الحدث، أن يدرك المرء الذي يضع نفسه بين مد وجزر في موقفه مع الله، بأن الحياة لا تسير على وتيرة واحدة، وليست لوناً واحداً، فجمالها بتعدد ألوانها واختلاف صورها. فلكل من الألم والفرح طعمه الخاص ولكل من الضيق والفرج مذاقه المتميز. فلا يفكّرنَّ أحد وهو في بحبوحة ورفاهية بأن الحالة عنده مستقرة ومستمرة إلى ما لا نهاية، والعكس بالعكس. فالعلاقة مع الله يجب أن تقوم على أسس مبدئية راسخة، في طليعتها المحبة التي تعمل مع الحلم والصدق والتواضع.

ففي داخل كل إنسان عناصر أضداد. حلم وقسوة، صدق وكذب، تواضع وعنفوان. وهي دوماً في صراع مستمر يتوقف النصر للأقوى، والقوة هنا تستمد من إرادة الإنسان.

فإن مالت نحو الإيجابيات، كان الإنسان حليماً، صادقاً، متواضعاً، والحليم من صبر على الضيق وتترجح لديه كفة الغلبة. وإن مالت الإرادة نحو السلبيات. كان قاسياً، فظّاً ومستعلياً. فالحليم والحالة هذه باستطاعته التغلب على المصائب بصبره وأناته وعدم ثورانه لمجرد

كلمة يسمعها. وهكذا تتوثق علاقته مع الله، والاستمرار على العيش مع أخيه الإنسان فيذكر الله وقت الكرب والفرج على حدّ سواء. يقول القديس يعقوب" **أحسبوه كل فرح يا أخوتي حينما تقعون في تجارب متنوعة** " (يع 1: 2) . الله هو ملء الجود والنعمة يفيضها على الجميع، الأبرار ليزدادوا براً، والأشرار ليرجعوا عن شرهم فتتعافى صحتهم الروحية وينتظمون في صفوف أبناء الله الذي لا ينسى أحداً بفرط محبته. يقول على لسان أشعيا النبي " **هل تنسى المرأة رضيعها فلا ترحم ابن بطنها، حتى هؤلاء ينسين وأنا لا أنساك** " (49: 15). لا تدع هذا الموقف يغيب عن ذهنك.

في مثل لعازر والغني الذي أ نعم الله عليه بخيرات وفيرة، تحذير واضح للذين تقسوا قلوبهم على أخوتهم المعوزين، فلا يعرفون سوى ذواتهم وملذاتها فينغمسون في حمأتها ويسقطون في وهدة المآتم والمنكرات. يقول الرسول بولس " **أنبقى في الخطيئة لكي تزداد النعمة** " (رو 6: 1). ترى هل أن هذا الأمر طبيعي ؟ نقول مع الرسول؛ حاشا.

بعكس هذا يلاحظ أن الضيق أحياناً يكون سبباً في عودة الإنسان إلى الله، فيتذكر أن هناك إلهاً أباً رؤوفاً حانياً على الجميع، فيعود إليه. ولكن هل أن نعرف الله وقت الضيق فقط أمر صحيح ؟ ليس صحيحاً تماماً، بل نصف صحيح، إن صحّ التعبير، وفي كل الأحوال ليس خطأ فالقليل أفضل من لا شيء. أفادني صديق كان يتحدث بكل جرأة عن مغامراته الشبابية ونسيانه الله كلياً، وإذا بوطنه يمر بأزمة في ما يشبه

حرباً أهلية إلى درجة أن أحداً لم يعد يجرأ أن يغادر داره خشية أن يصيبه مكروه كرصاصة طائشة أو اعتداء أثيم. ولما انفرجت الأزمة جاءني وهو يبتسم وقال : هل تصدق أن فلاناً (ذكر اسمه) لازمَ الصوم والصلاة مع والدته وزوجته طيلة أيام الأزمة ؟. أن فترة الضيق مهما طالت قياساً بحياة الإنسان غير كافية لتمتين العلاقة مع الله بالرغم من أنها جيدة، ولا ريب أن الله يستجيب في الضيق والفرج.. بشهادة يونان النبي " **إليك يا رب صرخت فاستجبت لي في ضيقي** " (يون 2: 2).

هذه الكلمات أضعها أمامك أخي الكريم لنتذكر الله دائماً بمناسبة وبغير مناسبة ولا نتركه، ولترنّ في ذهنك كلمته الخالدة " **لا أهملك ولا أتركك** " (عب 13: 5).

الـفـهـرس

- ➢ **الكلمة الأولى** 1
- ➢ **في رحاب الروحانيات** 5

ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان 7

الكتاب وضلال النفس 11

إن لم تكن لي المحبة...؟ 14

ينبوع الفرح 17

ماذا أفعل لأخلص ؟ 21

الهروب من وجه الله 26

هلّموا نبني 31

موقف... 35

هل أنت موجود ؟ 38

المسار الصحيح 41

الاقتسام 45

بين ظلمة الليل ونور النهار 49

لنكتب بقلم الرصاص 52

الله وقيصر 55

البُعد الآخر 61

- ➢ **ظاهر مدانـة** 67

الذات بين الحب والانتقاد 71

وما البُعد إلا ما بين القلوب 75

قليلاً من الشجاعة الأدبية 80

الحياة معركة 85

الإرادة بين الخير والشر	90
المعول المقدس	96
الضمير في المزاد العلني	101
أموات في عالم الأحياء !	106
دردشة مع فنجان قهوة	111
الأسرة المسيحية والمجتمع	116
أنبقى أطفالاً ؟	120
السلام... شهيد العصر	124
باطل... يجري على الأرض	127
بين الأمل والعمل	130
بين البصر والبصيرة	133
العنصرية	138
الغرور	145
بين الحسود والمحسود	150
أين هو أخوك ؟	154
مقاييس الحياة	159
لكل شيء وقت	164
الصراحة...	170
معاقون...	175
غنى... وغني	179
المساومة	182
لِمَ التدخل ؟	188
لا تعد تخطئ	194
الحي المائت	198

الصدق والمصداقية...	201
أنسَّ... ولا تنسَّ	205
بين السماع والحقيقة	209
الاستقلالية	213
لمنَ التحدي ؟	216
البكورية أم آكلة عدس	220
بالحكمة	225
القناعة	230
التعصّب...	234
صداقة...	238
الفايروس	242
الحجر بين الدحرجة والرماية	245
الحضارة والأسرة	248
الأمين في القليل...	251
بطولة أم حماقة	254
الأغنياء الفقراء، والفقراء الأغنياء	258
جاهل مع سبق الإصرار	263
القناع	267
الخجل	271
الصيد والاصطياد	275
الاستغلال الخاطئ	279
بين الجدّ والهزل	282
أحمق... حماقة	286
ما يليق وما لا يليق	290

بين الرجل واالبساط	294
الخمر...	299
العشرة الرديئة	303
الزائد أخو الناقص	308
داء الشهرة	312
الإيمان... وإيمان المناسبات	318
فضيلة أم عار	322
القلب المزروع	326
العمل شهادة	330
من لا يعمل لا يأكل	334
السبت أم الإنسان ؟	339
فاعل خير	343
الحجاب	347
لِمَ الغضب ؟؟؟	351
الهجرة...	354
بين الطاعة والتطوع	358
طاقة أفتيخس	361
مَن الأعظم ؟	364
مشكلة وحل	369
عَ المكشوف ؟	374
رضى الله أم رضى الإنسان ؟	379
الاستغلال بين القبيح والمليح	385
الوعد عند الحر دَينٌ	390

➢ **ميلاديات**	395
من وحي الميلاد	397
قيم الميلاد	400
بين المغارة والسماء	406
أبعاد الميلاد	409
حق، برّ، ونور	414
رحيل عام	420
➢ **شخصيات**	425
البرادعي الخالد	427
ملامح من شخصية مار ميخائيل الكبير	434
وحلت البركة	439
➢ **الكلمة الأخيرة أنت والله**	443
➢ **الفهرس**	448

المطران صليبا شمعون

مئة كلمة وكلمة

ܡܐܐ ܡܠܝܢ ܘܡܠܬܐ

الموصل 2006